قانون رجال العدالة الأربعة

إدجار والاس

قانون رجال العدالة الأربعة

تأليف
إدجار والاس

ترجمة
ياسمين العربي

مراجعة
إبراهيم سند أحمد



قانون رجال العدالة الأربعة

إدجار والاس

The Law of the Four Just Men

Edgar Wallace

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلى يسري.

الترقيم الدولي: ٨ ٢٢٧٣ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩٢١
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢١

المحتويات

الفصل الأول

حياة رجل في كلافام

نُشِرت لأول مرة في صحيفة ذا ستاندرد، مايو ١٩٢١

«لا يجوز أن تقبل هيئةُ المحلَّفين اقتراحاتٍ لا تستند إلى أدلَّة — حتى التي لا تستند ولو إلى شهادة السجين في حالة عدم مُثوله في قفص الاتهام — وتتَّهِمَ السيد نواه ستيدلاند بالابتزاز وحصولِه على مبلغ كبير من المال من السجين عن طريق الابتزاز. جاء هذا الدفاعُ ردًّا على استجواب الشهود وليس عن طريق تقديم أدلة. ولم يذكر الدفاعُ حتى طبيعةَ التهديد الذي استخدمه ستيدلاند ...»

تقيَّد ما تبقى من المُلخَّص بأفضلِ تقاليد هيئة المحكمة؛ وأصدرت هيئة المُحلَّفين حُكمًا باتًّا بإدانة المتهم.

امتلأَت المحكمة بجلَبة وثرثرة هامسة عندما عدَّل القاضي نظارتَه فوق أنفه وشرَع في الكتابة.

نظر الرجل من المقصورة الكبيرة المصنوعة من خشب البلوط، إلى وجه الفتاة الشاحب المُتعَب، التي استدارَت إليه من قاعة المحكمة وأهدَتْه ابتسامةً مُشجِّعة. من ناحيته، لم يدخل الخوفُ إلى قلبه وعاد ينظر جادًّا إلى الشخص على المنصَّة — شخص يرتدي رداءً باللون الأحمر الداكن وبرأسٍ اشتعل الشيبُ فيه — وهو يجدُّ كثيرًا في الكتابة. تساءل: ما الذي يكتبه القاضي في هذه الظروف؟ بالطبع ليس مُلخصَ الجريمة. وصل إلى حالةٍ نَفِد فيها صبرُه بسبب ما حلَّ به. شرَد بتفكيره في تلك المحاكمة الواهية والصفوف من ذَوي الوجوه

المُحمرَّة التي تعجُّ بها عتمة الرِّواق العام، والمستشار القانوني اللامبالي، وخاصةً الرجلَين الجالسَين بجوار مقعد المحامي ويُشاهدانه بانتباه.

تساءل: يا تُرى مَن هما؟ وماذا يُهِمُّهما في القضية؟ ربما هما مؤلِّفان أجنبيان جاءا للحصول على أفكارٍ لقصص من مصدرها الأصلي. لا يوحي مظهرُهما بأنهما من أهل البلد. أحدهما فارِهُ الطول (عرَف ذلك لمَّا رآه واقفًا من قبل)، والآخر نحيل، ويقول مظهرُه بأنه في سنٍّ صغيرة على الرغم من الشيب في رأسه. كلاهما حليقُ الذقن والشارب، ومُتَّشحان بالسواد، ويضع كل واحدٍ منهما قبعة سوداء ذاتَ حواف عريضة وملمسٍ ناعم على ركبته.

لفتَت انتباهَه سَعْلةٌ أطلقها القاضي، ليرجع بنظره إلى المنصة.

قال سيادة اللورد: «يا جيفري ستور، إنني أتفق تمامًا مع حُكم هيئة المحلَّفين. إن دفاعك بأن ستيدلاند سرق مدَّخراتك، وأنك دخلتَ منزله عنْوة بغرض تحقيق العدالة بيدَيك وتأمين الأموال والوثيقة — التي لم تُحدِّد وصفها ولكنك تدَّعي أنها تُثبت إدانته — هو دفاعٌ لا تعتدُّ به أي محكمة. حكايتك تبدو وكأنك قرأتَ عن هذا الاتحاد الشهير، أو غيرِ الشهير، الذي يُطلَق عليه اسمُ «رجال العدالة الأربعة» الذي كان موجودًا منذ بضع سنوات، ولكنه قد تفرَّق الآن لحُسن الحظ. عيَّن هؤلاء الرجال أنفسَهم لمعاقبة من يجد ذريعةً يهرب بها من عدالة القانون. يا له من افتراء بأن القانون يفشل دومًا في بسطِ العدالة! لقد ارتكبتَ جريمة نكراء، وحقيقةُ القبض عليك مُتلبسًا وفي حيازتك مُسدَّس مُعبَّأ بالرصاص تَزيد كثيرًا من خطورة جريمتك؛ ومن ثَم حَكمْنا عليك بالأشغال الشاقة لمدة سبع سنوات.»

انحنى جيفري ستور، ومن دون إطالةِ النظر إلى الفتاة في قاعة المحكمة، استدار ونزل الدرَجات التي تقود إلى الزنزانة.

كان أولَ من غادر ساحةَ المحكمة هما الرجلان اللذان يبدو عليهما أنهما أجنبيان — اللذان أثارا اهتمامَ السجين واستياءه.

وبمجرد خروجهما إلى الشارع، توقَّف الأطولُ مرةً واحدة قائلًا: «أعتقد أننا يجب أن ننتظر الفتاة.»

سأل الرجلُ النحيف: «هل هي الزوجة؟»

ردَّ الطويل: «لقد تزوَّج في الأسبوع نفسِه الذي استثمر فيه استثمارَه التعيسَ الحظ. إنها لَمُصادفة غريبة؛ تلك الإشارة من القاضي إلى رجال العدالة الأربعة.»

ابتسم الآخَر.

وقال: «لقد حُكِم عليك بالإعدام يا مانفريد في هذه المحكمة نفسِها.»

أومأ الرجلُ الذي يُدعى مانفريد، وأجاب قائلًا: «تُرى هل يتذكَّرني حاجبُ المحكمة العجوز؟ إنه يشتهر بعدم نسيانه أيَّ وجهٍ يراه. من الواضح أن خَسارتي لِلحيَتي كان لها أثرٌ معجز؛ لأنني تحدَّثت معه بالفعل. ها هي.»

لحُسن الحظ، خرَجَت الفتاة وحدها. توافق جمالُ وجهها مع ما توقعه جونزاليس؛ أصغر الرجلين. خرجَت شامخة الرأس ولم تكن ثمَّة إشارة إلى أنها سحَّت الدموع. ولمَّا كانت تسير مُسرعةً نحو شارع نيوجيت، تبعها الرجلان. عبرَت الشارع إلى حديقة هاتون، ثم تحدَّث مانفريد قائلًا: «معذرةً يا سيدة ستور.» فاستدارت وحدَّقَت بريبٍ في الرجل الأشبهِ بالأجانب.

وأجفلَت قائلةً: «إن كنتَ صحفيًّا ...»

ابتسم مانفريد: «لستُ صحفيًّا، ولستُ صديقًا لزوجك كذلك؛ ولكنني فكَّرت في الكذب عليكِ في هذا الشأن كي أجد مبررًا للحديث معكِ.»

أثارَت صراحتُه اهتمامَها.

فقالت: «لا أرغب في الحديث عن المصيبة الرهيبة التي حلَّت بجيفري المسكين؛ وكل ما أُريده هو أن أبقى وحدي.»

أومأ مانفريد.

وقال بتعاطف: «أتفهَّم ذلك، ولكني أرغب في أن أكون صديقًا لزوجكِ، وربما تمكَّنتُ من مساعدته. إن الحكاية التي رَواها وهو في قفص الاتهام صحيحة. تظن ذلك أيضًا يا ليون، أليس كذلك؟»

أومأ جونزاليس.

وقال: «بالطبع صحيحة. لقد دقَّقت النظر إلى جَفنَيه؛ لأنه عندما يكذب المرءُ تَطرف عيناه في كل مرةٍ يُكرر فيها كذبته. ألاحظتَ يا عزيزي جورج أن الرجال لا يُمكنهم الكذبُ عند القبض على أيديهم، وأن النساء يُشبكنَ أيديَهن عندما يكذبن؟»

نظرت إلى جونزاليس في ذهول. ولكنها لم تكن في مِزاج يسمح لها بسماع محاضرة في تفسير تعبيرات حركات الجسم؛ حتى لو علمت أنَّ ليون جونزاليس ألَّف ثلاثة كتب كبيرة ترتقي في أهميتها إلى أفضلِ ما قدَّمه لومبروسو أو مانتيجازا للعالَم، فما كانت ترغب في السماع.

قال مانفريد مُفسِّرًا مِحنتَها الجديدة: «الحقيقة يا سيدة ستور هي أننا نُفكر في إخراج زوجك من السجن وإثباتِ براءته؛ ولكننا نحتاج إلى أقصى قدرٍ يُمكن الحصول عليه من الوقائع حول القضية.»

تردَّدَت لبُرهة فقط.

ثم قالت: «لديَّ مسكن في شارع جرايز إن، ربما سيكون من الأفضل أن تأتيا معي.»

لما اتَّخذ كلٌّ واحدٍ منهما مكانًا بجانبها، واصلَت قائلةً: «لا يعتقد مُحامِيَّ أن ثمة فائدةً من استئناف الحكم.» هزَّ مانفريد رأسه.

وقال بهدوء: «ستُؤيد محكمة الاستئناف الحُكمَ؛ ومع الدليل الذي لديك، فلا يُحتمَل أن يُطلَق سراح زوجك.»

نظرَت إليه متفحصةً في فزَع، وقد رأى حينئذٍ أن دموعها توشك أن تنهمر.

استأنفت حديثها برعشةٍ بسيطة قائلةً: «ظننتُ ... ألم تقل ...؟»

أومأ مانفريد.

وقال: «إننا نعرف ستيدلاند، كما أننا ...»

قاطعَه جونزاليس وهو غارقٌ في التفكير: «الغريب فيما يتعلق بالمُبتزِّين هو أن القفا تصعُب رؤيته؛ فحَصتُ اثنَين وستِّين رأسًا في السجون الإسبانية، وفي كل حالةٍ كان نُتوء القفا أكبرَ من مجردِ نتوءٍ عظمي. وفي رءوس مَن يميلون إلى القتل، يبرُز القفا كبَيضة حمامة.»

ابتسم مانفريد، وقال: «إن صديقي حُجة في تفسير هيكل الرأس. أجل، نحن نعرف ستيدلاند؛ وقد كانت تَصِلنا أخبارُ عملياته من حينٍ إلى آخر. أتتذكَّر قضية ويلينجفورد يا ليون؟»

أومأ جونزاليس.

سألت الفتاة: «أأنتما ضابطا تحرِّيات إذن؟»

ضحك مانفريد ضحكةً خفيفة.

وقال: «كلَّا، لسنا ضابِطَي تحريات؛ بل مُهتمَّان بالجريمة. وأعتقد أن لدَينا أفضلَ وأدقَّ سِجلٍ في العالَم للمجرمين الذين لم يقَعوا تحت طائلة القانون.»

استمرُّوا في السَّير في صمتٍ لبعض الوقت.

ثم أومأ جونزاليس وكأنه تيقَّن من الإدانة فجأةً، وقال: «ستيدلاند رجل سيئ. ألاحظتَ أذُنَيه؟ إن طولَهما غير عادي، ويُوجَد تدبيب في محيط الصوان؛ نتوء داروين يا مانفريد. وهل لاحظتَ يا صديقي العزيز أن قاع الحِلز يَقسِم المحارة إلى تجويفَين بارزَين، وأن شحمة الأذن كانت مُلتصِقة؟ إنها أُذن مجرِم بامتياز. وهذا الرجل ارتكب جرائمَ قتل، فمن المستحيل أن يكون للمرء مثلُ هذه الأذن ولا يكون قاتلًا.»

كانت الشقة التي استقبلَتْهما فيها صغيرةً ومفروشة بأثاث بسيط. ولما نظر مانفريد في أرجاء غرفة الاستقبال الصغيرة للغاية، لم يجد سوى الأثاث الأساسي الذي تُؤَثَّثُ به الشقق «المفروشة» عادةً.

بعدما دخلَت الفتاة إلى غرفتها لتخلع عنها مِعطفها، عادت وجلست إلى الطاولة التي جلسا إليها بِناءً على دعوتها.

لم تكَد تُظهِر ابتسامتها، قالت: «أُدرِك أنني حمقاء، ولكنني أشعر أنكما تُريدان مساعدتي بالفعل، ولديَّ شعور غريب أنكما تستطيعان مساعدتي! لم تكن الشرطة غيرَ رحيمةٍ أو غير عادلة معي ومع جيف المسكين؛ بل على العكس، فقد كانوا مُتعاونين للغاية. أظن أنهم اشتبَهوا في أن يكون السيد ستيدلاند مُبتزًّا، وكانوا يأمُلون في أن نتمكن من تقديم دليل. ولكن لمَّا لم نجد الدليل، لم يكن أمامهم شيء سوى المُضيِّ قُدمًا في الاتهام. والآن، ما الذي يُمكنني أن أُخبركما به؟»

ردَّ مانفريد: «الحكاية التي لم تُروَ في المحكمة.»

صمَتَت لبعض الوقت، ثم قالت أخيرًا: «سأُخبركما. لا يعلم الأمرَ سوى مُحامي زوجي، وأعتقد أنه كان مُرتابًا في صحة ما سأُخبركما به الآن.» ثم قالت في يأس: «وإن هو كان مُرتابًا، فكيف أتوقَّع أن أُقنِعكما؟»

لم ينزل جونزاليس عينَيه المُتحمستَين عنها، وكان هو من أجاب.

«إننا مُقتنعون بالفعل يا سيدة ستور.» وأومأ مانفريد.

ساد صمتٌ بسيط مرة أخرى. بدا أنها لا ترغب في سرد رواية لا يُمكن تصديقها حسب ظن مانفريد؛ وهو ما حدث بالفعل.

بدأت تسرد الحكاية: «عندما كنتُ فتاةً صغيرة، التحقتُ بمدرسة كبيرة للفتيات في ساسكس، أظن أنها تضمُّ ما يربو على مائتي تلميذة.» واستطردَت سريعًا قائلةً: «لن أُبرر أي شيءٍ فعلتُه؛ لقد وقعت في حبِّ صبي. حسنًا، كان ابنَ جزار! يبدو ذلك مُروعًا، أليس كذلك؟ ولكنكما تعِيان أنني كنتُ طفلة، طفلة سريعة التأثر. أوه، يبدو الأمر مُروعًا، أعلم، ولكني اعتدتُ على مقابلته في الحديقة في طريق الخروج من غرفة التحضير بعد الصلوات؛ كان يتسلق الجدار ليلتقيَ بي في تلك المقابلات، وكنا نتحدَّث كثيرًا، لساعةٍ في بعض الأحيان. لم يكن في الأمر شيءٌ سوى علاقة حُب بين صبيٍّ وفتاة؛ لا يُمكنني أن أشرح بالضبط لماذا ارتكبتُ مثل هذه الحماقة.»

همهمَ ليون جونزاليس قائلًا: «يشرح مانتيجازا الأمر بشكلٍ مريح للغاية في دراسته عن الانجذاب. ولكن سامحيني، فقد قاطعتُك.»

واصلَت قائلةً: «كما قلت، كانت صداقةً بين صبي وفتاة؛ نوعًا من الإعجاب ببطلٍ من وجهة نظري؛ إذ كنتُ أحسَبه رائعًا، فلا شكَّ أنه كان الألطفَ بين أبناء الجزارين.» ثم ابتسمَت مُجددًا وقالت: «لأنه لم يُسِئ إليَّ قط ولو بكلمة. انتهت الصداقة بعد شهرٍ أو شهرَين، وإلى هنا كان لا بد من أن ينتهي الأمر؛ ولكن بسبب حماقتي، أرسلتُ له خطابات. كانت خطابات عادية جدًّا، خطابات حُب ساذَجة وشديدة البراءة، أو على الأقل بدَت لي كذلك في ذلك الوقت. ولكن اليوم عندما أقرؤها بعدما ازدادت معرفتي بالحياة، أظل أضحك على تلك البراءة.»

قال مانفريد: «هل هي لديك الآن؟»

هزَّت رأسها.

وقالت: «عندما قلتُ أقرؤها كنتُ أعني خطابًا واحدًا، وليس لديَّ سوى نسخة منه أعطاها لي السيد ستيدلاند. الخطاب الوحيد الذي لم يُتلَف وقع في يد أم الصبي، وهي أخذَته إلى مديرة المدرسة ووقع بينهما شِجار مُروِّع. وقد هدَّدت بأن تكتب لأبَوَيَّ اللذين كانا في الهند، ولكن بناءً على وعدي الجِدِّي بقطع معرفتي بالصبي، لم تستمر العلاقة. أما عن كيف وصل الخطاب إلى أيدي ستيدلاند، فلا أعرف. في الواقع، لم أسمع قطُّ عن الرجل حتى قبل أسبوع من زواجي بجيف. لقد وفَّر جيف ما يقرُب من ألفَي جنيه، وكنا نتطلَّع ليوم الزواج عندما هبَّت هذه العاصفة؛ خطاب من رجل غير معروف على الإطلاق، يطلب مني أن أراه في مكتبه، حيث تعرفت لأول مرة على هذا النذل. كان عليَّ أن آخُذ الخطاب معي، وذهبتُ ولديَّ فضول وأتساءل عن السبب وراء استدعائي. ولكن لم يَطُل تعجُّبي. كان لديه مكتب صغير في شارع ريجينت، وبعد أن أخذ مني الخطاب الذي أرسله لي ووضعه جانبًا بعناية، شرح بدقةٍ وصراحة مَقصدَه من استدعائي.»

أومأ مانفريد.

وقال: «أراد أن يبيع لك الخطاب. بكم؟»

قالت الفتاة بحدَّة: «ألفَي جُنيه. ومن خباثته الشيطانية عِلمُه بكل بنسٍ يدَّخره جيف.»

«هل أراكِ الخطاب؟»

هزَّت رأسها.

وقالت: «لا، لم يُرِني سوى صورةٍ منه؛ وعندما قرأته وتذكرتُ ما قد تُفسَّر إليه هذه الورقة البريئة تمامًا، تجمَّد دمي. لم يكن أمامي سوى أن أُخبر جيف؛ لأن الرجل قد هدَّد بإرسال صورةٍ طبق الأصل إلى جميع أصدقائنا وإلى عمِّ جيف، الذي جعل جيفري وريثَه الوحيد. أخبرتُ جيف بالفعل بما حدث في المدرسة، حمدًا لله، ومن ثَم لم أكن خائفة من شكِّه. ذهب جيفري إلى السيد ستيدلاند، وأعتقد أن ثمَّة مشهدًا عاصفًا قد وقع بينهما؛ ولكن ستيدلاند رجل ضخم البِنية وقوي، على الرغم من عمره الكبير، وفي الشجار الذي نجم عن ذلك بات موقفُ جيفري الأسوأَ بعض الشيء. في النهاية، وافق جيفري على شراء الخطاب بألفَي جنيه بشرط أن يُوقِّع ستيدلاند على إيصالٍ مكتوب على صفحةٍ فارغة من الخطاب نفسه. كان هذا يعني خَسارة مُدَّخَرات عمره، ومن ثَم احتمالية تأجيل زفافنا، ولكن جيفري لم يكن يرغب في أن يسلك أي مسلك آخر. يعيش السيد ستيدلاند في منزل كبير بالقُرب من حديقة كلافام العامة ...»

قاطعها مانفريد قائلًا: «١٨٤ بارك فيو ويست.»

قالت مندهشة: «هل تعرفه؟ حسنًا، اضطُرَّ جيفري أن يذهب إلى هذا المنزل لاستكمال الصفقة. لا يعيش مع السيد ستيدلاند سوى خادم؛ فتح الباب بنفسه، وقاد جيفري إلى الطابق الأول، حيث غرفةُ مكتبه. عندما أدرك زوجي أن النِّقاش لا طائل منه، دفع المال وفقًا لتعليمات ستيدلاند، بأوراقٍ نقدية أمريكية ...»

قال مانفريد: «وهي الأصعب في تتبُّعها بالطبع.»

«وعندما دفع له، قدَّم ستيدلاند الخطاب، وكتب الإيصالَ على ورقةٍ فارغة ونشَّف الحبر، ثم وضعها في ظرفٍ وأعطاه لزوجي. وعندما رجع جيفري إلى المنزل وفتح الظرف، لم يجد به إلا ورقةً فارغة.»

قال مانفريد: «لقد غَيَّر في الأمر.»

قالت الفتاة: «هذا ما قاله جيفري. ثم قرَّر جيفري أن يرتكب هذا العمل الجنوني. أسمِعتُما عن رجال العدالة الأربعة؟»

رد مانفريد بجِدية: «لقد سمعتُ عنهم.»

قالت: «يثق زوجي ثقةً كبيرة في أساليبهم، وهو من أشدِّ المُعجبين بهم كذلك. أعتقد أنه قرأ كل شيءٍ كُتب عنهم. وفي إحدى الليالي بعد يومَين من زواجنا — فقد صمَّمتُ على الزواج به في الحال عندما اكتشفتُ الوضع — جاء إليَّ.

قال: «جريس، سأُطبق أساليب الرجال الأربعة على الشيطان ستيدلاند».»

ولخَّص لي خُططَه؛ فمن الواضح أنه كان يُراقب المنزل، وعلِم أن الرجل ينام في المنزل وحدَه — باستثناء الخادم — وقد وضع خُطة للدخول. عزيزي المسكين، لم يحسِب لكل الاحتمالات؛ ولكنكما تسمعان اليوم عن مدى نجاحه في الوصول إلى غرفة ستيدلاند. أعتقد أنه كان يُريد إخافة الرجل بمسدسه.»

هزَّ مانفريد رأسه.

وقال بهدوء: «نال ستيدلاند لقبَ مُقاتل مسلَّح في جنوب أفريقيا. إنه أسرعُ رجل في سحب السلاح وممتاز في التصويب. لا شك أنه أخضعَ زوجَكِ تحت رحمته قبل أن يتمكن من وضع يدِه على جيبه.»

أومأَت.

وقالت بهدوء: «هذه هي الحكاية. إن كان باستطاعتكما مساعدةُ جيف، فسأدعو لكما طوال حياتي.»

نهض مانفريد ببطء.

وقال: «لقد كانت محاولةً جنونية؛ فلن يحتفظَ ستيدلاند بوثيقةٍ تُعرِّضه للخطر كتلك في منزله الذي يتركه لستِّ ساعاتٍ في اليوم. ربما يكون قد تخلَّص منها، على الرغم من أن هذا الاحتمال غيرُ وارد، ولكنه سيرغب في الاحتفاظ بالخطاب لاستخدامه فيما بعد. إن المُبتزِّين دارسون مُتعمِّقون في الطبيعة البشرية، وهو يعلم أن بإمكانه الحصولَ على المال ما دام الخطاب معه. ولكن إذا كان موجودًا ...»

قالت مُردِّدة عبارته: «إذا كان موجودًا.» وظهر عليها الانفعالُ وكانت شفتاها ترتجفان.

قال مانفريد: «سيكون بين يدَيكِ في غضون أسبوع.» ثم تركها بعد أن وعدَها هذا الوعد.

غادر السيد نواه ستيدلاند المحكمة بعد ظهيرة ذلك اليوم، ولم يكن راضيًا بدرجةٍ كبيرة، باستثناء أنه قد غادرها من المدخل العام. لم يكن من الرجال الذين يخافون بسهولة، ولكنه كان سريعَ البديهة؛ وبدا له أن كلماتِ القاضي المُنتقاةَ بعناية قد تضمَّنَت توبيخًا خفيًّا، وبدا هذا التوبيخُ في نبرة القاضي أكثرَ من جوهر العبارات. ولكن لم تتعدَّ بديهته أكثرَ من تسجيل هذه الواقعة. جمع الرجلُ ثروة ضخمة بوَضعِ فُتات النقود بعضها فوق بعض حتى أصبح فاحشَ الثراء، ولكن كان هذا الفتات في بعض الأحيان كبيرًا للغاية، وذلك بمُمارَساتٍ لا تعتدُّ بتلك العوامل التي لا وزن لها؛ كالضمير أو الندم. إن الحياة لهذا

الرجل الطويل العريضِ المنكبين الشاحبِ الوجه كانت لُعبة؛ وكان جيفري ستور، الذي لم يُكِنَّ له أيَّ استياء، خاسرًا.

جلس يُفكر بهدوءٍ في أمر ستور وهو مُرتدٍ ملابسَ السجن وقد أنهكَته سنواتُ الكرب؛ ولم يستطع بهذه الصورة الذهنية أن يُظهِر أي مشاعر أخرى غير مشاعر المُقامِر المنتصِر، الذي يُمكنه أن يُشاهد إفلاس منافسه برباطة جأش.

دخل إلى منزله ذي الواجهة الضيقة، وأغلق الباب وأوصَدَه جيدًا خلفه؛ ثم صعد الدرَج المفروش بالسجاد البالي إلى غرفة مكتبه. لا بدَّ أنَّ أشباح الذين دمَّر حياتهم قد احتشدت بالغرفة؛ ولكن السيد ستيدلاند لا يُؤمِن بالأشباح. فرَك بأصابعه على طاولةٍ من خشب الماهوجاني، ولاحظ أنها كانت مُتَّسِخة؛ وظهر الشبح أو الخادمة التي تتقاضى أجرًا جيدًا منذ تلك اللحظة.

عندما رجع إلى كرسيِّه متمدِّدًا وباسطًا ذراعَيه وقدمَيه، وضع سيجارًا كبيرًا بين أسنانه ذات الرقاط الذهبية، ثم حاول تحليلَ الإحساس الغريب الذي شعر به في المحكمة. لم يكن المسئولُ عن حالة انزعاجه الذهني هو القاضيَ، ولم يكن سلوكَ هيئة الدفاع، ولم تكن حتى احتمالية أن ينتقدَه العالَم. ولم يكن بالتأكيد السجينَ ومصيره المُحتمل، أو الزوجةَ الشاحبة الوجه. ولكنه شعر بوجود شخصٍ أو شيءٍ أدخل القلقَ إلى قلبه.

جلس يُدخِّن لمدة نصف الساعة؛ ثم رن جرس، فنزل الدرج وفتح الباب الأمامي. وجد أن الطارق المُنتظَر على الباب وعلى وجهه ابتسامةُ اعتذار؛ هو أحدُ وضعائه، ساقٍ ومُرابح وصبيُّ مهمَّات عام للرجل الجامدِ الوجه.

قال وهو يُغلق الباب وراء الزائر: «ادخل يا جوبي. هلا نزلتَ إلى القبو وأحضرتَ لي زجاجة ويسكي؟»

سأل المُتملقُ وهو يتكلف الابتسام مُترقبًا: «كيف كانت شهادتي يا صاحب العمل؟»

أجاب ستيدلاند مُتذمرًا: «هُراء. ماذا تعني بقولك إنك سمعتَني أطلب النجدة؟»

قال جوبي مُتذلِّلًا: «يا صاحب العمل، ظننتُ أنني بذلك أجعل موقفه أسوأ.»

السيد ستيدلاند ساخرًا: «النجدة! هل تظن أنني سأُنادي على رجل مثلِك لنجدتي؟ يا لك من شخص عديم الفائدة في منزلٍ بسيطٍ كهذا! أحضِر لي الويسكي!»

عندما صعد الرجل بزجاجةٍ وكأس، رأى السيد ستيدلاند يُحدِّق مُكتئبًا من النافذة التي كانت تُطل على حديقةٍ صغيرة وغير مُرتَّبة وتنتهي بجدارٍ عالٍ. خلفها، تُوجَد مساحة عليها بناءٌ في طَور التشييد عندما وضَعَت الهُدنة حدًّا لعمل الحكومة. صُمِّم المبنى ليكون

مصنعًا صغيرًا لصناعة القواطع الكهربية، وكان كالقذى في عين السيد ستيدلاند؛ لأنه كان يملك الأرض التي بُني عليها.

قال مُستديرًا فجأةً: «هل كان في المحكمة أحدٌ نعرفه يا جوبي؟»

قال الرجل بعد توقُّف من المفاجأة: «كلَّا يا سيد ستيدلاند. ليس على حدِّ علمي، باستثناء المفتش ...»

أجاب السيد ستيدلاند: «لا تَشغل بالك بالمفتش؛ فأنا أعرف كل رجال المباحث الذين كانوا هناك. هل كان هناك أحدٌ آخر، أعني أيَّ أحدٍ لديه ضَغينةٌ تجاهَنا؟»

أجاب جوبي الجريء: «كلَّا يا سيد ستيدلاند. ما الذي يُقلقك إن كان هناك أحدٌ آخر؟ أعتقد أننا ندٌّ لأيٍّ منهم.»

أجاب ستيدلاند غيرَ مسرور وهو يصبُّ لنفسه جرعة من الويسكي: «كم مضى على عملك معي؟»

تحوَّل وجه الرجل مُتصنعًا الابتسام.

وقال: «حسنًا، نحن معًا لبعض الوقت يا سيد ستيدلاند.»

تلمَّظ ستيدلاند شفَتَيه ونظر من النافذة مرةً أخرى.

ثم قال بعد برهة: «أجل، إننا معًا منذ وقتٍ طويل. في الواقع، لو كنتُ أخبرتُ الشرطة بما كنتُ أعرفه عنك قبل سبع سنوات، لكنتَ على وشك إنهاء عقوبتك ...»

أجفَل الرجل، وغيَّر الموضوع. ولو فكَّر في الأمر، لأدرك أن سنوات السجن السبع استبدل بها ستيدلاند عبوديةً مدى الحياة؛ لكن السيد جوبي لم يكن كثيرَ التفكير.

أجاب قائلًا: «أهناك أيُّ شيء للبنك اليوم يا سيدي؟»

قال ستيدلاند: «لا تكن أحمقَ؛ فالبنك يُغلق في الساعة الثالثة.» ثم استدار له وقال: «حسنًا يا جوبي، من الآن ستنام في المطبخ.»

قال الخادم المذهول: «في المطبخ يا سيدي؟» ثم أومأ ستيدلاند.

وقال: «لستُ مُستعدًّا للمخاطرة باستقبال مزيدٍ من زوار الليل؛ فقد أجهَز ذلك الرجلُ عليَّ قبل أن أعرف أين كنت، وإن لم يكن في متناول يدي مُسدسٌ لضربَني. المطبخ هو المنفذ الوحيد للدخول إلى المنزل من الخارج، وأنا أشعر في قرارة نفسي أن شيئًا قد يحدُث.»

«ولكنَّه ذهب للسجن.»

قال ستيدلاند مُزمجرًا: «أنا لا أتحدَّث عنه. أتفهم؟ خُذ سريرك إلى المطبخ.»

أجفل جوبي قائلًا: «إنه عُرضة للهواء بعضَ الشيء ...»

صرخ ستيدلاند مُحملقًا في الرجل وغاضبًا: «خذ سريرك إلى المطبخ.»

قال جوبي مُتلطفًا: «أمرك يا سيدي.»

وعندما ذهب خادمُه، خلع ستيدلاند معطفه وارتدى معطفًا آخر من صوف الألبكة المصبوغ، ثم فتح الخِزانة وأخرج كتابًا. كان دفترَ حسابٍ مصرفي من البنك، وقد أسَرَه تفحُّصُه للغاية. كان السيد ستيدلاند يحلُم بمزرعة مَواشٍ كبيرة في أمريكا الجنوبية وبحياة الرفاهية والهدوء. أصبح الرجل فاحشَ الثراء بالعمل الشاق في لندن لمدة اثنتَي عشْرة سنة؛ فقد تحلَّى بالحذر والصبر في العمل، واتخذ من الابتزاز مصدرَ رزقٍ دائمًا له، حتى أصبح له رصيدٌ نقدي في أحد أشهر البنوك الخاصة، ألا وهو بنك مولبري الذي يمتلكه السيد وليام مولبري وشركاؤه، وهو شركة ذات مسئولية محدودة. يشتهر البنكُ في المدينة بالحفاظ على الخصوصية وحتى في التكتُّم على أعمال العملاء، وهي الظروف التي تناسبَت تمامًا مع ما يسعى إليه السيد ستيدلاند. البنك من ضمن البنوك المُصمَّمة على الطِّراز القديم التي تحتفظ باحتياطيٍّ ضخم من المال في مَدافنَ لها تحت الأرض؛ وكانت هذه أيضًا ميزةً في نظر السيد ستيدلاند، الذي قد يرغب في تجميع أصوله السائلة في أقصر وقتٍ ممكِن.

مرَّ المساء والليلة من دون أي حوادثَ مشئومة، باستثناء ما ظهر عندما أحضر السيد جوبي الشاي لسيده في الصباح، وتحدَّث بصوتٍ أجشَّ بعض الشيء عن مروره بليلةٍ باردة وغير سارة. قال ستيدلاند بغِلظة: «أحضِر مزيدًا من بياضات السرير.» انصرف إلى مكتبة بالمدينة بعد الإفطار، وترك السيد جوبي يُشرف على أعمال الخادمة ويُؤكد عليها عددًا من الوقائع، بما في ذلك الأجر الذي كانت تتقاضاه، ووفرة الخادمات الجيدات في السوق، والعواقب التي ستتحمَّلها إذا ترَكَت غرفة مكتب السيد ستيدلاند غير نظيفة.

وفي الساعة الحادية عشرة من ذلك الصباح، أتى رجل مُحترمٌ ومُسن بعضَ الشيء يرتدي قُبعة حريرية، وقابله السيد جوبي على الباب.

الزائر: «أتيتُ من غرفة صناديق الأمانات.»

سأل السيد جوبي المُرتاب: «أيُّ صناديق أمانات؟»

ردَّ الآخر: «صندوق أمانات فيتير لين.» «نريد أن نعرف ما إذا كنتَ قد نسيتَ مفاتيحك في المرة الأخيرة التي أتيتَ فيها.»

هزَّ جوبي رأسه، وقال بثقة: «ليس لدَينا أيُّ صندوق أمانات، ونادرًا ما ينسى المدير مفاتيحه.»

قال الرجل المحترم مُبتسمًا: «إذن، من الواضح أنني قد أتيتُ إلى المنزل الخطأ. هل هذا منزل السيد سميثسون؟»

قال جوبي الفظُّ: «كلَّا.» وأغلق الباب في وجه الزائر.

نزل الزائر الدرَج إلى الشارع، وانضمَّ إلى رجلٍ آخر كان واقفًا في ركنٍ وقال: «إنهم لا يعرفون شيئًا عن صناديق الأمانات يا مانفريد.»

قال الرجل الأطولُ بينهما: «لا أعتقد أنها في صندوقٍ للأمانات. في الواقع، أكاد أجزم أنه يحتفظ بجميع أوراقه في البنك. رأيتَ جوبي، أليس كذلك؟»

قال جونزاليس مُفكرًا: «بلى، إنَّ له وجهًا مُثيرًا للاهتمام؛ فذقنه صغير، ولكنَّ أُذنَيه عاديتان تمامًا. وعظام الجبهة تنحدِر بغير انتظامٍ للخلف، والرأس — بقدْر ما أرى — مُسنَّم بوضوح.»

قال مانفريد دون أن يبتسِم: «مسكين جوبي! والآن يا ليون، سنُكرِّس أنا وأنت انتباهَنا للطقس؛ فثمة إعصارٌ مضاد قادم من خليج بسكاي، وآثاره الملموسة يشعرون بها بالفعل في إيستبورن. وإذا امتدَّ شمالًا إلى لندن في الأيام الثلاثة القادمة، فسنَحمل أخبارًا جيدة للسيدة ستور.»

قال جونزاليس في أثناء عودتهم إلى شقتِهما في شارع جيرمين: «أظن أن الهجوم على هذا الرجل أمرٌ مُستبعَد.»

هز مانفريد رأسه.

وقال: «لا أريد أن أموت؛ ولكني بالتأكيد سأموت لأنَّ نواه ستيدلاند سريعٌ للأسف في إطلاق النار.»

تحققَت نبوءة مانفريد بعد يومَين عندما انتشر تأثيرُ الإعصار المضاد في لندن، وهبَّ ضباب أصفرُ على المدينة. انقشع الضباب بعد الظهيرة، ما سَرَّ مانفريد؛ ولكن لم يكن ثَمة دليلٌ على تبدُّده قبل الغروب.

كان مكتب السيد ستيدلاند في شارع ريجينت صغيرًا، ولكنه كان مفروشًا بأثاثٍ مريح. وأسفلَ اسمه المنقوش على الباب الزجاجي، نُقِشَت الكلمة السحرية؛ «الخبير المالي»، وهي حقيقة أن ستيدلاند كان مُسجَّلًا باعتبارِه مُقرِضَ أموال، وقد وجده عملًا مربحًا؛ لأن ما كان يكتشفه ستيدلاند مُقرِض الأموال، كان يستغلُّه ستيدلاند المُبتز؛ ولم يكن مُستغرَبًا على السيد ستيدلاند أن يُقرِض المال بفائدةٍ كبيرة سعيًا وراء تحقيق مكسبه الخاص. وقد تمكَّن بهذه الطريقة من إحكام قبضته على ضحيته.

في الثانية والنصف بعد ظهر ذلك اليوم، أعلن موظفُه عن وجود زائر.

«رجل أم امرأة؟»

قال الموظف: «رجل يا سيدي. أعتقد أنه من بنك مولبري.»

ردَّ ستيدلاند: «أتعرفُه؟»

«لا يا سيدي، ولكنه أتى بالأمس عندما كنتَ بالخارج، وسأل هل تلقيتَ كشف حساب البنك أم لا.» أخذ السيد ستيدلاند سيجارًا من العلبة على الطاولة وأشعله، ثم قال وهو لا يتوقع شيئًا أكثر إثارة من شيكٍ مهين من أحد عملائه: «أدخِلْه.»

بدا أن الرجل الذي دخل كان في حالةٍ من الاهتياج. أغلق الباب خلفه ووقف يُطقطق بأصابعه بعصبية على قُبعته.

قال ستيدلاند: «اجلس. خذ سيجارًا يا سيد ...»

قال الآخر بصوت أجش: «كورتيس يا سيدي. شكرًا يا سيدي، أنا لا أُدخن.»

ستيدلاند: «حسنًا، ماذا تريد؟»

«أريد أن أتحدَّث معك بضعَ دقائق يا سيدي، ولكن على انفراد.» نظر بقلقٍ إلى الحاجز الزجاجي، الذي يفصل مكتب السيد ستيدلاند عن الحجرة الوضيعة التي يعمل فيها موظفُه.

ستيدلاند ملاطفًا: «لا تقلق؛ فأنا أُؤكِّد لك أن هذا الزجاج عازل للصوت. ما مُشكلتك؟»

شعر بإحراج مؤقت؛ ولكن قد يُصبح موظفُ البنك المُحرَج مؤقتًا أداةً شديدة النفع في المستقبل.

قال الرجل، وهو يجلس على حافة كرسيٍّ ووجهه يرتعش مُتعصبًا: «لا أكاد أعرف كيف أبدأ يا سيد ستيدلاند. إنها قصة مروعة، قصة مروعة.»

سمع ستيدلاند عن هذه القصص المروعة من قبل، التي أحيانًا لا تعني أكثرَ من أن الزائر مُهدَّد من موظَّفي المحكمة، وحريصٌ على إبعاد الأخبار عن آذان أصحاب العمل. وفي أحيانٍ أخرى تتمحور القصة حول فعلٍ أخطر، كخَسارة المال في القمار، وتَكرار محاولاتٍ يائسةٍ حتى الساعة الأخيرة لتعويض عجزٍ مالي.

قال: «تكلَّم، لن تصدمَني.» ولكن هذا التباهيَ كان سابقًا لأوانه قليلًا.

إذ قال الرجل متوترًا: «الأمر لا يَخصُّني، ولكنه يخصُّ أخي جون كورتيس، الذي يعمل أمينَ صندوق منذ عشرين سنةً يا سيدي. لم تكن لديَّ أدنى فكرة بأنه يُواجه مشكلات، ولكنه كان يُضارب في البورصة، ولم يُخبرني بالأمر سوى اليوم. إنني في كربٍ شديد بسببه يا سيدي، وأخاف عليه من الانتحار؛ فهو محطَّم نفسيًّا.»

سأل ستيدلاند بتململ: «ماذا فعل؟»

قال الرجل بصوتٍ خفي: «سرق البنكَ يا سيدي. لم يكن الأمر ليُشكل خطرًا لو حدَث منذ عامَين، ولكن لَمَّا ساءت الأمورُ كثيرًا الآن، اضطُررنا إلى ارتكاب أعمالٍ خاطئة كي نجعل كشف حسابنا منطقيًّا في ظاهرِه؛ إنني أرتجف عندما أُفكر فيما ستَئول إليه الأمور.»

سأل ستيدلاند بسرعة: «كم سرق من البنك؟»

ردَّ الرجل مُرتبكًا: «مائة وخمسين ألف جنيه.» قفز ستيدلاند واقفًا، وقال وهو لا يكاد يُصدق: «مائة وخمسين ألفًا؟»

«نعم يا سيدي. كنت أتساءل هل بإمكانك التحدُّثُ نيابةً عنه أم لا؛ إنك من أكثر العملاء الذين لهم شأنٌ لدى البنك!»

صاح ستيدلاند: «أتحدَّث نيابةً عنه!» ثم هدَأ فجأة؛ إذ أعاد عقلُه السريع النظر في الموقف، وراجع كل الاحتمالات المُمكنة. ثم نظر لأعلى إلى الساعة، وكانت الثالثةَ إلا الربع.

«هل يعرف أحدٌ من البنك بالأمر؟»

«ليس بعدُ يا سيدي، ولكني أشعر أنه من واجبي تجاه المدير العام أن أُخبره بالقصة المؤسِفة. بعد أن يُغلق البنك بعد ظهر اليوم، سأطلب منه أن أُقابله على انفراد و...»

سأل ستيدلاند: «هل سترجع إلى البنك الآن؟»

قال الرجل متفاجئًا: «أجل يا سيدي.»

بدا على وجه ستيدلاند الشاحِبِ الجمودُ والتوتر. أخذ حافظةً من جيبه، وفتحها وأخرج منها ورقتَين، وقال: «استمع إليَّ يا صديقي. هاتان ورقتان من فئة الخمسين جنيهًا. خذهما واذهب إلى المنزل.»

«ولكني يجب أن أذهب إلى البنك يا سيدي؛ لأنهم سيتساءلون ...»

قال ستيدلاند: «لا تهتمَّ على الإطلاق بما سيقولون؛ فسيكون لديك تفسيرٌ جيد جدًّا عندما تُكتشَف الحقيقة. هل اتفقنا؟»

أخذ الرجل المال على مضَض.

«لا أعرف جيدًا ما أنت ...»

قاطعه ستيدلاند قائلًا: «لا تهتمَّ إطلاقًا بما أُريد فعله. ذلك كي تُبقي فمَك مغلقًا وتذهب للمنزل. هل تفهم الإنجليزية البسيطة؟»

قال كورتيس المُرتعِش: «أجل يا سيدي.»

بعد ذلك بخمس دقائق، مرَّ السيد ستيدلاند عبر الأبواب الزجاجية لبنك مولبري، وسار مباشرةً إلى طاولة الصرَّاف. عمَّ جوٌّ من الهدوء في المُنشأة وفي قلب الصرَّاف، الذي كان يعرف ستيدلاند وأتى نحوه بابتسامة.

قال ستيدلاند في نفسه: «لا يُدركون مصيرهم المُروِّع، تلهو الضحايا الصغيرة.» كانت هذه إحدى مقولاته المُفضَّلة، وكان يتلفَّظ بها في عدة مناسبات مُماثلة.

مرَّر قُصاصةً من الورق عبر طاولة الصرَّاف، الذي نظر إليها ثم رفع حاجبَيه، قائلًا: «عجبًا! هذا تقريبًا كل حسابك يا سيد ستيدلاند.»

أومأ ستيدلاند.

وقال: «أجل، فأنا ذاهب للخارج على عجَلةٍ من أمري، ولن أرجع لمدة عامين، ولكني أترك فقط ما يُبقي على الحساب مفتوحًا.»

كان ممَّا يتباهَون به في بنك مولبري أنهم لا يُجادلون في مثل هذه الحالات.

قال الصرَّاف بأدب: «إذن، هل ستحتاج إلى صندوقك؟»

قال نواه ستيدلاند: «أجل أرجوك.» لو خضع البنك لحيازة جامع الأملاك، فإنه لن يرغب في أن يفتح الغرباءُ المُتطفلون الصندوقَ المعدني ويفحصوا مُحتوياته التي أودعَها لدى البنك، وكذلك المحتويات التي يُضيفها من وقتٍ لآخر.

بعد عشر دقائق خرج السيد ستيدلاند وفي حوزته ما يقرُب من مائة ألف جنيه في جيوبه، وصندوق معدني في إحدى يدَيه، والباقي في جيبه الخلفي — لأنه لا يترك شيئًا للصدفة — ثم ركب سيارة الأجرة المُنتظِرة. كان الضبابُ قد انقشع، وكانت الشمس مشرقةً في كلافام عندما وصل.

صعد مباشرةً إلى غرفة مكتبه، وأوصد الباب وفتح الخزينة الصغيرة، حيث دسَّ الصندوق الصغير وحزمتَين سميكتَين من الأوراق النقدية، وأغلق باب الخزينة عليها. بعد ذلك، رنَّ الجرسَ مُستدعيًا جوبي المُخلص. ولما فتح الباب كي يدخل، سأل: «هل لدَينا سريرُ سفر آخر في المنزل؟»

قال جوبي: «نعم يا سيدي.»

«جيد، أحضِره إلى أعلى هنا؛ فسأنام في غرفة مكتبي الليلة.»

«أثَمَّة خَطْب يا سيدي؟»

«لا تسأل أسئلةً غبية، وافعل ما تُؤمَر به!»

فكَّر في أن يبحث في الصباح عن خزينة بها أحدثُ وسائل الأمان كي يضعَ فيها أمواله؛ وقضى ذلك المساءَ في غرفة مكتبه واستلقى ليرتاح، ولكنه لم ينَم، وكان واضعًا مُسدَّسًا

على كرسيٍّ بجوار سرير سفره. كان السيد ستيدلاند رجلًا حذِرًا؛ وعلى الرغم من نيته في الاستغناء عن النوم لليلةٍ واحدة، كان يجد نفسه وقد غلَبه النُّعاس عندما يوقظه صوتٌ بالخارج.

كان صوتًا مألوفًا — رنين أجراس إنذار الحريق — ومن الواضح أن ثمَّة سياراتِ إطفاء كانت في الشارع؛ لأنه سمع دويَّ مُحركاتٍ وأصواتًا. تشمَّم؛ إذ كانت هناك رائحةُ حريق، وعندما نظر رأى وميضَ ضوءٍ انعكس على السقف. قفز من السرير ليكتشف السبب، الذي اتضح على الفور؛ فلحُسن حظه كان مصنعُ المنصهرات يحترق، وألقى نظرة خاطفة على رجال الإطفاء أثناء عملهم ونظرةً أخرى سريعة على خرطوم المياه. ارتسمت ابتسامةٌ على شفتَي السيد ستيدلاند؛ فتلك النارُ قد تُساوي المال بالنسبة له، وليس ثَمَّة خطر يُواجهه.

ثم سمع صوتًا في الصالة بالأسفل؛ صوت دوي بعثَرَ ترتيب المنزل، وسمع ثرثرةَ جوبي، وفتح الباب. كان الضوء مُشتعلًا في الصالة وعلى السُّلَّم. وبالنظر إلى عمود الدرابزين، رأي جوبي المُرتجفَ وهو يرتدي معطفًا فوق منامته ويُجادل أحد رجال الإطفاء، الذي كان يرتدي خوذة.

سمع رجلَ الإطفاء يقول: «لا يُمكنني فعل شيء. يجب عليَّ أن أُحضر خرطوم الإطفاء عبر أحد هذه المنازل، ومنزلكم هو الأفضل.»

لم يكن السيد ستيدلاند يرغب في أن يمرَّ خرطوم إطفاء عبر منزله، وفكَّر في حيلةٍ قد تنقل هذا العناء إلى منزل جاره، فقال: «اصعد هنا لحظة؛ فأنا أريد التحدُّث إلى رجل الإطفاء هذا.»

أتى رجلُ الإطفاء صاعدًا السُّلَّم بحذائه الثقيل، وكان رجلًا حسَنَ المظهر في ملابسه الصفراء اللامعة، وقال: «عذرًا، ولكن يجب أن أُمرِّر خرطوم الإطفاء ...»

قال السيد ستيدلاند مُبتسمًا: «انتظر لحظةً يا صديقي. أعتقد أنك ستفهمني بعد قليل. إن هناك العديد من المنازل في هذا الشارع، وإن عشرة جنيهات فعَّالة في هذا الأمر، أليس كذلك؟ ادخُل.»

رجع إلى غرفته، وتبِعَه رجلُ الإطفاء ووقف يُشاهده وهو يفتح الخزانة. ثم قال: «لا أعتقد أن الأمر سيكون بهذه السهولة.»

استدار ستيدلاند.

وقال رجلُ الإطفاء: «ارفع يدَيك ولا تتسبَّب في المتاعب، وإلا قتلتُك يا نواه؛ سأقتلك حالَما أتحدَّث معك.»

ثم رأى نواه ستيدلاند أنَّ وجه الرجل كان مُغطًّى بقناعٍ أسود أسفل ظُلة الخوذة؛ فسأل بصوت مبحوح: «مَن ... مَن أنت؟»

«أنا أحد رجال العدالة الأربعة، الذين يحتقرهم الكثيرون ويأسَفون عليهم قبل أوانهم. والموت هو الدواء الناجع المُفضَّل لديَّ للشفاء من جميع الأسقام ...»

في التاسعة صباحًا، كان السيد نواه ستيدلاند لا يزال جالسًا يقضم أظافره؛ وظلَّ الإفطارُ موضوعًا على الطاولة أمامه ولم يقرَبْه حتى برد.

أتى إليه السيد جوبي يُعوِل بأنباء الكارثة، ولكن قاطعه رئيس المُفتشين هولواي وأحدُ التابعَين الضَّخمي البِنية، اللذين تبعا الخادم إلى الغرفة.

وسأل المفتش المُبتهج: «هلا أتيتَ معي في نزهةٍ قصيرة يا ستيدلاند؟» نهض ستيدلاند متثاقلًا، وسأله متثاقلًا أيضًا: «بأي تهمة؟»

ردَّ الضابط: «الابتزاز. حصلنا على دليلٍ كافٍ لإيصالك إلى حبل المشنقة، أوصلَه لنا رسولٌ خاص. لقد ثبَّتَّ تلك القضية على ستور أيضًا أيها الألعوبان!»

لمَّا كان السيد ستيدلاند يرتدي معطفه، سأله المفتش: «مَن الذي سلَّمَك؟»

لم يردَّ السيد ستيدلاند. كانت كلمات مانفريد الأخيرة قبل أن يختفيَ في الشارع الضبابي حاسمة؛ حيث قال: «لو أراد المدعوُّ كورتيس قتْلَك، لقتَلَك بعد ظهيرة هذا اليوم عندما تلاعبْنا عليك؛ ولكنَّا قتَلناك بالسهولة نفسِها التي أشعَلنا بها النارَ في المصنع. وإذا تحدثتَ مع الشرطة عن رجال العدالة الأربعة، فسنقتلُك، حتى ولو كنتَ في سجن بينتونفيل ويُحيط بك فوجٌ من العساكر.»

عرَف السيد ستيدلاند بطريقةٍ ما أن عدوَّه نطق بالحقيقة؛ ومِن ثَم لم يقُل شيئًا، سواءٌ هناك أو في محكمة أولد بيلي، وحُكم عليه بالأشغال الشاقة من دون أن يتكلَّم.

الفصل الثاني

صاحب الأنياب

نُشِرت لأول مرة في صحيفة ذا ستاندرد، يونيو ١٩٢١

قال ليون جونزاليس وهو يخلع نظارته الكبيرة ذاتَ الإطار الصَّدَفي وينظر إلى طاولة الإفطار بذلك الإمعانِ الغريب؛ إذ كانت مصدرَ البهجة الدائمة للعبقري الوسيم الذي يُدير عمليات رجال العدالة الأربعة: «القتل يا عزيزي مانفريد أكثرُ الجرائم التي تحدُث من دون تخطيطٍ مُسبق.»

قال مبتسمًا: «اعتاد بويكارت القولَ بأن القتل تعبيرٌ مادي عن الهستيريا، ولكن لماذا هذا الموضوع المُروِّع على مائدة الإفطار؟»

ارتدى جونزاليس نظارته مرةً أخرى ورجع — في ظاهره — إلى قراءة الصحيفة الصباحية. لم يتجاهل السؤالَ عمدًا، ولكن ذهنه مشغولٌ بالتفكير لدرجة أنه لم يسمع السؤال ولم يكن يقرأ الصحيفة؛ وهذا ما أدركه جورج مانفريد. وها هو يتكلم بعد بُرهة.

قال: «ثمانون في المائة من المُتَّهَمين بالقتل يَمثُلون أمام المحكمة الجنائية للمرة الأولى، ومن ثَم فالقاتل من حيث التصنيفُ ليس مجرمًا. أتحدَّث بالتأكيد عن القاتل من وجهة نظر القانون الأنجلو سكسوني؛ أما التصنيف الجنائي في القانون اللاتيني والتيوتوني، فيشمل ستِّين في المائة من القتَلة في فرنسا وإيطاليا والولايات الألمانية. إنهم شعوبٌ ساحرة يا جورج، ساحرة!»

أشرق وجهه بالحماسة، وأخذ جورج مانفريد ينظر إليه نظرةَ إعجاب؛ إذ قال له: «لم أتمكَّن من قبلُ من تكوين رأيٍ منفصل عن أولئك الرجال. إنهم مروِّعون للغاية بالنسبة لي؛ لأنه … أليس القتل أعلى درجات الظلم؟»

قال جونزاليس من دون اهتمام: «أظنُّ ذلك.»

سأل مانفريد وهو يلفُّ منديل المائدة: «ما الذي بدأ هذا الحبلَ من الأفكار؟»

أجاب الآخر بهدوء: «قابلتُ نموذجًا حقيقيًّا من القتَلة ليلة أمس؛ وطلب مني عودَ ثقابٍ وابتسم عندما أعطيتُه إيَّاه. له أسنان لا يمتلكها إلا قاتلٌ يا عزيزي جورج، باستثناء ...»

«باستثناء؟»

«له أنيابٌ كبيرة وطويلة على غير المعتاد، وعينان غائرتان توحِيان بدرجةٍ كبيرة من الرزانة، وكان وجهه مُشوَّهًا، ولكن هذه السِّمة الأخيرة ليست بالضرورة أن تكون مِن سمات المجرمين.»

قال مانفريد: «في الواقع، يبدو لي كالغول.»

أسرع جونزاليس لتصحيح انطباعه، قائلًا: «على العكس، إنه حسَنُ المظهر إلى حدٍّ بعيد؛ ولا يُلاحظ أحدٌ شذوذ وجهه إلا لو أمعن النظر فيه. إنه حسَن الطَّلعة للغاية!»

شرَح ظروف اللقاء؛ حيث كان في إحدى الحفلات الموسيقية ليلةَ أمس؛ ليس لأنه يُحب الموسيقى، ولكنه رغب في دراسة أثر الموسيقى في أنواعٍ بعينها من الناس. رجع بأفكارٍ مُبهَمة عن بَرنامجه من جميع جوانبه، وجلس حتى منتصف الليل وهو يشرح ملاحظاته.

أضاف جونزاليس ببساطة: «إنه ابن الأستاذ تيبلمان، وهو ليس على وِفاق مع والده؛ إذ من الواضح أنه لا يُوافق على اختياره لخطيبته، كما أنه يكره ابن عمه.»

ضحك مانفريد عاليًا.

وقال: «إنك لشخصٌ مذهل! وهل أخبرَك بكل هذا بإرادته الحرَّة، أم نوَّمتَه مغناطيسيًّا وانتزعتَ منه هذه المعلومات؟ لم تسألني عمَّا فعلتُ ليلة أمس.»

كان جونزاليس يُشعِل سيجارة ببطء وحذَر.

وقال: «إن طوله قرابة المترَين — ولأكونَ دقيقًا، ستُّ أقدام وبوصتان — كما أنه قويُّ البِنْية وبكتفَين كتِلْك!» أمسك بالسيجارة في يدٍ وعود الثقاب المُشتعل في اليد الأخرى إشارة إلى عَرض الشاب. «إن لديه يدَين كبيرتَين وقويتَين، ويلعب كرة القدَم في فريق يونايتيد هوسبيتالز. عذرًا يا مانفريد، أين كنتَ ليلة أمس؟»

قال مانفريد: «في سكوتلاند يارد.» ولكن لو توقَّع أن يُصبح هو محورَ الحديث، فلا بدَّ أنه أُصيب بخيبة الأمل. وبما أنه يعرف صديقه ليون، فربما لم يتوقَّع أن يحدُث ما رجاه.

قال جونزاليس: «يا له من مبنًى مُثيرٍ للاهتمام. لا بدَّ أن المعماري قد أدار واجهة المبنى الغربيةَ نحو الجنوب، على الرغم من أن مداخله الخفية تتماشى مع طابَعِه. إنك لا تُواجه صعوبةً في تكوين الأصدقاء، أليس كذلك؟»

«على الإطلاق؛ فعملي مرتبطٌ بالقانون الجنائي الإسباني، ودراستي لعِلم البصمات ضمنَت لي الدخول إلى المأمور.»

عُرِف مانفريد في لندن باسم «السيد فوينتيس»، كاتب بارز في عِلم الجريمة. ولمَّا كانا عالِمَين إسبانيَّين، فكلاهما حاصلٌ على أعلى أوراق الاعتماد من وزير العدل الإسباني. أقام مانفريد لسنواتٍ عديدة في إسبانيا. أما جونزاليس، فقد كان من السكَّان الأصليين لذلك البلد. ثالث الرجال الأربعة المشهورين — الذين لم يكن عددُهم أربعةً مدةَ عشرين عامًا — هو بويكارت، الشجاع والنبيل، ولم يكن يترك حديقتَه الكبيرة في قرطبة إلا نادرًا.

أشار إليه ليون جونزاليس عندما تحدَّث.

حيث قال: «ينبغي أن تكتب لصديقنا العزيز بويكارت وتُخبره؛ فسيكون مُهتمًّا. لقد تلقَّيت خطابًا منه هذا الصباحَ. جاء بطنان جديدان من الخنازير الصغيرة لمباركة مؤسَّسته؛ وأصبحت أشجارُ البرتقال مُزهِرة في حديقته.»

ضحك في نفسه، ثم أصبح جادًّا فجأة.

«هل احتضنَك رجال الشرطة هؤلاء؟»

أومأ مانفريد.

«تعامَلوا معي بمنتهى الطيبة والرُّقي. سنتناول الغداء غدًا مع أحد المُفوَّضين المساعِدين وهو السيد ريجنالد فير. لقد تحسَّنَت أساليبُ الشرطة البريطانية تحسُّنًا كبيرًا منذ أن كُنَّا في لندن آخِرَ مرة يا ليون. قسم البصمات نموذجٌ للكفاءة، ورجالهم الجدُد يتحلَّون بذكاء كبير.»

قال ليون المبتهج: «ولكنهم سيشنقوننا على كل حال.»

أجاب صاحبه: «لا أعتقد ذلك!»

كان الغداء في فندق ريتز كارلتون، هذه المناسبات مُمتِعة لهم، خاصة لجونزاليس. أما السيد فير — المُفوَّض في منتصف العمر — فكان عالِمًا ذا كفاءة عالية، بالإضافة إلى كونه رجلًا جذابًا. تبادل كلٌّ من مارو ولومبروسو وفير ومانتيجازا وإيليس الآراءَ والملاحظاتِ وهم جالسون على المائدة.

قال فير: «إن المجرم الذي اعتاد الإجرام يرى العَالَم مرةً كأنه سجن هائل، ومرةً مزحة كبيرة. هذا ليس وصفي، بل ما هو عليه الأمر منذ مائة عام. المجرم الذي اعتاد

الإجرامَ يسهل التعاملُ معه؛ ولكن عندما يتعلق الأمر بالتصنيفات غيرِ الإجرامية والقتَلة والمُختلِسين العارِضين ...»

قال جونزاليس: «بالضبط! ولكني أختلفُ معك في ...»

لم يكَد يُعبِّر عن رأيه حتى أتى عاملٌ وأحضر مظروفًا إلى المفوض الذي قاطع جونزاليس باعتذاره له؛ ليفتحَه ويقرأ محتواه.

قال: «همم! تلك صُدفة غريبة ...»

نظر إلى مانفريد بتمعُّن.

«قلتَ في الليلة الماضية إنك تُريد أن ترى عملَ سكوتلاند يارد عن كَثب، وقد وعَدتُك بأنني سأُتيح لك أول فرصة تسنح لذلك، وها قد أتت الفرصة!»

أشار إلى النادل ودفع فاتورته قبل أن يتكلم مرةً أخرى.

وقال: «لن أستنكفَ من الاستعانة بخبرتك الكبيرة؛ لأنه من الممكن أن نحتاج إلى كل المساعدة التي يُمكننا الحصولُ عليها في هذه القضية.»

سأل مانفريد: «ما هذا؟» ثم شقَّت سيارة المفوض طريقها في شوارع هايد بارك كورنر.

المفوض: «عُثر على رجلٍ ميتٍ في ظروف غامضة. وهو يَشغل منصبًا مرموقًا بين العلماء، واسمه الأستاذ تيبلمان، ربما تعلمون هذا الاسم.»

قال جونزاليس وعيناه تتَّسعان: «تيبلمان؟ عجبًا، ذلك غريب! كنتَ تتحدَّث عن الصُّدف يا سيد فير. الآن سأُخبرك بصُدفةٍ أخرى.»

تحدَّثَ عن لقائه مع ابن الأستاذ في الليلة السابقة.

وتابع جونزاليس قائلًا: «أنا شخصيًّا أنظرُ إلى جميع الصُّدف باعتبارها جزءًا من المسار الطبيعي للأمور. فمِن المُصادفة أنك إذا تلقَّيتَ فاتورة تتطلَّب الدفع، فإنك تتلقَّى فاتورتَين أو أكثرَ خلال اليوم، وأنك إذا تلقيتَ شيكًا عبر البريد الأول، فتأكَّد من أنك ستتلقَّى شيكًا عبر البريد الثاني أو الثالث. يومًا ما، سأُكرِّس تفكيري للبحث في هذه الظاهرة.»

على الرغم من أنَّ فير لم يكن بحاجةٍ إلى التوضيح، ولكن لمَّا تذكَّر مانفريد الاسم، قال: «يعيش الأستاذُ تيبلمان في تشيلسي؛ فقد اشترى منزلَه قبل بِضع سنواتٍ من أحد الفنانين، وحوَّل الأستوديو الواسع إلى مُختبَر. وكان محاضِرًا في الفيزياء والكيمياء في جامعة بلومزبري. كذلك حظي الرجل بثروةٍ ضخمة.»

قال فير: «عرَفتُ الأستاذ وتناولتُ معه العشاء منذ ما يقرب من شهر، ودبَّت بعض الخلافات بينه وبين ابنه؛ فقد كان تيبلمان عجوزًا مُستبدًّا وعنيدًا كهؤلاء المسيحيين الذين يُقدِّسون الشخصيات التاريخية في العهد القديم، ولكن لا يبدو أنهم قد وصلوا إلى الكتاب الثاني.»

وصَلوا إلى المنزل، وهو مبنًى حديثٌ وجميل في أحد الشوارع المُتاخِمة لشارع كينجز روود؛ ويبدو أن أخبار المأساة لم تتسرَّب بعد؛ لأن الحشود المعتادةَ من المُتسكِّعين المهووسين لم تتجمَّع. كان أحد المُحققين ينتظرهم، وتوجَّه بالمفوض على طول ممرٍّ مُظلَّل بجانب المنزل، وصعد به مجموعةً من الدرجات التي تقود مباشرةً إلى الأستوديو. لم يُوجَد شيءٌ غيرُ معتاد في الغرفة، باستثناء سطوع إضاءتها الشديد؛ لأن أحدَ الجدران كان عبارة عن نافذة ضخمة، وكان السقفُ المائل من الزجاج أيضًا. تحتوي الغرفة على عددٍ من المقاعد العريضة بطول جدارَين، وطاولةٍ كبيرة في وسط الغرفة؛ كل هذا الأثاث تُغطِّيه الأجهزة العلمية. يُوجَد أيضًا رفَّان طويلان فوق المقاعد مملوءان بالزجاجات والجِرَار التي بدا أنها تحتوي على موادَّ كيميائية.

قام شابٌّ حسنُ الوجه حزين المظهر من فوق أحد الكراسي عندما دخلوا.

وقال: «أنا جون مونسي، ابن شقيق الأستاذ. هل تتذكَّرني يا فير؟ كنتُ أساعد عمِّي في تَجارِبه.»

أومأ فير، وكانت عيناه مُنشغلتَين بالشيء المُلقى على الأرض، بين الطاولة والمقعد.

قال الشابُّ بصوتٍ خفيض: «لم أُحرك الأستاذ. المُحققون الذين أتوا حرَّكوه قليلًا لمساعدة الطبيب في فحصه، ولكنه تُرك تقريبًا في مكان وقوعه.»

الجثة لرجلٍ عجوز طويل ونحيف، وارتسمت على وجهه الشاحب نظرةُ ألم ورُعب لا تُخطِئها العين.

قال فير: «يبدو أنها حالةُ خنق. هل وُجِد أي حبلٍ أو سلك؟»

الشاب: «لا يا سيدي، ولكن هذا هو الرأي الذي توصَّل إليه المُحققون، وأجرَينا بحثًا مُتمعِّنًا داخل المختبر.»

انحنى جونزاليس بجوار الجثة، وأخذ يُمعِن النظر إلى العُنق النحيل. رأى شريطًا أزرق حول العنق طوله أربعُ بوصاتٍ تقريبًا، واعتقد في البداية أنها ضمَّادةٌ مصنوعة من مادةٍ شفافة؛ ولكن عند الفحص الدقيق، رأى أنها مجرد تلوُّن في الجلد. ثم رفع عينه الثاقبةَ إلى الطاولة، بالقُرب من مكان سقوط الأستاذ، وسأل: «ما ذلك؟» مُشيرًا إلى زجاجةٍ خضراء صغيرة وبجوارها كأس فارغة.

قال الشباب: «إنها زجاجة شراب كريم دي مينتي؛ اعتاد عمِّي أن يشرب كأسًا منه قبل النوم.»

سأل ليون: «هل لي؟» وأومأ فير.

التقط جونزاليس الزجاجةَ واشتمَّها، ثم رفعها في الضوء.

قال المفوض: «هذه الكأس لم تُشرَب فيها الخمر ليلة أمس، فلقد قُتل قبل أن يشرب منها. أودُّ أن أستمع للقصة كاملةً منك يا سيد مونسي. أظن أنك تَبيت في هذا المبنى، أليس كذلك؟»

بعد أن أعطى بعض التعليمات للمُحققين، تبع المفوضُ الشابَّ إلى غرفةٍ يبدو أنها مكتبة الأستاذ الراحل.

قال: «عملت مساعدًا وسكرتيرًا لدى عمِّي لمدة ثلاث سنوات، وكنا دائمًا على وِفاق تام. كان عمي يقضي الصباحَ في مكتبته؛ أما طوال فترة ما بعد الظهيرة، فقد كان يقضيها إما في مختبره أو في مكتبه في الجامعة، وكان يقضي دائمًا الساعاتِ بين العشاء ووقت النوم في العمل على تجارِبه.»

قال فير: «هل كان يتناول العشاء في المنزل؟»

أجاب السيد مونسي: «دائمًا، ما لم يكن لديه محاضرةٌ مسائية أو اجتماعٌ في إحدى الجمعيات التي انضمَّ إليها، وفي هذه الحالة كان يتناول العشاء في نادي الجمعية الملَكية في شارع سانت جيمس.

إن عمي — وربما أنت تعلم ذلك يا سيد فير — على خلافٍ شديد مع ابنه، ستيفن تيبلمان ابن عمي وصديقي العزيز. وقد بذلت قصارى جهدي للصلح بينهما؛ وعندما أرسل لي عمي منذ اثنَي عشَر شهرًا في هذه الغرفة نفسِها وأخبرَني أنه غيَّر في وصيته وترك مُمتلكاته بالكامل لي وحرم ابنه تمامًا من ميراثه، انتابني قلقٌ شديد. وذهبت على الفور إلى ستيفن وترجَّيته ألا يُضيع أيَّ وقتٍ وأن يتصالَح مع أبيه العجوز، فضحك ستيفن وقال إنه لا يهتمُّ بأموال أبيه، وأنه قبل أن يتخلَّى عن الآنسة فابر — فقد كان الخلاف بينهما بسبب خِطبته لها — فإنه يَسرُّه أن يعيش على المبلغ الضئيل الذي تركَته والدتُه له. عُدت والتقيتُ بالأستاذ وترجَّيته أن يُعيد ستيفن إلى وصيته.» ثم ابتسم نصف ابتسامة، وأكمل قائلًا: «أعترف أنني توقَّعت إرثًا صغيرًا وسأُقدِّر ذلك. إنني أتبع المسار العلمي نفسَه الذي كان يتبعه الأستاذ في أيامه الأولى، ولديَّ طموحاتٌ لمواصلة عمله. لكن الأستاذ لم يأخذ بأيٍّ مما اقترحتُه عليه، وغضب منِّي غضبًا شديدًا، وجال بخاطري أنَّ

الحكمة تقتضي أن أنسحب من التدخُّل في الأمر، وهو ما فعلته. ومع ذلك، لم أُضيِّع أيَّ فرصةٍ لتقديم النصح لستيفن؛ وفي الأسبوع الماضي، عندما كان الأستاذ في مِزاج لطيف، طرَحتُ المسألة كلها مرةً أخرى، ووافق أن يُقابل ستيفن. التقَيا في المُختبر، ولم أكن حاضرًا؛ لكنني أعتقد أن شجارًا رهيبًا نشب بينهما. وعندما حضرت، علمتُ أن ستيفن رحل وكان السيد تيبلمان حانقًا من الغضب. يبدو أنه أصرَّ مرةً أخرى على أن يتخلَّى ستيفن عن خطيبته، وأن ستيفن رفض رفضًا صريحًا.»

قال جونزاليس: «كيف وصل ستيفن إلى المُختبر؟ هل لي أن أطرح هذا السؤال يا سيد فير؟»

أومأ المفوض.

«دخل من المَمرِّ الجانبي. لا يدخل أحدٌ إلى المنزل لأغراض عِلمية بحتة سوى قلةٍ من الناس.»

«إذن فالدخول إلى المختبر ممكنٌ في جميع الأوقات؟»

قال الشاب: «حتى آخِر ساعة من الليل، عندما تكون البوابة مُغلَقة. كما ترى، فإن عمي اعتاد على الذَّهاب للسير قليلًا قبل النوم، وكان يُفضل استخدامَ هذا المدخل.»

«هل كانت البوابة مُغلقةً الليلةَ الماضية؟»

هزَّ جون مونسي رأسه.

وقال بهدوء: «لا، كان ذلك أحدَ أول الأشياء التي حقَّقتُ فيها؛ إذ كانت البوابة غيرَ مُوصَدةٍ ومفتوحةً بعض الشيء. إنها ليست بوابةً بقدْر ما هي شبكةٌ حديدية، كما لاحظتم على الأرجح.»

أومأ السيد فير، وقال: «استمِر.»

«حسنًا، هدأ الأستاذ تدريجيًّا، وغرق في التفكير طيلةَ يومَين أو ثلاثة، وأعتقدُ أن حزنًا أصاب قلبه. وفي يوم الاثنين ... في أيِّ يوم نحن؟ الخميس؟ أجل، في يوم الاثنين حين قال لي: «جون، لنتحدَّثْ قليلًا في شأن ستيفن. هل تعتقد أنني عاملتُه بسوءٍ شديد؟» فقلت: «أعتقد أنك كنتَ مُحتدًّا بعض الشيء يا عمي.» ردَّ قائلًا: «ربما كنتُ كذلك؛ ولا بدَّ أنها فتاة شديدة الجمال مما دفع ستيفن إلى العيش في فقرٍ من أجلها.» كانت تلك هي الفرصة التي ظللتُ أدعو من أجلها، وأعتقد أنني حثَثتُ عمِّي في مسألة ستيفن ببلاغةٍ يُثنى عليها. ومِن ثَم رضخ الرجل العجوز وأرسل برقيةً إلى ستيفن يطلب منه أن يراه ليلةَ أمس. لا بدَّ أنَّ الأستاذ مرَّ بصراعٍ صعب كي يتغلبَ على اعتراضه على الآنسة فابر؛ إذ كان مُتعصبًا في مسألة الوراثة ...»

قاطعه مانفريد بسرعةٍ قائلًا: «الوراثة؟ ماذا كان خطبُ الآنسة فابر؟»

هزَّ الآخر كتفَيه وقال: «لا أعرف، ولكن الأستاذ سمع شائعاتٍ عن وفاة والدها في مصحة للسكارى؛ ولكني أعتقد أن تلك الشائعات عاريةٌ من الصحة.»

سأل فير: «ماذا حدث ليلة أمس؟»

قال مونسي: «أعلم أن ستيفن قد أتى، وحرَصتُ على أن أبقى بعيدًا. في الواقع، قضيتُ وقتي في غرفتي أُعدِّل بعض مُتأخِّرات المراسلات. نزلت إلى الطابق السفلي في حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف، لكن الأستاذ لم يَعُد. عندما تنظر من هذه النافذة، يُمكنك أن ترى جدار المُختبر؛ ولَمَّا رأيت الأنوار لا تزال مضاءة، اعتقدت أن محادثةَ الأستاذ طال أمدُها، وكنت آمُل أن تُسفِر هذه المقابلة عن أفضلِ النتائج؛ ثم ذهبتُ إلى فراشي. كان ذلك في وقتٍ أبكرَ مما أذهبُ إليه عادةً، ولكني كنتُ معتادًا على الذَّهاب إلى النوم دون أن أقول للأستاذ: «ليلة سعيدة.»

أيقظتْني مدبرةُ المنزل في الثامنة صباحًا، وأخبرَتني أن الأستاذ ليس في غُرفته. إلى الآن، ليس هناك ما يُثير القلق؛ ففي بعض الأحيان يعمل الأستاذ إلى وقتٍ متأخِّر جدًّا في المُختبَر، ثم يُلقي بنفسِه على كرسيٍّ بذراعَين ويغطُّ في النوم. اعتاد الأستاذ على هذا وكنتُ أعترض على ذلك بقدرِ ما أستطيع، لكنه لم يكن رجلًا يتحمَّل النقدَ بصدرٍ رحب.

ارتديتُ روبي وخُفَّيَّ وذهبت إلى المختبر، ويُمكن الوصولُ إليه — كما تعلمون — بالطريقة التي جئنا بها إلى هنا. وفي ذلك الحين وجدتُه على الأرض، وكان ميتًا بالفعل.»

سأل جونزاليس: «هل كان باب المُختبَر مفتوحًا؟»

«كان مواربًا.»

«وهل كانت البوابة كذلك مواربة؟»

أومأ مونسي.

«ألم تسمع أي صوت يدل على وقوع شجار؟»

«على الإطلاق.»

كان ثَمة قرعٌ على الباب؛ فمشى مونسي إليه.

قال: «إنه ستيفن.» وبعد برهة، دخل ستيفن تيبلمان وبرفقته اثنان من المُحقِّقين إلى الغرفة. كان وجهه الكبير شاحبًا؛ وعندما حيَّا ابنَ عمه بابتسامةٍ بسيطة، رأى مانفريد أنيابه غيرَ العادية، التي كان لها مظهرٌ كبير وفظ. أما أسنانه الأخرى، فكانت بالحجم الطبيعي؛ ولكن هذه الأنياب المُدبَّبة كانت شاذةً شذوذًا لافتًا للنظر.

كان ستيفن تيبلمان شابًّا ضخمَ الجثة؛ وبالنظر إلى يدَيه الضخمتَين، عضَّ مانفريد على شفَته مفكرًا.

«هل سمعتَ الخبر الحزين يا سيد تيبلمان؟»

قال ستيفن بصوتٍ مهزوز: «نعم يا سيدي. هل لي أن أرى أبي؟»

قال فير بنبرة حزم: «بعد قليل؛ ولكني أُريدك أن تُخبرني متى رأيتَ والدك آخر مرة؟»

قال ستيفن تيبلمان مسرعًا: «رأيتُه حيًّا ليلة أمس؛ فقد جئتُ وفقًا لموعدي معه إلى المختبر، ودار بيننا حديثٌ طويل.»

«كم أمضيتَ معه من الوقت؟»

«حوالي الساعتَين، حسب تخميني.»

«وهل كانت مُحادثتكما وُدية؟»

قال ستيفن مؤكدًا على كلامه: «للغاية، وللمرة الأولى منذ أكثرَ من عام.» ثم تردَّد، وقال: «ناقشنا موضوعًا مُعينًا مناقشةً عقلانية.»

«هل هذا الموضوع هو خطيبتك، الآنسة فابر؟»

نظر ستيفن إلى المُحقِّق ولم يُنزل عينَه من عليه.

ردَّ سريعًا: «كان ذلك هو الموضوعَ يا سيد فير.»

«هل ناقشتما أي أمورٍ أخرى؟»

تردَّد ستيفن.

ثم قال: «تحدَّثنا حول الأموال؛ إذ كان أبي قد قطع مصروفي، وكنتُ مُفلسًا نوعًا ما. في الواقع، لقد سحبتُ من البنك ما يَزيد عن رصيدي، ووعَدني بأنه سيُصلح الأمر؛ وتحدثنا كذلك عن المستقبل.»

«أتقصد وصيتَه؟»

«أجل يا سيدي، تحدَّثنا عن تغييره لوصيته.» ثم حوَّل نظرَه إلى مانفريد، وابتسم مرةً أخرى قائلًا: «كان ابنُ عمِّي مدافعًا مُثابرًا عني، ولا يسَعُني إلا أن أشكره بما يكفي عن إخلاصه لي في تلك الأوقات الصعبة.»

«عندما تركتَ المختبر، هل خرَجتَ من المدخل الجانبي؟»

أومأ ستيفن.

«وهل أغلقتَ الباب خلفك؟»

قال: «أغلق أبي الباب؛ فأنا أتذكَّر بوضوحٍ أنني سمعتُ طقطقة القُفل عندما كنتُ في طريقي في الممر.»

«هل يُمكن أن يُفتَح البابُ من الخارج؟»

ستيفن: «نعم، هناك قُفل له مِفتاح واحد فقط، وهو بحوزة أبي. أعتقد أنني مُحق، أليس كذلك يا جون؟»

أومأ جون مونسي.

«ومن ثَمَّ لو أُغلِق الباب وراءك، فلا يستطيع أحدٌ فتحه إلا إذا كان بداخل المختبر؛ الأستاذ، على سبيل المثال؟»

بدا ستيفن في حَيرة من أمره.

وقال: «لا أفهم تمامًا معنى هذا السؤال. لقد أخبرني المُحقِّق أن أبي قد وُجِد ميتًا؛ فماذا كان السبب؟»

قال فير بهدوء: «أعتقد أنه خُنِق.» فتراجع الشابُّ خطوةً للوراء.

وهمس قائلًا: «خُنِق! ولكنه لم يكن له أي أعداء.»

«ذلك ما سنكتشفه.» وكان صوتُ فير خاليًا من التعاطف ورسميًّا، ثم قال: «يُمكنك الذَّهاب الآن يا سيد تيبلمان.»

بعد لحظةٍ من التردُّد، اندفع الرجل الضخم تاركًا الغرفةَ عبر بابٍ في اتجاه المختبر. ورجع بعد ربع الساعة، وكان وجهه أبيضَ بياضًا مُميتًا وتمتم قائلًا: «يا له من أمرٍ مروِّع، مروِّع! يا لأبي المسكين!»

قال فير: «إنك على وشك أن تُصبح طبيبًا يا سيد تيبلمان، أليس كذلك؟ أعتقد أنك تعمل في مستشفى ميدلسكس. هل تُوافقني الرأي بأن والدك مات مخنوقًا؟»

أومأ الآخر.

وقال مُتحدثًا بصعوبة: «يبدو ذلك؛ ولكن لا يُمكنني أن أُجري فحصًا كما أُجريه لأي شخصٍ آخر، ولكن الأمر يبدو كذلك.»

رجع الرجلان إلى مكان إقامتهما. تتجلَّى قدرات مانفريد في التفكير عندما يكون في حالةِ نشاط. سارا في صمت؛ إذ غرق كلٌّ منهما في أفكاره.

بعد قليل، سأل ليون بهدوء وبنبرةٍ تنمُّ عن إحساسه بالانتصار: «هل لاحظتَ الأنياب؟»

قال مانفريد: «لاحظتُ كذلك حزنه الواضح.» فضحك ليون ضحكةً خافتة.

قال بغرور — فليون يسعد بكونه مغرورًا في بعض الأحيان: «مِن الواضح أنك لم تقرأ دراسة الصديق مانتيجازا الرائعة حول «فسيولوجيا الألم»، ولم تدرُس جداوله الأروع في «مرادفات التعبير»، وإلا لأدركتَ أنه لا يُمكن التمييز بين التعبير عن الحزن والتعبير عن الندم.»

نظر مانفريد نظرةً دونية إلى صديقه بابتسامته الهادئة.

«أي أحدٍ لا يعرفك يا ليون سيقول إنك مُقتنع بأن الأستاذ تيبلمان خنَقه ابنُه.»

قال جونزاليس بلا مبالاة: «بعد شجارٍ مُحتدِم.»

«عندما رحل ابن الأستاذ تيبلمان، فحَصتَ المُختبر؛ فهل وجدتَ شيئًا؟»

قال جونزاليس: «لا شيء سوى ما توقَّعتُ أن أجده. كان هناك جهازُ الهواء المعتاد، ومقطرة الهواء السائل التي لا غِنى عنها، والبوتقات الكهربائية المتوقَّع وجودها دائمًا. أعترف أنه لم يكن ثَمة داعٍ للتفتيش؛ لأنني كنتُ أعلم بالضبط كيف ارتُكِبَت جريمة القتل — حيث كانت جريمةَ قتلٍ بالفعل — منذ اللحظة التي دخلتُ فيها المختبر ورأيتُ فيها الترمس وضمَّادة القطن الطبي.»

عبَس فجأةً وتوقَّف تمامًا.

ثم صاح فجأة: «أيتها القديسة ميراندا!» إذ دائمًا ما يُقسِم جونزاليس بقِدِّيسته غير الموجودة، واستطرد: «لقد نسيت!»

نظر إلى الشارع يمينًا ويسارًا.

وقال: «ثَمة مكان يُمكننا أن نُجري مكالمةً هاتفية منه. هل ستأتي معي، أم أتركك هنا؟»

قال مانفريد: «إن الفضول يتملَّكني.»

دخلا المتجر وأعطى جونزاليس رقمًا؛ ولم يسأله مانفريد كيف عرَفه؛ لأنه أيضًا قد قرأ الرقم المكتوب على قُرص الهاتف على طاولة الأستاذ الراحل.

سأل جونزاليس: «هل هذا أنت يا مونسي؟ إنه أنا. أتتذكَّرني؟ لقد مشيتُ للتوِّ من عندك. أجل، أعتقد أنك ستتعرَّف على صوتي. أُريد أن أسألك أين نظَّارة الأستاذ؟»

سادت لحظةٌ من الصمت.

قال مونسي: «نظارة الأستاذ؟ عجبًا، إنها معه، أليس كذلك؟»

قال جونزاليس: «إنها ليست على الجثَّة أو بالقُرب منها. هلا نظرتَ ما إذا كانت في غرفته؟ سأنتظرك على الهاتف.»

انتظر وهو يُدندن بمقطوعةٍ قصيرة من البيرو شيكو، وهي أوبرا مُسلِّية انتشرَت في مدريد قبل خمس عشرة سنة؛ ثم وجَّه انتباهه مرة أخرى للأداة.

«هل كانت في غرفة نومه؟ شكرًا جزيلًا.»

وضع السماعة ولم يشرح المحادثة لمانفريد، ولم يتوقَّع مانفريد منه ذلك؛ لأن ليون جونزاليس يُحب الغموض كثيرًا. ولم يتلفَّظ بكلماتٍ سوى أن قال: «الأنياب!»

بدا أن هذا يُعجبه كثيرًا.

عندما جاء جونزاليس للإفطار في الصباح التالي، أخبره النادلُ أن مانفريد خرج باكرًا. أتى جورج بعد ما يقرُب من عشرِ دقائق بعدما بدأ جونزاليس تناوُلَ إفطاره؛ ثم نظر لأعلى.

قال: «إنك تُحيرني عندما يكون وجهك جامدًا يا جورج؛ فلا أعلم تحديدًا ما إذا كنتَ مُستمتعًا أم مكتئبًا.»

قال مانفريد، وهو يجلس لتناول الإفطار: «قليلٌ من الاستمتاع وقليل من الاكتئاب. ذهبت إلى شارع فلييت للاطِّلاع على الصحف الرياضية.»

كرَّر جونزاليس قائلًا وهو يُحدِّق فيه: «الصحف الرياضية؟» وأومأ مانفريد.

«بالمناسبة، قابلتُ فير؛ ولم يُعثَر على أي سُمٍّ في الجثة أو أي أثرٍ آخَر لعُنف قد حلَّ بها. وسوف يقبضون على ستيفن تيبلمان اليوم.»

قال جونزاليس بجدِّية: «كنتُ أخشى ذلك؛ ولكن لماذا الصحف الرياضية يا جورج؟»

لم يُجِب مانفريد عن السؤال؛ ولكنه واصل حديثه قائلًا: «إن فير على يقينٍ أن جريمة القتل ارتكبها ستيفن تيبلمان؛ ونظريته هي أن ثمة شجارًا وقع بينهما، وأن الشاب فقد أعصابه وخنق أباه. ولكن من الواضح من فحص الجثة أن ثمة عنفًا غيرَ عادي قد استُخدم معها؛ فجميع الأوعية الدموية في الرقبة مسدودة. وأخبرني فير أيضًا أن الطبيب شكَّ في احتمالية وجود سُمٍّ في البداية، ولكن لم يُكتشَف أيُّ أثر لعقار، وقال الأطباء إنه من غير المعلوم وجودُ عقارٍ يُسبب الوفاة بهذه الأعراض. زاد هذا وضع ستيفن سوءًا؛ لأنه في الأشهُر القليلة الماضية كان يُركز دراساته على سُمٍّ غامض.»

تمدَّد جونزاليس للوراء على كُرسيِّه واضعًا يدَيه في جيبَيه.

وقال بعد حين: «حسنًا، سواءٌ ارتكب جريمةَ القتل تلك أم لا، فإنه سيرتكب جريمةَ قتل عاجلًا أم آجلًا بلا شك. أذكر مرةً أنه كان هناك طبيب في برشلونة لديه أسنان كهذه، كان مسيحيًّا مُتدينًا، ورجلًا محبوبًا وأعزبَ ولديه الكثيرُ من المال، ولم يكن لديه سببٌ

على الإطلاق يجعله يُقدِم على قتل أي أحد؛ ولكنه قتل؛ قتل طبيبًا آخَر هدَّده بفضح خطأٍ ارتكبه في إحدى العمليات الجراحية. أقول لك يا جورج إنه بأسنانٍ مثل هذه ...» توقف قليلًا وعبَس مُفكِّرًا، ثم قال: «عزيزي جورج، سأطلب من فير أن يمنحَني امتيازَ قضاء بِضع ساعات بمفردي في مختبر الأستاذ تيبلمان.»

أجفل مانفريد: «لماذا؟» ثم راجع نفسَه، وقال: «عجبًا! بالطبع عندك سبب يا ليون. عادةً لا أجد صعوبة على الإطلاق في حلِّ ألغازٍ كهذه، ولكنني محتار في أمر هذه القضية، وأنا واثق من أنك حلَلتَ لُغزها. ثمة سِمات مُعيَّنة للعمل المُحيِّر على وجه الخصوص. ما السبب في أن يرتديَ الرجل العجوز قُفازًا سميكًا؟»

قفز جونزاليس واقفًا على قدَمَيه وعيناه تُومضان.

وكاد يصيح وهو يقول: «يا لغبائي! لم أرَ هذا.» ثم سأل مُتلهفًا: «هل أنت متأكد يا جورج؟ هل كان يرتدي قفازاتٍ سميكة؟ هل أنت متأكد؟»

أومأ مانفريد وابتسم لمفاجأتِه من اضطراب الآخر.

أخذ جونزاليس ينقر بأصابعه وقال: «وجدتها! كنتُ أعلم أنَّ ثمة خطأ ما في الحسابات! كانت قفازاتٍ صوفيةً سميكة، أليس كذلك؟» ثم غرق في التفكير فجأةً وقال كما لو كان يُخاطب نفسه: «حسنًا، تُرى كيف جعل الرجلَ العجوز يرتديها؟»

وافق السيد فير على الطلب، وتوجَّه الرجلان معًا إلى المُختبَر، ووجدا جون مونسي في انتظارهما.

قال بمجرَّد أن رآهما: «وجدتُ هذه النظارة بجانب سرير عمي.»

قال ليون بذهنٍ شارد: «أوه، النظارة؟ هل لي أن أراها؟» أخذَها في يده، وقال: «كان عمُّك مُصابًا بقِصَر نظر شديد. عجبًا، كيف له أن يتركها؟»

أوضح السيد مونسي الأمر قائلًا: «أعتقد أنه صعد إلى غرفة نومه لتغيير ملابسه كما يفعل عادةً بعد العَشاء، ولا بدَّ أنه قد نسِيَها هنا، ولكنه دائمًا ما يحتفظ بأُخرى للطوارئ في مُختبَرِه، ولكن لسببٍ أو لآخر لا يبدو أنه قد ارتداها.» ثم سأله: «هل تُريد أن تبقى وحدَك في المختبر؟»

قال ليون: «أُفضِّل ذلك. ربما يُمكنك تسليةُ صديقي بينما أتفحَّص المكان.»

عندما تُرِك وحدَه، أغلق الباب الذي يربط المُختبرَ بالمنزل؛ وكان أول ما بحث عنه هو النظارة التي كان الرجلُ العجوز يرتديها عادةً أثناء عمله.

عمد إلى الذَّهاب مباشرةً إلى المكان الذي يُوجَد فيه وعاء الرماد المُجلفن بجوار السُّلَّم المؤدي إلى المختبر. ووجد النظارة مكسورةً إلى قطعٍ صغيرة، وكان الإطارُ المصنوع من العاج مكسورًا في مكانَين؛ فجمع ما تمكَّن من جمعه من الأجزاء ورجع إلى المختبر؛ ثم بعد أن وضعها على المقعد، رفع سماعة الهاتف.

كان للمختبر اتصالٌ مباشر بسنترال الهاتف؛ وبعد انتظار خمس دقائق، وجد جونزاليس نفسَه على اتصالٍ بستيفن تيبلمان.

جاء الرد المُتفاجئ قائلًا: «أجل يا سيدي، كان أبي يرتدي نظارته طوال المُقابَلة.»

قال جونزاليس: «شكرًا لك، ذلك كل شيء.» ووضع سماعة الهاتف.

ذهب بعد ذلك إلى أحد الأجهزة في ركنٍ بالمختبر، وظلَّ يعمل لمدة ساعة ونصف الساعة. وفي نهاية ذلك الوقت، ذهب إلى الهاتف مرةً أخرى. ثم مرَّت نصف ساعة أخرى، سحب بعدها من جيبه قفازًا من الصوف السميك، وفتح البابَ المُؤديَ على المنزل، ثم نادى مانفريد.

وقال: «اطلب من السيد مونسي أن يأتي.»

قال السيد مونسي وهو يُرافق مانفريد عبر المَمر: «إن صديقك مُهتم بالعلوم.»

قال مانفريد: «أعتقد أنه أحد أذكى الأشخاص في مجاله بشكلٍ خاص.»

دخل المختبرَ أمام مونسي وتفاجأ لَمَّا وجد جونزاليس واقفًا بالقُرب من الطاولة يحمل في يده كأسَ خمرٍ صغيرةً مملوءةً بشرابٍ عديم اللون تقريبًا. كان الشراب عديمَ اللون تقريبًا، ولكن كانت به مسحةٌ من زُرقة؛ ومما أدهش مانفريد أنْ رأى طبقةَ رذاذ خفيفةً تعلو سطح السائل.

حدَّق مانفريد فيه، ثم رأى أن يدَي ليون جونزاليس بداخل قفازٍ صوفي سميك.

ابتسم السيد مونسي لَمَّا ظهَر مِن خلف مانفريد، وقال: «هل انتهيت؟» ولما رأى ليون انقطعَت ابتسامتُه. ظهر القلق والخوف على وجهه وبدأ يُغلق عينَيه وسمع مانفريد صوتَ أنفاسه الثقيلة.

قال ليون بلُطف: «أتُريد شرابًا يا صديقي؟ إنه شراب جميل. قد تُخطئ وتظن أنه كريم دي مينتي أو أيُّ مشروب مُسكِر مُعتَّق آخر، خاصةً إذا كنتَ رجلًا عجوزًا قصير النظر وشارد الذهن وقد سرَق أحدٌ نظارتك.»

سأل مونسي بصوتٍ مبحوح: «ماذا تعني؟ أنا ... أنا لا أفهمك.»

واصل جونزاليس قائلًا: «أعدُك أن هذا الشراب غير ضار، وأنه لا يحتوي على أي سُمٍّ من أي نوع، وأنه نقي نقاء الهواء الذي تتنفَّسه.»

صاح مونسي: «اللعنة عليك!» ولكن قبل أن يتمكن من القفز على مُضايِقه، أمسك به مانفريد وطرحَه أرضًا.

«اتصلتُ هاتفيًّا بالسيد فير البارع، وسيكون هنا قريبًا؛ وكذلك السيد ستيفن تيبلمان. آه، ها هما.»

سُمِع طرقٌ على الباب.

«هلا فتحتَ إذا سمحتَ يا عزيزي جورج؟ لا أعتقد أن صديقنا الشابَّ سيتحرك؛ وإن فعل، فسأُلقي بما في هذه الكأس على وجهه.»

دخل فير وتبعه ستيفن، وكان معهما ضابطٌ من سكوتلاند يارد.

جونزاليس: «ها هو سجينك يا سيد فير. وها هي الوسائل التي استخدمها السيد جون مونسي في قتل عمِّه. وأعتقد أنه قرَّر قتل عمه بسبب تصالُحِه مع ستيفن تيبلمان؛ ومن ثَمَّ فالوصية التي غيَّرَها بعنايةٍ كانت ستتحوَّل لصالح ستيفن تيبلمان.»

لهث جون مونسي قائلًا: «تلك كذبة! لقد حاولتُ من أجلك يا ستيفن، وتعلَم أنني … لقد بذلت قصارى جهدي كي تتصالح مع أبيك.»

قال جونزاليس: «أظنُّ مرةً أخرى أن كل ذلك ما هو إلا جزءٌ من خطة الخِداع الشاملة. وإن كنت مخطئًا، فلتشرَب هذا. إنه الشراب الذي شربه عمُّك ليلةَ موته.»

أسرع فير في السؤال قائلًا: «ما هذا؟»

ابتسم جونزاليس وأومأ للرجل قائلًا: «اسأله.»

استدار جون مونسي ومشى إلى الباب، وتبعه ضابطُ الشرطة الذي رافَق فير.

قال جونزاليس: «والآن سأُخبرك ما هو. إنه هواء سائل!»

قال المُفوَّض: «هواءٌ سائل! عجبًا! ماذا تقصد؟ كيف يُمكن أن يتسمَّم أحدٌ بالهواء السائل؟»

«لم يتسمَّم الأستاذ تيبلمان. الهواء السائل عبارة عن سائل يتمُّ الحصول عليه عن طريق خفضِ درجة حرارة الهواء إلى مائتَين وسبعين درجةً تحت الصفر. يستخدم العلماءُ السائل لإجراء التجارِب؛ وعادةً ما يُحفَظ في وعاءٍ حافظٍ لدرجة الحرارة، تُغلَق فوَّهته بقطنٍ طبي؛ لأنه — كما تعلمون — ثمَّة خطرُ انفجارٍ في حالة حبس الهواء.»

لهث تيبلمان في رعب: «يا إلهي! إذن هذه العلامة الزرقاء حول عنق أبي …»

«تجمَّد حتى الموت. على أقلِّ تقدير، تجمَّد حلقُه حتى تصلَّب في اللحظة التي تناول فيها ذلك السائل. اعتاد أبوك على احتساء شرابٍ مُسكر قبل ذَهابه للنوم، ولا يُوجَد ما يُثير الشك في ذلك. بعد مغادرتك، أعطى مونسي الأستاذ كأسًا مملوءةً بالهواء السائل، وحمله بطريقةٍ ما على ارتداء القُفَّاز.»

قال مانفريد: «لماذا فعل ذلك؟ أوه، بالطبع، إنه البرد.»

أومأ جونزاليس.

«لو لم يرتدِ القفاز، لاكتشف الشراب الذي يتناوله على الفور. ولكننا قد لا نعرف أبدًا الحيلة التي استخدمها مونسي. لا بدَّ أنه نفسه كان يرتدي قفازًا في ذلك الوقت. وبعد وفاة أبيك، شرَع في تجهيز دليلٍ لتوريط شخصٍ آخر. ربما خلع الأستاذُ نظارته تمهيدًا لذَهابه إلى الفِراش، وربما نسي القاتل — كما حدث معي — أن القفاز لا يزال في يدَي الجثة.»

قال جونزاليس لاحقًا: «نظريتي هي أن مونسي ظلَّ يُحاول لسنواتٍ ليُبعِد ابن عمه عن تعاطف أبيه. وربما اخترع قصة والد الآنسة فابر السكِّير.»

ذهب الشاب تيبلمان إلى غرفتهما وانصدم جونزاليس لما رآه؛ وقد قال شيئًا أدهشَ ستيفن ضاحكًا، وحدَّق جونزاليس فيه.

قال متلعثمًا: «إنها … أسنانُك!»

تورَّد وجه ستيفن.

وكرَّر في حيرة: «أسناني؟»

قال جونزاليس وهو مضطرِب للغاية: «كان لك نابان ضخمان عندما رأيتُك آخرَ مرة. أتتذكَّر يا مانفريد؟ لقد أخبرتك …»

انفجر الطالب الشابُّ في الضحك وقاطعه قائلًا: «أوه، لقد كانا زائفَين؛ كُسِرا أثناء إحدى مباريات الرجبي، ولكن بيرسون — زميلي في قسم طب الأسنان، إنه رجل طيب جدًّا على الرغم من أنه طبيب أسنان ضعيفٌ إلى حدٍّ ما — تعهَّد بأن يصنع لي نابَين بدلًا من اللذَين فقدتُهما. كان مظهرهما بشعًا، أليس كذلك؟ لا أتعجَّب من أنكما قد لاحظتُماهما. ولكني وضعتُ نابَين جديدَين آخرَين أعدَّهما لي طبيبُ أسنانٍ آخر.»

قال مانفريد: «حدث ذلك في الثالثَ عشر من سبتمبر من العام الماضي. وقد قرأتُ عنه في الصحف الرياضية.» رمَقه جونزاليس بنظرة تأنيب.

قال مانفريد واضعًا يدَه على كتف الآخر: «كما ترى يا عزيزي ليون، لقد علمتُ أنهما زائفان تمامًا كما كنتَ تعلم أنت أنهما نابان.»

وعندما أصبحا وحدَهما، قال مانفريد: «بمناسبة الحديث عن الأنياب ...»

قال ليون مسرعًا: «دعنا نتحدَّث عن شيءٍ آخر.»

الفصل الثالث

كاره ديدان الأرض

نُشِرت لأول مرة في صحيفة ذا ستاندرد، يوليو ١٩٢١

«تُوفِّي السيد فالماوث — المراقب الراحل لقسم التحقيقات الجنائية — في مدينة ستينز. أبرز ذكرى من فالماوث هي إلقاء القبض على جورج مانفريد؛ زعيم عصابة رجال العدالة الأربعة. وربما يكون الهروبُ المُثير لهذا الرجل السيِّئ السمعة هو الفصل الأكثر روعة في تاريخ عالم الجريمة. عيَّن تنظيمُ رجال العدالة الأربعة نفسه لرفع الظلم ومعاقبة المجرمين الذين استطاعوا الفرار من عدالة القانون. ويُعتقَد أن أعضاء التنظيم رجالٌ فاحِشو الثراء، كرَّسوا حياتهم وثرواتهم لهذا الهدف المثالي، غير أنهم اتبَعوا سُبلًا لا يُقِرُّها القانون. لم يُسمَع عن العصابة منذ سنوات عديدة.»

قرأ مانفريد الفِقرة من صحيفة مورنينج تليجرام، وعبس جونزاليس وقال: «لديَّ اعتراض سخيف على أنهم يُطلقون علينا «عصابة».» وابتسم مانفريد بهدوء، وردَّ قائلًا: «فالماوث العجوز المسكين! يعلم الله! لقد كان رجلًا لطيفًا.»

وافقه جونزاليس الرأي قائلًا: «لقد أحببتُ فالماوث؛ لم تكن له ملامحُ غريبةٌ البتة، باستثناء فَقَمٍ طفيف.»

ضحك مانفريد.

وقال: «سامِحني إن كنتُ أبدو أبلَهَ، ولكني لم أستطع قطُّ أن أتواكب معك في هذا الفرع الخاص من العلوم؛ ما المقصود بـ «الفَقَم»؟»

شرح ليون الأمر قائلًا: «يُطلِق عليه غيرُ العلماء اسم «الفك البارز»، ويُخطئون باعتباره علامةً على القوة؛ فهو أمر طبيعي في إقليم بييمونت، حيث تشيع الجمجمة القصيرة الرأس. وفي جمجمةٍ كهذه، فإن الفَقَم حالة طبيعية.»

قال مانفريد في إصرار: «بفَقَمٍ أو غيره، لقد كان رجلًا طيبًا.» أومأ ليون، وأضاف مانفريد بمكر: «كما نما لديه ضرس العقل كاملًا.» فاحمرَّ وجه جونزاليس؛ لأن الحديث عن الأسنان أصبح موضوعًا حسَّاسًا بالنسبة له، ولكنه ابتسم مع ذلك.

قال بنبرة انتصار: «سيُثير اهتمامَك أن تعرف يا عزيزي جورج أنه عندما فحص الدكتور كارارا أسنان أربعمائة مجرم وعددٍ مُماثل من غير المجرمين — ستجد رأيه المُفصَّل في دراسةٍ بعنوان «دراسة حول تطوُّر السن الثالثة لدى المجرمين» — توصَّل إلى أن معظم غير المجرمين لديهم ضرسُ العقل.»

قال مانفريد على عجَل: «أُوافقك الرأي عن ضرس العقل. انظر إلى الخليج! هل رأيتَ شيئًا أروع منه؟»

كانا جالسَين على العُشب الأخضر القصير المطلِّ على شاطئ باباكومب في وقت الأصيل، وأوشك يومٌ رائع على الانتهاء. وفي أفق البحر الأزرق، ترتفع المنحدرات القرمزية وحقولُ ديفون الخضراء.

نظر مانفريد إلى ساعته.

وسأل: «هل نرتدي ملابسَ خاصة لحفل العشاء؟ أم أن لصديقك المُحترفِ أذواقًا بوهيمية؟»

قال ليون: «إنه من المدرسة الحديثة؛ يرتدي ملابسَ راقية، وهو مهندم في نفسه، يُمكن القول بأنه من الطبقة الأرستقراطية. احرِص على أن تُقابله؛ فهو بارع للغاية.»

لم يسأل مانفريد بحِكمته عن السبب.

تابع جونزاليس: «التقيتُ به في لُعبة الجولف، وحدَثَت أشياءُ مُعينة أثارت اهتمامي. على سبيل المثال، كان في كل مرة يرى دودةَ أرض يتوقَّف ليقتلها، ويُظهر غضبًا غير عادي أثناء هذا الاغتيال حتى أذهلَني. ليس للتحيُّز مكانٌ في العقل العلمي. إنه فاحش الثراء، فقد أخبرني الناس في النادي أن عمَّه ترك له تركةً تقترب من المليون، وأن تركةَ عمَّتِه أو ابنِ عمِّه الذي تُوفِّي العام الماضيَ قُدِّرَت بمليون آخر، وكان هو الوارثَ الوحيد.» وأضاف بعد توقف: «إنه صيد جيد بطبيعة الحال؛ ولكني لم تُتَح لي الفرصة لأُقدِّر ما إذا كانت الآنسة مولينو تعتقد الأمر نفسه أم لا.»

صرخ مانفريد في ذُعرٍ وهو يقفز من فوق كرسيه: «يا إلهي! إنها قادمة للعشاء أيضًا، أليس كذلك؟»

قال ليون بجدية: «وأمُّها كذلك، التي تعلمت اللغة الإسبانية عبر دروس المراسلة، وتُصِر على تحيتي بأن تسألني بالإسبانية «هل تتحدَّث اللغة الإسبانية؟»»

استأجر الرجلان بيتًا على جرف يقضيان فصل الربيع فيه؛ حيث يُحب مانفريد ديفونشاير في شهر أبريل إذ تُزهِر منحدرات التلال بأزهار الربيع والنَّرجس ذات اللون الأصفر التي تُشكِّل مسارًا ذهبيًّا عبر مروج ديفون. أخذ السيد فوينتيس المنزل بعد تفتيشه مرةً واحدة، ووجد الهدوء والسلام اللذَين لا يجلبهما إلى ذهنه النشط سوى ثراء الطبيعة بألوان الزهور وعبيرها.

ارتدى مانفريد ملابسه، وبينما هو جالس بجوار المدفأة في غرفة الاستقبال، سمع خرخرة سيارة قادمة وتقترب بحذرٍ على المنحدر، فوقف على قدمَيه ونظر عبر الشبَّاك المفتوح ذي الطراز الفرنسي.

انضم ليون جونزاليس إليه قبل أن تتوقَّف سيارة الليموزين الكبيرة أمام الشُّرفة.

أول مَن نزل منها رجل راقبه جورج عن كثب. يتصف الرجل بالطول والنَّحافة، ولم يكن سيِّئ المظهر؛ على الرغم من التجاعيد التي تكسو وجهه وعينَيه الغائرتَين وعلى مستوًى واحد. اكتفى باستقبال جونزاليس بنبرةٍ يَشوبها بعضُ التلميح بالمُحاباة.

«أرجو ألا تكون اضطُرِرتَ لانتظارنا فترةً طويلة؛ لكنَّ تَجارِبي أخَّرتني، فلم يجرِ شيء على ما يُرام في المختبر اليوم. هل تعرف ابنة السيد مولينو وزوجته؟»

قُدِّم مانفريد ووجد نفسَه يُصافح فتاةً ذات جمالٍ فريد، وعينٍ تنمُّ عن شخصية جادَّة.

يتحلى مانفريد بإحساسٍ غير عادي تجاه «معرفة المزاج العام»، ومن ثَم أحسَّ بشيء في هذه الفتاة أصابه بالكدَر للحظة. لا ريب أن ارتسام الابتسامة على وجهها من وقتٍ لآخر كان تلقائيًّا؛ ابتسامة عذبة دائمًا وصادقة بلا شك. توصَّل ليون — الذي يَحكُم على الناس بالعقل وليس بالفطرة — إلى استنتاجه بمزيدٍ من الثقة وقدَّم شكلًا ووصفًا مُحدَّدًا بأن ما جال في ذهن مانفريد مجرد انطباع مؤلم. رأى مانفريد الخوف على وجه الفتاة! وتساءل يا تُرى ممَّ تخاف؟ ليس من تلك المرأة النحيلة والشجاعة واللطيفة التي وصفتها بأمِّها، وبالتأكيد ليس من هذا الرجل الأكاديمي النحيلِ الوجه ذي النظارة المُثبَّتة على أنفه.

قدَّم جونزاليس الدكتور فيجلو؛ وبينما كانت السيدتان تخلعان المِعطفَين في غرفة مانفريد بالأعلى، سَنحَت له فسحة من الوقت لتشكيل حُكمه. ولم يَجد حاجةً إلى الترفيه عن ضيفه؛ إذ تحدَّث الدكتور فيجلو بطلاقة وعلى نحوٍ مُسلٍّ طوال الوقت.

قال مشيرًا إلى جونزاليس: «صديقنا هنا ماهرٌ في لعبة الجولف. إنه يُجيد لعبة الجولف حقًّا بالنسبة إلى كونه أجنبيًّا. هل أنتما إسبانيان؟»

أومأ مانفريد. تطغى عليه السماتُ الإنجليزية أكثر. ولعِلمك، إنه إسباني ومسلَّح أيضًا، علاوة على أنه كان يزور بريطانيا بجواز سفر إسباني.

قال ليون: «فهمت أنك تقول إن دراساتك اتخذَت منحًى مُثيرًا بعض الشيء أيها الدكتور.» فأومضَت عينا الدكتور فيجلو، وقال بِرضًا: «أجل.» ثم قال بسرعة: «من قال لك ذلك؟»

«لقد أخبرتَني بنفسك في النادي هذا الصباح.»

قطَّب الدكتور جبينه.

وقال مُمرِّرًا يده على جبهته: «هل أخبرتُك؟ لا أتذكر ذلك. متى أخبرتك بهذا؟»

قال ليون: «هذا الصباح، لكن ربما انشغل عقلك بأمور أهم.»

عضَّ الأستاذ الشابُّ شفته وعبس مُفكرًا.

ثم قال بنبرة مضطربة: «ما كان يجب أن أنسى ما حدث هذا الصباح.»

أعطى انطباعًا لمانفريد أن نصف عقله يُكافح بشدة للتغلُّب على شيءٍ ما في نصفه الآخر؛ ثم ضحك فجأةً، وقال: «تحوُّل مُثير! أجل بالفعل، وأعتقد أنه في غضون بضعة أشهر لن أظلَّ مغمورًا، حتى في بلدي! لا شكَّ أن ثمن الشهرة باهظ. جلستُ أحسب اليوم أجور موظَّفي الآلة الكاتبة لديَّ ووجدتُها وصلَت إلى ما يقرُب من ستِّين جنيهًا إسترلينيًّا في الأسبوع.»

فتح مانفريد عينَيه عند هذا.

وكرَّر ببطءٍ قائلًا: «أجور موظَّفي الآلة الكاتبة؟ هل تُعِد كتابًا؟»

قال الدكتور فيليكس: «ها هما السيدتان.»

كانت طريقته فظَّة إلى حدِّ الوقاحة؛ ولاحقًا عندما جلسوا حول المائدة في غرفة الطعام الصغيرة، أصبح لدى مانفريد سببٌ آخر للتعجُّب من فظاظة هذا العالِم الشاب. لمَّا جلس بجوار ابنة مولينو وكانت الوجبة تقترِب من نهايتها، استدار إلى الفتاة فجأةً وقال بصوتٍ مرتفع:

«إنكِ لم تُقبِّليني اليوم يا مارجريت.»

تلوَّن وجه الفتاة خجلًا، وأخذت الأصابع تتململ على مفرش الطاولة أمامها وترتجف عندما قالت مُتلعثمة:

«ألم ... ألم أفعل يا فيليكس؟»

لم تنزل عينا جونزاليس اللامعتان عن الدكتور قط. استشاط الرجل غضبًا حتى كاد أن يصرخ وهو يقول: «بالله! يا له من شيء جميل! أنت خطيبتي؛ وقد تركتُ لك كل ما أملك في وصيتي، وأُعطي أمك ألف جنيه في السنة ولا تُقبِّلينني اليوم!»

جاء صوت جونزاليس اللطيفُ والمُلحُّ في الوقت نفسِه ليكسر التوترَ قائلًا: «أيها الدكتور، إنني أتساءل عما إذا كنت ستُخبرني بالمادة الكيميائية التي تُمثلها الصيغة Cl_2O_5.»

أدار الطبيب رأسه ببطء عند سماع صوت ليون، وهو يُحدِّق به؛ وببطءٍ اختفَت النظرة الغريبة عن وجهه وتحولَت إلى أخرى طبيعية.

ثم قال بصوت معتدل: «Cl_2O_5 هو أكسيد الكلور.» ومنذ ذلك الحين، تحول الحديث من عند التفاعلات الحمضية إلى حديثٍ علمي.

كان الشخص الوحيد على الطاولة الذي لم ينزعج من هياج فيجلو هو السيدة القصيرة والبدينة المُستكينة على يمين مانفريد. ضحكت ضحكةً مكتومة بصوتٍ مسموع عند ذِكر مصروفها؛ وعندما سادت ثرثرةُ الحديث، خفضَت صوتها ومالت نحو مانفريد.

قالت: «إن عزيزي فيليكس غريبُ الأطوار للغاية، لكنه ألطفُ وأطيب شخص. يجب على المرء أن يعتنيَ ببناته، ألا تُوافقني أيها السيد؟»

طرحَت هذا السؤال الأخير بلغةٍ إسبانية سيئة للغاية، وأومأ مانفريد. ثم ألقى نظرةً على الفتاة، التي كانت لا تزال شاحبةً شحوبًا مميتًا.

«وأنا على يقينٍ تامٍّ أنها ستكون سعيدةً أكثر بكثيرٍ ممَّا لو كانت مع ذلك الشخص الذي لا يُطاق.»

لم تُحدِّد مَن هو «الشخص الذي لا يُطاق»، لكن مانفريد شعر بعالَمٍ كامل من المأساة. لم يكن رومانسيًّا، لكن نظرةً واحدة إلى الفتاة أقنعَته أن ثمة شيئًا خاطئًا في هذه الخِطبة. وفي ذلك الحين، توصَّل إلى استنتاجٍ توصَّل إليه ليون قبل ساعة، وهو أن العاطفة التي تملَّكَت الفتاة كانت الخوف، وعرَف جيدًا ممَّن تخاف.

بعد نصف الساعة عندما اختفت الأضواء الخلفية في السيارة الليموزين الخاصة بالدكتور فيجلو لمَّا انعطفت من الطريق، عاد الرَّجُلان إلى غرفة الاستقبال، وألقى مانفريد حفنةً من الأخشاب لإشعال النار.

قال جونزاليس وهو يفرك يدَيه معًا بطريقةٍ تدلُّ على بعض الاستمتاع: «حسنًا ماذا تعتقد؟»

أجاب مانفريد وهو يرتكز على كُرسيِّه: «أعتقد أنه أمر مُروِّع بعض الشيء، وأن الأيام التي كانت فيها الأمَّهات الشريرات يُجبِرن بناتِهنَّ على زيجاتٍ فاسدة قد ولَّت ومضَت؛ ونسمع اليوم كثيرًا عن الفتاة العصرية.»

قال جونزاليس بسرعةٍ وباختصار: «إن الطبيعة البشرية ليست عصرية، ومُعظم الأمهات حَمْقاوات فيما يتعلق ببناتهن. أعلم أنك لن تُوافقني في ذلك، لكني أتحدَّث عن علم؛ حيث جمَع مانتيجازا إحصائيات عن ٨٤٣ عائلة ...»

ضحك مانفريد في نفسه.

وقال: «أنت ومانتيجازا! هل كان ذلك الرجل اللعين يعرف كلَّ شيء؟»

قال ليون: «كل شيء تقريبًا.» ثم أصبح جادًّا فجأةً وقال: «أما عن الفتاة، فلن تتزوَّجَه بالطبع.»

سأل مانفريد: «ما خَطبُه؟ يبدو أن لديه مِزاجًا صعبَ المراس.»

أجاب ليون بهدوء: «إنه مجنون.» ونظر إليه مانفريد.

كرَّر ما قاله بارتياب: «مجنون؟ أتقصد أنه مختلٌّ عقليًّا؟»

قال جونزاليس وهو يُشعِل سيجارةً بحذر: «أنا لا أستخدم الكلمة أبدًا بشكل لافتٍ للنظر، أو حتى بمعناها الدارِج. الرجل مجنون بلا شك. لقد ظننتُ ذلك قبل أيامٍ قليلة وبِتُّ متأكدًا الآن. أكثر اختبارٍ يُنذر بالسوء هو اختبار الذاكرة؛ فالأشخاص الذين هم على وشك الجنون أو في مراحله الأولى لا يتذكَّرون ما حدَثَ قبل وقتٍ قصير. هل لاحظتَ كيف كان مُتوترًا عندما أخبرتُه بالمحادثة التي دارت بيننا هذا الصباح؟»

وافقه مانفريد قائلًا: «لقد أدهشني ذلك الأمر الغريب.»

قال ليون: «كان في صراعٍ بين نصف دماغه العاقلِ والنصفِ الآخر المجنون؛ الدكتور ضد الحيوان غيرِ المسئول. أخبره الدكتور أنه لو فقَد ذاكرته فجأة بسبب الحوادث التي حدثَت قبل ساعاتٍ قليلة فقط، فإنه بذلك يكون على الطريق السريع إلى الجنون. وأخبره النصفُ المجنون من دماغه أنه رجل رائع لدرجة أن القواعد التي تنطبق على البشر العاديِّين لا تنطبق عليه. سنطلُبه غدًا لرؤية مُختبَره ونكتشفُ لماذا يدفع ستِّين جنيهًا إسترلينيًّا في الأسبوع لمُوظَّفي الآلة الكاتبة. والآن يا عزيزي جورج، يُمكنك الذَّهاب إلى

الفراش. سأقرأ كتابًا للرائع والمُضلل عادةً في الوقت نفسِه لومبروسو عن الذكور الخارجين عن القانون.»

كان مختبر الدكتور فيجلو عبارةً عن مبنًى أحمرَ جديدٍ على مشارف دارتمور. وكان، تحديدًا، يتألف من مَبنيَين كان أحدهما مبيتًا كبيرًا للجنود وشُيِّد مؤخرًا لسكن طاقم العاملين لدى الدكتور.

قال مانفريد وهما في طريقهما بالسيارة عبر المُستنقَع كي يُلبُّوا الدعوة: «لم أقابل أستاذًا منذ عامَين أو ثلاثة أعوام، ولم أذهب إلى مختبر منذ خمسة أعوام. ومع ذلك، فقد التقيتُ في غضون أسابيعَ قليلة أستاذَين استثنائيَّين، أعترف أن أحدهما مُتوفًّى، كما زرتُ مُختبَرَين.»

أومأ ليون.

وقال: «يومًا ما سأُجري دراسة شاملة لظاهرة الصُّدفة.»

عندما وصلا إلى المُختبر، وجدا شاحنةَ مكتب بريد مُتوقفةً أمام المدخل الرئيسي؛ ورأوا ثلاثة مساعدين يرتدون ملابسَ عمل بيضاء يحملون حقائبَ البريد ويضعونها في الشاحنة.

قال مانفريد مُتعجبًا: «لا بدَّ أن لديه مراسلاتٍ كثيرةً للغاية.»

كان الدكتور مُرتديًا ملابس عمل بيضاء طويلة، ويقف عند الباب وهما ينزلان من سيارتهما وحيَّاهما بحرارة.

قال: «تعالَيا إلى مكتبي.» وقادهما في الطريق إلى غرفة كبيرة جيدة التهوية وخالية على نحوٍ غريب من الأدوات التي عادةً ما يَربطها جونزاليس بغُرَف العمل هذه.

قال ليون: «لديك وظيفةٌ ثقيلة.» وضحك الطبيب بهدوء.

قال: «إنهم ذاهبون فقط إلى مكتب بريد توركواي. لقد رتبت لإرسالها بسرعة عندما ...» ثم قال مترددًا: «عندما أكون متأكدًا.» ثم قال مُتحدثًا بجدِّيةٍ كبيرة: «كما ترَيان، يجب على العالِم أن يكون حذِرًا للغاية؛ فكل دقيقة تمرُّ بعد إعلانه عن اكتشافٍ ما يتعذَّب بالخوف من احتمالية نسيانِ شيء، شيء أساسي، أو أنه قد توصَّل إلى نتيجةٍ مُتسرِّعة للغاية.» ثم قال موجهًا نصفَ حديثه إلى نفسه: «لكن أعتقد أنني على صواب، أنا متأكد من أنني على حق، ولكن يجب أن أكون واثقًا أكثر من ذلك!»

أخذَهما في جولةٍ في الغرفة الكبيرة، لكن تُوجَد بضع أدوات لم يرَها مانفريد في مختبر الأستاذ الراحل تيبلمان. استقبلهما فيجلو بحفاوةٍ وتَرحاب. ولكن في غضون خمس دقائق

من وصولهما أصبح قليلَ الكلام — صامتًا تقريبًا — ولم يتطوَّع بإعطاء معلوماتٍ حول أيٍّ من الأدوات التي أبدى ليون اهتمامًا كبيرًا بها، ما لم يُسأَل عنها.

عادا إلى غرفته وتغيَّر مِزاجه مرةً أخرى، وأصبح مرِحًا أغلب الوقت.

قال: «سأُخبركما، يا إلهي، سأُخبركما! ولا يعرف أيُّ كائن هذا الأمر سواي، أو يُدرك أو يفهم العمل الاستثنائيَّ الذي كنت أقوم به.»

توهَّج وجهُه وتلألأت عيناه، وبدا لمانفريد أن طوله قد زاد من التعالي في هذه اللحظة. عندما فتح درج منضدة مُسنَدة على الحائط، أخرج طبقًا طويلًا من الخزف ووضَعه على الأرض، ثم أخذ صندوقَين معدِنيَّين من خِزانةٍ شبكية كانت على الحائط؛ وبتعبيرٍ من اشمئزازٍ لم يستطع إخفاءه، أفرَغ المحتويات على الأرض. كان على ما يبدو صُندوقًا به تُربة يكثر وجودها في الحدائق، ثم أدهشَت ليون رؤيته لشيءٍ أحمرَ صغير متلألئ يتلوَّى ويتأرجح في قلقٍ حاد؛ إذ كان الشيء الأحمر الصغير يُحاول إخفاء نفسه، والحَفرَ بالانحناء داخل التربة.

ارتفع صوت الدكتور حتى صار كالعُواء، قائلًا: «اللعنة عليكِ! اللعنة عليكِ!» استشاط وجهه غضبًا، وقال: «كم أكرهكِ!»

ما من أعين رجلٍ تحمل هذا القدر من الكراهية والرُّعب مثل عينَي الدكتور فيليكس فيجلو.

سحب مانفريد نفسًا طويلًا ورجع خطوةً تُمكِّنه من ملاحظته بشكلٍ أفضل. ثم هدأ الرجل ورمق ليون بنظرة خاطفة.

قال بصوتٍ مُرتجف: «عندما كنت طفلًا، كرهتُها وكان لدَينا مُربِّية اسمها مارثا، امرأةٌ بغيضة وشريرة، أسقطَت واحدةً على رقبتي. لك أن تتخيَّل الرُّعب!»

لم يقُل ليون شيئًا. وبالنسبة له، كانت دودة الأرض من جنس الرأسقَدَميَّات قليلات الأشواك، ولها اسمٌ آخر رنَّان بعض الشيء وهو شحمة الأرض. وبتلك الطريقة، كان ينبغي للدكتور فيجلو، عالِم الطبيعة البارز، أن يدرس هذا الكائن القصير المُفيد.

قال الدكتور بعدما هدَأ وبدأ يمسح العرق من فوق جبهته بمِنديل: «عندي نظرية، وهي أن كلَّ نوع من الكائنات الحية على الأرض يأخذ دورَه في الهيمنة على الأرض. في غضون مليون سنة قد يتضاءل حجمُ الإنسان إلى حجم نملة، وقد تُصبح دودة الأرض — بذكائها الفائق ومكرها وضراوتها — هي المُسيطرةَ على العالم! لطالَما اعتقدتُ في ذلك.»

واصل حديثه عندما لم يُعلِّق ليون أو مانفريد قائلًا: «لا أزال أُفكر في تلك الأفكار في الصباح وأحلُم بها في الليل. لقد كرَّستُ حياتي لتدمير هذا الخطر.»

دودة الأرض حاليًّا ليست ماكرةً أو ذكية، وعلاوةً على ذلك فمن المعروف أنها مجردةٌ من أي طموح.

ذهب الدكتور مرةً أخرى إلى الخِزانة، وأخرج زجاجةً واسعةَ العنق مملوءةً بمسحوقٍ رمادي. ثم أرجعها للوراء وأمسكَها على بُعد بضع بوصات من وجه ليون.

قال ببساطة: «هذا عملُ اثنتَي عشْرةَ سنة. ليس ثمة صعوبةٌ في العثور على مادةٍ تقتل هذه الآفات، لكن هذه المادة أثرُها كبير.»

أخذ مِشرطًا وأمال الزجاجةَ مُخرِجًا من حافتِها بضعَ حُبيبات من المسحوق، الذي كان يذوب في معيارِ عشرين أونصة من الماء. حرَّك السائل عديم اللون بقضيبٍ زجاجي، ثم رفع القضيبَ وترَك ثلاث قطراتٍ تسقط على التربة التي يختبئ فيها المخلوق الصغير. مرَّت بضعُ ثوانٍ، ثم ارتفعت التربة التي اختفَت فيها الضحية.

قال الطبيب بنبرة انتصارٍ كاشطًا التربة ليُثبت صحةَ كلامه: «لقد ماتت. ولم تَمُت فحسب، بل أصبحَت هذه الحفنةُ من التربة هي الموت لأيِّ ديدان أخرى تَمسُّها.»

قُرِع الجرس ودخل أحد خدمه، فقال في رجفةٍ وهو يمشي عابسًا إلى مكتبه: «أزِل ذلك.»

لم يتحدَّث ليون طوال طريق العودة إلى المنزل؛ جلس مُتكورًا على نفسِه في أحد أركان السيارة، وذراعاه مَطويَّتان قليلًا، وذقنه على صدره. في تلك الليلة، ودون أن ينبس بكلمةٍ لشرح الموقف، غادر المنزل رافضًا اقتراح مانفريد بأنه ينبغي أن يسير معه، ولم يُعطِ أي معلوماتٍ عن المكان الذي يتَّجه إليه.

سار جونزاليس بمُحاذاة طريق المنحدر عبر مُنخفض باباكومب، ووصل منزل الدكتور في الساعة التاسعة في تلك الليلة. كان للدكتور منزلٌ كبير وعددٌ كبير من الخدم، ولكن من بين غرائبه الأخرى أنِ اختار كوخَ بستانيٍّ بعيدًا عن المنزل ليكون مكانَ نومه في الليل.

لم يَختر الدكتور هذا المسكنَ المنعزل إلا منذ فترةٍ وجيزة. قضى أيامًا سعيدةً للغاية في المنزل القديم الكبير الذي ورِثه عن والده، حتى سمع أصواتًا تهمس له ليلًا وصرير الأخشاب، ورأى أشكالًا تتلاشى على طول المَمرَّات المُظلمة؛ ثم أقنعه جنونُه بأنَّ خدمَه كانوا يتآمَرون ضده، وأنه قد يُقتَل في سريره في أي ليلة. لذلك أخرج البستانيَّ من كوخه،

وأعاد تأثيث المنزل الصغير؛ وخلف الأبواب المُغلقة في ذلك الكوخ، كان يقرأ ويُفكر وينام الليالي. سمع جونزاليس بهذه الخصوصية واقترب من الكوخ ببعض الحذَر؛ لأن الرجل الخائف أخطرُ من الرجل الشرير. قرَع على الباب وسمع خطوةً عبر الأرضية المُبَلَّطة.

سأل الصوت: «مَن؟»

قال جونزاليس: «إنه أنا.» وذكر الاسم الذي كان يُعرف به.

بعد تردُّد، دار القفل وفُتِح الباب.

قال فيجلو بحدةٍ وأغلقَ الباب خلفه: «تعال، تعال. لقد جئتَ لتُهنِّئني، أنا متأكد. يجب أن تحضر حفل زفافي أيضًا يا صديقي. سيكون حفلَ زفافٍ رائعًا؛ لأنني سأُلقي خطابًا وأروي قصة اكتشافي. هل تشرب شيئًا؟ ليس لدي شيءٌ هنا، لكن يُمكنني أن أجلب شيئًا من المنزل. لديَّ هاتف في غرفة نومي.»

هزَّ ليون رأسه.

وقال وهو يَقبل السيجارة التي قدَّمها له: «لقد كنتُ في حيرةٍ من أمرك أيها الدكتور، وكنتُ أُحاول الربط بين حقائب البريد التي رأيتها تُحمَّل عند باب مختبرك والاكتشافِ الذي أفشيتَ سرَّه بعد ظهيرة هذا اليوم.»

ظهر الابتهاج في عيني الدكتور فيجلو الضيقة، وانحنى إلى الوراء على كرسيِّه ووضع ساقًا فوق الأخرى، كمَن يستعدُّ لإلقاء كلمةٍ سارة، وقال: «سأُخبرك، كنتُ أتواصل لشهورٍ مع جمعياتٍ زراعية، هنا وفي القارة؛ فلديَّ شهرةٌ في أوروبا.» ثم قال بتلك الوقاحة الغريبة التي لاحظَها ليون من قبل: «في الواقع، أعتقد أن مُبيد حشرة الفلكسرة الذي اخترعتُه له أثرٌ في إزالة الوباء من كُروم العنب في أوروبا أكثر من أي مبيدٍ آخر.»

أومأ ليون؛ إذ كان يعلم أن هذه هي الحقيقة.

«كما ترى، فإن كلامي مقبولٌ في الأمور المتعلقة بالزراعة، ولكنني وجدتُ بعد محادثة أو محادثتَين مع مُزارعينا الأغبياء أنَّ ثمة تحيزًا غيرَ عادي ضدَّ الحشرة المُدمِّرة.» — لم يذكر الاسم المخيف ولكنَّه ارتجف — «وبالطبع اضطُررتُ إلى أن أحتال عليه. والآن بعد أن أصبحت مقتنعًا بدقة تحضيري، يُمكنني تحرير الحُزَم في مكتب البريد. في الواقع، لقد كنتُ على وشك الاتصال بمدير مكتب البريد لإخباره بإمكانية نشرها — كلها مختومة ومُعنوَنة — عندما طرَقْت الباب.»

سأل ليون بثبات: «إلى مَن ستُرسل؟»

«إلى عددٍ من المزارعين — حوالي أربعةَ عشر ألفًا بالإجمال في مختلِف أنحاء البلاد وفي أوروبا — وكل حُزْمةٍ تحتوي على تعليماتٍ مطبوعة باللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية. توجَّب أن أُخبرهم بوجود نوعٍ جديد من الأسمدة، وإلا لَمَا تحمَّسوا لتأييد تجرِبتي مثلي.»

سأل ليون بهدوء: «وماذا سيفعلون بهذه الحُزَم عندما تصل إليهم؟»

أوضح قائلًا: «سيُذيبون ما فيها ويرشُّون بها منطقةً مُعينة من أرضهم — اقترحتُ أن تكون أرضًا محروثة. ولا يحتاجون سوى مُعالجةِ مساحة محدودة من الأرض. أعتقد أن هذه الوحوشَ الحقيرة ستُصاب بالعدوى بسرعة للغاية.» ثم أضاف مُنحنِيًا إلى الأمام ومُتحدثًا بطريقةٍ مثيرة: «أعتقد أنه خلال ستةِ أشهرٍ لن تبقى واحدةٌ منها على قيد الحياة في أوروبا أو آسيا.»

سأل ليون: «ألا يعرفون أن السُّمَّ مرادٌ به قتلُ ديدان الأرض؟»

قال الآخَر بنبرةٍ موجزة وحادَّة: «نعم، لقد أخبرتُك. انتظر، سأتصل بمدير مكتب البريد.»

نهض بسرعةٍ على قدمَيه؛ لكن ليون كان أسرعَ منه وأمسك بذراعه.

وقال: «صديقي العزيز، يجب ألا تفعل هذا.»

حاول الدكتور فيجلو سحب ذراعه.

وزمجر قائلًا: «دعْني أذهب. هل أنت أحد هؤلاء الشياطين الذين يُحاولون تعذيبي؟»

في الظروف العادية، كان ليون قويًّا بما يكفي لإيقاف الرجل، لكن قوة فيجلو كانت غيرَ عادية ووجد جونزاليس نفسَه مدفوعًا للخلف إلى الكرسي. وقبل أن يتمكَّن من النهوض، مرَّ الرجل من الباب وأغلقه بقوةٍ خلفه وأوصده.

يتكوَّن الكوخ من طابقٍ واحد، وينقسم إلى غرفتَين بحاجزٍ خشبي شيَّده فيجلو. فوق الباب ثَمة شرَّاعة؛ سحب ليون الطاولة إلى الأمام وقفز عليها وحطَّم بمرفقه الإطار الرقيق. ثم قال بصرامة: «لا تلمس ذلك الهاتف. هل تسمع؟»

نظر الدكتور حوله مُبتسمًا، وقال: «أنت صديقٌ لهؤلاء الشياطين!» وكانت يده على سماعة الهاتف عندما أطلق عليه ليون الرصاص وأرداه قتيلًا.

رجع مانفريد في صباح اليوم التالي من مهمَّته، ووجد جونزاليس يسير في العشب ويُدخن سيجارًا طويلًا للغاية.

قال مانفريد وهو يُسقط ذراعه في ذراعه الأخرى مُشبكًا إيَّاهما: «عزيزي ليون، إنك لم تُخبرني.»

قال ليون: «أظن أن الانتظار أفضل.»

تابع مانفريد: «سمعتُ بالأمر عن طريق الصدفة البحتة. تقول القصة إن لصًّا اقتحم الكوخ وأطلقَ النار على الدكتور عندما كان يتَّصِل هاتفيًّا طلبًا للمساعدة. وسُرِقت جميع الأواني الفِضية في الغرفة الخارجية، واختفَت ساعةُ يد الدكتور ودفتر جيبه.»

قال ليون: «إنهم في هذه اللحظة في قاع خليج باباكومب. ذهبتُ للصيد في وقتٍ مبكر هذا الصباح قبل أن تستيقظ.»

سارا على العُشب في صمتٍ لبعض الوقت.

ثم سأل مانفريد: «هل كان ضروريًّا؟»

قال ليون بجدِّية: «ضروري للغاية. عليك أن تُدرِك أولًا وقبل كل شيءٍ أنه على الرغم من أن هذا الرجل كان مجنونًا، فإنه لم يكتشف سُمًّا فقط، بل عَدْوى كذلك.»

ابتسم مانفريد قائلًا: «ولكن يا صديقي العزيز، هل كانت دودة الأرض تستحق؟»

قال ليون: «إنها تستحقُّ أكثرَ من موته؛ فلا يُوجَد عالِم في العالَم لا يُوافق على أنه إذا قُضي على دودة الأرض، فستُصبح الأرض جرداء، وسيموت الناس في هذا العالَم من الجوع خلالَ سبع سنوات.»

توقف مانفريد عن سيره وحدَّق في رفيقه، قائلًا: «أتعني ذلك حقًّا؟»

أومأ ليون.

وقال برصانة: «إنها المخلوق الوحيد الذي لا غِنى عنه في هذه الأرض. إنها تُخصِّب الأرض وتُغطي الصخور العارية بالتربة. إنها الصديق الأوثقُ للبشرية. والآن، أنا ذاهبٌ إلى مكتب البريد بقصةٍ أعتقد أنها ستكون معقولةً بحيث نستعيدُ سموم الديدان هذه.»

فكَّر مانفريد قليلًا ثم قال:

«أنا سعيدٌ من نواحٍ كثيرة.»

ثم قال مُصححًا نفسه: «من كل النواحي. لقد أحببتُ تلك الفتاة للغاية، وأنا متأكد من أن الشخص المُستحيل ليس مستحيلًا.»

الفصل الرابع

العائد من الموت

نُشِرت لأول مرة في صحيفة ذا ستاندرد، أغسطس ١٩٢١

طال فاصلُ الاستراحة بين الفصلَين الثاني والثالث على غير المعتاد، وكان الرجال الثلاثة الجالسون في مقصورة المسرح في حالة انسجامٍ ذهني، حتى إنه لم يشعر أحدٌ منهم بضرورة الحديث مع الآخر. دارت أحداثُ العرض حول جريمةٍ تقليدية، وقبل إسدال الستار على الفصل الأول، حل كلُّ واحدٍ من الثلاثة «لغز» القتل. وتوصَّلوا إلى الحلِّ نفسِه (الحل الصحيح) دون أي مجهودٍ ذهني كبير.

تناول فير — مُفوَّض الشرطة — العشاء مع جورج مانفريد وليون جونزاليس (وكان يُخاطبهما على التوالي بـ «سيد فوينتيس» و«سيد ماندريلينو»، ولم يشكَّ في أنهما إسبانيَّان في الأصل، على الرغم من لُغتهما الإنجليزية التي لا تَشوبها شائبة) وقد ذهب الجمع إلى المسرح.

عبَس السيد فير على إثر ذكرى غيرِ سارة، وسمع ضحكةً ناعمة. وبالنظر إلى أعلى، التقت عيناه بعينَي ليون الوامِضتَين.

فسأله بنصف ابتسامةٍ وتعاطُف: «علامَ تضحك؟»

أجاب الهادئ جونزاليس: «على أفكارك.»

كرَّر الآخر مذهولًا: «على أفكاري!»

أومأ ليون، وقال: «نعم، شردتَ بفِكْرك في رجال العدالة الأربعة.»

صاح فير قائلًا: «عجيب! هذا صحيح تمامًا. ما هذا، أهو تَخاطُر؟»

هزَّ جونزاليس رأسه. أما مانفريد، فقد كان يُحدِّق شاردًا في المقصورات.

قال ليون: «كلَّا، ليس تخاطرًا، بل تعبير وجهك.»

«لكني لم أذكر هؤلاء الأوغاد، كيف ...»

قال ليون، مُستمتعًا بموضوعه المُحبَّب: «يندرج تعبير الوجه — وخاصة التعبير عن المشاعر — ضمن فئة الغرائز الفطرية؛ فهو ليس «إراديًّا». على سبيل المثال، عندما يضرب لاعب بلياردو كرة، فإنه يرمي جسمَه ويلويه بعد ضربها؛ لا بدَّ أنك رأيتَ التواءات لاعبٍ أضاع تسديدتَه بفارقٍ ضئيل، أو رجلًا يُحرك فكَّه وهو يستخدِم مِقصًّا، أو مُجدِّفًا يُحرك شفتَيه مع كل ضربةٍ بالمجداف. هذا ما نُسميه «التلقائية». الحيوانات أيضًا تفعل ذلك؛ فالكلب الجائع الذي يقترب من اللحم تنتصِب أذناه في اتجاه وجبته.»

سأل المفوض مُبتسمًا: «وهل ثمة فعلٌ تلقائي مُعيَّن ناتجٌ عن التفكير في رجال العدالة الأربعة؟»

أومأ ليون.

وقال: «قد يستغرق الأمر وقتًا طويلًا لوصف ذلك، لكنني لن أخدعك. الأفكار التي تدور في ذهنك وقرأتُها أقلُّ ممَّا خمَّنتها. العبارة الأخيرة في الفصل الأخير الذي شاهدناه قالها مُمثلٌ تافه، وكانت: «العدالة! ثَمَّة عدالةٌ بعيدًا عن القانون!» ورأيتُك عابسًا. ثم نظرتَ عبر المقصورات وأومأتَ برأسك إلى مُحرِّر صحيفة ميجافون؛ وتذكرتُ أنك كتبتَ مقالًا عن رجال العدالة الأربعة في تلك الصحيفة ...»

صحَّح فير المعلومة، قائلًا: «إنها سيرة قصيرة عن فالماوث المسكين الذي مات في ذلك اليوم. أجل، أجل، فهمت. كنتَ على حقٍّ بالطبع؛ فقد كنتُ أُفكر فيهم وفي ادِّعاءاتهم بالعمل قُضاةً وجلَّادين عندما يُخفِق القانون في معاقبة المُذنِب، أو بالأحرى ينجح المُذنب في التملُّص من الإدانة.»

استدار مانفريد فجأة.

وقال بالإسبانية، التي كان الثلاثة يتحدَّثون بها بين الحين والآخر خلال السهرة: «ليون، انظر إلى الفارس الذي يرتدي قميصًا به ماسة.» ثم سأله بالإنجليزية: «ما رأيك فيه؟»

رفع ليون نظارة الأوبرا القوية، واستطلع الرجل الذي أشار إليه صديقه.

قال بعد بُرهة: «أودُّ أن أسمعه يتكلَّم. وأرى مدى رقة وجهه ومدى قوة فكَّيه — إنه بارز الفكَّين تقريبًا — لأن الانحسار واضحٌ في عظام الفك العلوية. لاحِظْه أيها السيد، وأخبرني ما إذا كنت لا تُوافق على أنَّ في عينَيه لمعانًا غير عادي؟»

أخذ مانفريد النظَّارة ونظر إلى الرجل الذي لا يشعر بهم؛ ثم قال: «إنهما مُتورِّمتان … أجل، أرى أنهما وامضتان.»

«ما الذي تراه أيضًا؟»

قال مانفريد: «أعتقد أن الشفتَين كبيرتان ومُتورِّمتان قليلًا كذلك.»

أخذ ليون النظارة والتفتَ إلى المُفوَّض، قائلًا: «لا أُراهن؛ ولكن إذا فعلت، فسأُراهن بألف بيزيتا على أنَّ هذا الرجل يتحدَّث بصوتٍ أجش.»

حوَّل فير نظره من رفيقه إلى الهدف الذي يُشاهدونه ثُم عاد مرةً أخرى للنظر إلى ليون، قال بهدوء: «أنت مُحق تمامًا. إنَّ اسمه هو بالام، وصوته خشنٌ وقاسٍ للغاية. تُرى مَن يكون؟»

أجاب جونزاليس: «شرير. يا صديقي العزيز، إن هذا الرجل شرير؛ إنه رجل سيئ. احذَر من العيون اللامعة والصوت الأجش أيها السيد! إنها تدلُّ على الشر!»

فرَك فير أنفه منفعلًا، في حركةٍ لا إرادية تُلازمه.

ثم قال: «لو كنتَ أيَّ شخصٍ آخر، لأصبحتُ بالتأكيد شديدَ الوقاحة ولقلتُ لك إنك تعرفه أو التقيتَ به. ولكن بعدما أظهرتَه في ذلك اليوم من قدراتٍ استثنائية، أدركتُ يقينًا أن علم الفِراسة به شيء من الصحة.»

أشار إلى زيارةٍ قام بها ليون جونزاليس ومانفريد إلى قسم السجلَّات في سكوتلاند يارد. فُرِشت أربعون صورةً فوتوغرافية لمجرمين على الطاولة أمام جونزاليس، ثم أحصى الجرائم التي ارتبطَت بأسمائهم بالترتيب. لم يَرتكب سوى أربعة أخطاء، وحتى هذه الأخطاء لها مُبرِّرات تُسوِّغ ارتكابها.

قال المفوض مُفكرًا: «أجل، إن جريجوري بالام رجل سيئٌ للغاية. لم يقع في أيدينا من قبل، لكن الأمر مجرد حظ. إنه حادُّ الذكاء كالشيطان، ويُؤلمني أن أراه مع فتاةٍ لطيفة مثل جيني مدجوري.»

سأل مانفريد باهتمام: «أهي الفتاة التي تجلس معه؟»

غمغم جونزاليس قائلًا: «إنها مُمثلة. رأيت يا عزيزي جورج كيف تُدير رأسها أولًا إلى اليسار ثم إلى اليمين على فترات، على الرغم من عدم وجود ما يجذب الانتباهَ في أيٍّ من الاتجاهَين، ولكنها اعتادت أن يراها الناس — هذا ليس غرورًا — إنه مجرد عرَضٍ خاصٍّ من أعراض مهنتها.»

سأل مانفريد عندما ابتسم المفوَّض: «ما الغرور المُفضَّل لديه؟» فسأله لأنه أعتقدَ أن مانفريد إسباني: «هل تعرف كاتبَنا الشهير ديكنز؟ حسنًا، سيكون من الصعب إخبارُك

بما يفعله جريجوري بالام ليتكسَّب دخله المحترم.» ثم قال بمزيد من الجدية: «أعتقد أنه على صلةٍ بأحد المُقرضين ويُدير بعض الأعمال الإضافية المربحة.»

قال مانفريد: «مثل ...»

يبدو أن السيد فير لم يكن حريصًا على إلزام نفسه بالأمر، وقال: «سأُخبرك بسرِّية تامة. إننا نعتقد — ولدينا سببٌ وجيه لهذا الاعتقاد — أنَّ لديه مكانًا لتناوُل المُخدرات يتردَّد عليه الأثرياء. هل قرأتَ الأسبوع الماضيَ عن جون بيدورث الذي أطلق النارَ على مُربية أطفالٍ في حدائق كينسينجتون ثم أطلق النار على نفسِه؟»

أومأ مانفريد.

وقال: «كان شخصًا ذا صلةٍ بذوي الشأن، أليس كذلك؟»

أجاب فير مؤكدًا: «كانت له علاقاتٌ كثيرة، لدرجة أننا لم نرغب في إدخال معارِفه في القضية على الإطلاق. تُوفِّي في اليوم التالي في المستشفى؛ وأخبرَنا الجراحون أنه كان تحتَ تأثير بعض المخدِّرات الهندية ولا يشكُّون في ذلك، وأنه في لحظاتِ وعيه القليلة أخبر الجرَّاح المسئولَ عن الحالة أنه كان في حالة تهوُّرٍ في الليلة السابقة، وانتهى به الحال فيما أسماه وكْرَ الأفيون، ولم يتذكَّر أيَّ شيءٍ حتى استيقظ في المستشفى. وتُوفِّي دون أن يعرف أنه ارتكب هذه الجريمة المُروِّعة؛ ولا شك في أنه أطلق النار على أول شخصٍ رآه وهو تحت التأثيرِ الجنوني للمخدرات.»

سأل جونزاليس باهتمام: «هل كان وكر أفيون السيد بالام؟»

ارتفع الستار في تلك اللحظة واستمرَّت المحادثة همسًا.

«لا نعرف، لكنه ذكَر اسم بالام في هذَيانه. بذلنا قُصارى جهدنا لاكتشاف ما حدث، ومن ثَم راقبناه، وزُرنا الأماكن التي مكث فيها ولو لفترةٍ من الوقت؛ ولكننا لم نجد شيئًا يُدينه.»

أصبح ليون جونزاليس في ساعةٍ يُفضلها ويتناول وجبةً يُفضِّلها، كان في أفضل حالاته؛ إنها التاسعة صباحًا وهو يتناول وجبة الإفطار. وضع صحيفته في الصباح التالي وسأل: «ما تعريف الجريمة؟»

قال مانفريد بجِدِّية: «أيها الأستاذ، سأخبرك. إنه الخروج عن القواعد المنصوص عليها والتي تُنظِّم المجتمع البشري.»

قال جونزاليس: «إنك تقليديٌّ يا عزيزي جورج، ودائمًا ما تكون تقليديًّا في الساعة التاسعة صباحًا! ولكن لو سألتُك في منتصف الليل، لأخبرتَني أنه أي فعلٍ يُسيء إلى جارك

ويُضايقه عمدًا. وإن أردتَ وضع مصطلحٍ مُحدد لهذا الفعل وما يُسمونه في هذا البلد تفسيرًا قانونيًّا، لأضفتَ عبارة «مُخالِف للقانون». مما لا شك فيه أنه في مقابل كلِّ عشَرة آلاف جريمة، لا تُكتشَف سوى جريمةٍ واحدة. لكن الناس لا يربطون الجريمةَ إلا بتلك الجرائم التي يرتكبها نوعٌ معين من الأميِّين أو أشباه الأميين المجانين أو أنصاف المجانين، الذين يُلقِّبونهم عفويًّا بالمجرمين. الآن، ها هي جريمة بشعة، جريمة مروعة. إنه رجلٌ يُدمِّر أرواح الشباب ويُحطم القلوب بلا رحمة! إنه رجلٌ يسحب الرجال والنساء من طريق صعودهم إلى عالَم الرذيلة ويحطُّ من قدرِهم في أعينهم، ويقتل الطموح وكلَّ جمالٍ للروح والذهن. وهو لا يسعى إلا إلى العيش في مستوًى مُعيَّن من الراحة، ويرتدي قميصًا نظيفًا كلَّ مساء، ويشرب النبيذ غير الضروري مع عشائه الثقيلِ الهضم بأغلى الأثمان.»

سأل مانفريد: «أين هو هذا الرجل؟»

قال ليون: «إنه يعيش في ٩٩٣ شارع جيرمين، وهو في الحقيقة أحدُ الجيران.»

«أتتحدَّث عن السيد بالام؟»

قال جونزاليس جادًّا: «إنني أتحدَّث عن السيد بالام. هذه الليلة سأُصبح فنانًا أجنبيًّا، ومعي مبلغ كبير من المال في جيبي، ولديَّ رغبة لا تُقاوَم في الاستمتاع. لا أشكُّ في أنني والسيد بالام سيتقرِب كل منَّا من الآخر عاجلًا أم آجلًا.» ثم سأل فجأة: «هل مظهري يُشبه المُحقِّقين يا جورج؟»

قال جورج: «إنك تُشبه إلى حدٍّ كبير عازفَ بيانو ماهرًا.» ثم تنَشَّق جونزاليس. وقال: «يُمكنك أيضًا أن تكون بغيضًا في الساعة التاسعة صباحًا.»

يُواجه المجرمون نوعَين من المخاطر (مع كامل الاحترام لآراء ليون جونزاليس، فكلمة المجرم هذه يَستخدمها الراوي) في سعيهم وراء الثراءِ السهل. يتمثَّل الخطر الأول في انكشاف الجريمة ومن ثَم العقاب؛ الذي ينطبق على المجرِم الكبير والصغير على حدٍّ سواء. الخطر الثاني هو فقدان مبالغَ كبيرةٍ من المال المُستثمَر بغرضِ تأمين مبالغَ أكبر. يقلُّ خطر انكشاف أمر المجرم الذي يستثمر المالَ في عمله. وهذا هو السبب في أن الفقراءَ والأغبياء فقط هم الذين يتعثَّرون في طريق العدالة، ويدخلون إلى قفص الاتهام في محكمة أولد بيلي؛ وهذا هو السبب في أن كبار المجرمين — الذين يُغضبهم مجردُ الإيحاء بأنهم من فئة المُخالفين للقانون — نادرًا ما يظهرون في المحكمة أمام القاضي، أو ربما لا يظهرون أمامه على الإطلاق.

كان السيد جريجوري بالام يُؤيِّد ويُمثل بعض أصحاب النفوذ الأغنياء الذين اشترَوا في المزاد ثلاثة منازل في شارع مونتاج ببورتلاند بليس. تقع المنازلُ الثلاثة على جزيرة؛ المبنى الأول عبارةٌ عن عدة مكاتبَ مؤجَّرة، حيث يَشغل الطابقَ الأرضيَّ محامٍ، والطابق الأول تاجرُ نبيذٍ ومشروباتٍ روحية، والطابق الثاني عبارةٌ عن جَناح بسيط للغاية مُكرَّس لساعات عمل السيد جريجوري بالام. كما استأجرَ هذا الرجلُ أيضًا القبو. وعلى أي حال، لمَّا غسل الجدران بالحجر الجيري والطِّلاء المائي، حوَّلَه إلى مكانِ تخزينٍ أنيقٍ ونظيف، هذا إن لم نعتبر أنه حوَّله إلى مكانٍ لطيف. من خلال هذا القَبو يُمكنك الوصولُ (من بين أماكنَ أخرى) إلى مرآبٍ جديد تمامًا بُني لأحد شُركاء السيد بالام، ولكن لم يكن السيد بالام مُهتمًّا به على الإطلاق.

لم يعرف أحد سوى العمَّال الذين توظَّفوا في التجديد، بإمكانية السير من منزلٍ إلى آخر؛ وذلك إما من خلال الباب في القبو، الذي كان موجودًا عند شراء المنازل، أو من خلال بابٍ جديد في مكتب السيد بالام.

يقع المنزلُ الثالث في نهاية الجزيرة، وأصبح المنزل مَقرًّا لنادي الفنانين العالميِّين، ولم تتبع الشرطة قط السيد بالام هناك؛ لأن السيد بالام لم يذهب إلى هناك من قبل، على الأقل لم يدخل من الباب الأمامي. يحتوي نادي الفنانين على «غرفة استراحة»، ظهر السيد بالام في بعض الأوقات وكأنه يخرج من قُمْقُم ساحر في تلك الغرفة ويلتقي فيها بجمعٍ صغيرٍ مختار، ويقودهم من خلال باب مرور سري وخفي إلى الدور الأرضيِّ للمنزل الأوسط. المنزل الأوسط هو الأرقى بين المنازل الثلاثة. وكانت به ستائرُ من نسيج الموصلين الأنيق على جميع نوافذه، وكان يسكنه رجلٌ نبيل مُبجَّل وزوجته.

اعتاد السيدُ الموقر الخروجَ إلى العمل كلَّ صباح في الساعة العاشرة، وكان يضع قبعته الحريرية اللامعة الأنيقة على جانب رأسه، ومِظلته ملفوفة تحت ذراعه ووردةٌ في عُروة معطفه. يعرفه رجال الشرطة من مظهره ويلمسون خوذاتهم تحيةً له عندما يرَونه. في الأيام الماضية عندما كان السيد ريموند — كما أطلق على نفسه — ذا لحية بيضاء كثيفة، وكان يُحقِّق دخلًا رائعًا من خلال كتابة رسائل الاستجداء وإجراء المُقابلات مع الإناث الساذَجات ومُرهَفي الحِس، لم يكن له هذا الاسمُ أو هذه السمعة اللذان يتمتَّع بهما في شارع مونتاج. لكنه أصبح الآن حليقَ الذقن وبمظهرٍ كمظهر أميرال متقاعد، ويحصل على أربعة جنيهات إسترلينية في الأسبوع مقابلَ خروجه من المنزل كلَّ صباح في الساعة العاشرة صباحًا بقبعته الحريرية الموضوعة بزاويةٍ مائلة، ومظلته الملفوفة، وزهرة أنيقة

صغيرة يضعها في عُروة مِعطفه. وكان يقضي معظم اليوم في غرفة مُطالعة مبنى البلدية، ويعود في الساعة الخامسة مساءً نشيطًا كالعادة.

وبعد انتهاء يوم عمله، يذهب هو وزوجته ذات الوجه القاسي إلى غرفة العلية الصغيرة، ويلعبان لعبة الكريبج؛ وكانت لغتُهما بالتأكيد مُنمقةً ولكنها لم تكن وَقورة.

في الطابق الأول، خلف الستائر المخمليَّة السوداء الثلاثية، اعتاد الرجالُ والنساء على التدخين ليلًا ونهارًا. مساحة الغرفة كبيرة؛ إذ كانت غرفتَين فيما مضى ثم حُوِّلتا إلى غرفةٍ وزُيِّنت تحت إشراف السيد بالام. في هذه الغرفة، لم يكن شيء يُدخَّن سوى الأفيون؛ فإن رغب شخصٌ في الحشيش، فعليه أن يُشبِع رغبته في شقةٍ في الطابق السُّفلي. اعتاد السيد بالام أن يأتيَ بنفسه في بعض الأحيان ليُدخِّن عُشبة الأحلام، ولكنه عادةً ما يحتفظ بهذه الزيارات لمناسباتٍ مثل استقبال عميلٍ جديد ومُربح. لم يُؤثر الغليون تأثيرًا سيئًا في السيد بالام، وكان هذا مصدرَ فخره. ولكنه يتفاخر الآن بعميلٍ جديد، وهو فنانٌ إسباني ثري التقطَه أحدُ ثعالبه، واقتاده إلى نادي الفنانين العالميين.

قال الوافد الجديد مُلوِّحًا بالانصراف لخادمٍ صيني أصفر الوجه، يُلبي احتياجات المُدخنين: «ولا لي؛ فأنا دائمًا أحمِل معي دُخاني.»

تطلَّع بالام بعنقه عندما أخرج الرجل صندوقًا فِضيًّا من جيبه وأخرج منه حبةً خضراء لَزِجة المظهر.

سأل بالام بفُضول: «ما هذا؟»

«إنه خليطٌ يُعَد خِصِّيصى لي، ويتكوَّن من القنب الهندي والأفيون وقليلٍ من التبغ التركي. إنه أخفُّ من الأفيون ونتيجته أروعُ بكثير.»

قال بالام وهو يهزُّ رأسه: «لا يُمكنك أن تُدخنها هنا. جرِّب الغليون أيها العجوز.»

لكن «العجوز» — الذي كان صغيرًا في الواقع على الرغم من شَيبِ شعره — كان عازمًا على فعله.

وقال: «لا يُهِم، يُمكنني أن أُدخن في المنزل. لقد جئتُ فقط من باب الفضول.» ثم قام لينصرف.

قال بالام بسرعة: «لا تتعجَّل. انظر هنا، لدينا قبوٌ في الطابق السفلي مُخصَّص لمدخِّني غليون القنب — المدخنون هنا بالأعلى لا يُحبُّون الرائحة — سأنزل وأُجرِّب غليونًا معك. أحضِر قهوتك.»

كان القبو فارغًا وجلس السيد بالام وضيفُه على أريكةٍ مريحة.

قال الغريب: «يُمكنك إشعالُ هذه بعود ثقاب، فلست بحاجةٍ إلى ولَّاعة كحول.»

لَمَّا كان بالام يحتسي قهوتَه، نظر بارتيابٍ إلى الغليون الذي قدَّمه جونزاليس.

قال ليون: «لديَّ سؤال أودُّ أن أطرحَه عليك. هل إدارةُ عملٍ كهذا تجعلك لا تنامُ الليالي؟»

قال السيد بالام وهو يُشعِل غليونه ببطء وينفُث الدخان، والبهجة باديةٌ عليه: «لا تكن سخيفًا. تَعاطي هذه الأدخنةِ ليس سيئًا على الإطلاق. أيجعلني مستيقظًا في الليل؟ لم؟»

أجاب ليون: «حسنًا، كثيرٌ من الناس يتصرَّفون بغرابة هنا، أليس كذلك؟ أعني أن تعاطيَ هذه الأدخنة يُدمر الناس.»

قال السيد بالام بارتياح: «يدلُّ مظهرهم الخارجي على أنهم يمرُّون بلحظاتٍ غامرة من المرح. لا نعيش الحياةَ سِوى مرةٍ واحدة، ولا أن نموت مرة واحدة.»

قال ليون بجدِّية: «بعض الناس يموتون مرَّتَين. بعض الذين يقعون تحت تأثير مخدِّرٍ ضارٍّ لا يعُون ما يفعلون، ويستيقظون ليجدوا أنفسهم قتَلة. ثَمَّة مخدِّرات في الشرق يُسميها السكانُ الأصليون «البال»، إنه يُحوِّل المرء إلى مجنون هائج.»

قال بالام بعد نفادِ صبره: «حسنًا، هذا لا يعنيني. يجب أن نُسرع في التدخين، ستأتي سيدة لرؤيتي.» ثم قال ضاحكًا: «يجب أن أَفِيَ بموعدي أيها الرجل العجوز.»

قال ليون: «على العكس، فإن إدخال هذا المُخدِّر في الغليون يُثير اهتمامك كثيرًا؛ وعلى الرغم من موعد الآنسة ماجوري ...»

أجفل الآخَر.

وقال غاضبًا: «عمَّ تتحدَّث؟»

«على الرغم من هذا الموعد، يجب أن أنقل إليك الأخبارَ بأن المُخدِّر الذي يُحوِّل الرجال إلى وحوش فاقِدي الوعي هو أقوى من أي مخدرٍ آخرَ تُقدِّمه في هذا الوكر.»

غمغمَ بالام قائلًا: «ما علاقتي بما تقول؟»

قال ليون بهدوء: «إنه يَعنيك كثيرًا؛ لأنك في هذه اللحظة تُدخن جرعةً مُضاعَفة!»

استشاط بالام غضبًا وقفز على قدمَيه؛ ولكنه لا يتذكَّر ما حدث بعد ذلك. لم يشعر إلا بشيء قد انقسم في رأسه، وسطع وميض ضوء أمام عينَيه، ثم مرَّت أحداثُ قرنٍ كامل من الزمان في رأسه، مرت مائة عام من الزمان ولم تنفكَّ الأضواء من الوميض، والضوضاء من الدَّوي، والأصواتُ من الهمس، والحركة من الاضطراب المتواصل داخل عقله. بات

يعرف أحيانًا أنه يتحدَّث ويُنصت لسماع ما سيقوله هو نفسُه؛ وفي أحيان أخرى، يرى الناسَ يتحدَّثون إليه ويسخرون منه، ويُصبح واعيًا بأن شخصًا ما يُطارده.

لم يستطع حسابَ الوقت الذي استمرَّ فيه على هذه الحال. ولمَّا كان عقلُه شبهَ مُغيَّب، حاول أن يَحسب الوقت، لكنه وجد أنه ليس لديه معيارٌ للحساب. شعر أنه فتح عينَيه بعد سنواتٍ وهو يئن، ووضع يدَه على رأسه الذي يُؤلِمه. بات مُستلقيًا على السرير، وجد نفسه على سريرٍ صُلب ووسادة أكثرَ صلابة. حدَّق في السقف المَطليِّ بالكلس الأبيض، ونظر حوله إلى الجدران المنبسِطة المطليَّة بالطِّلاء المائي. ثم نظر من على جانب السرير ورأى أنَّ الأرضية من الخرسانة. وجد مِصباحَين مُضيئَين، أحدهما فوق طاولةٍ والآخر في أحد أركان الغرفة، ورأى رجلًا جالسًا ويقرأ إحدى الصحف. كان رجلًا ذا مظهر غريب؛ نظر بالام إليه بطَرْف عينه.

قال بصوتٍ عالٍ: «أنا أحلم.» نظر الرجل لأعلى.

وقال: «مرحبًا! هل تريد النهوض؟»

لم يردَّ بالام، وظلَّ يُحدق فاتحًا فمَه. كان الرجل يرتدي زيًّا نظاميًّا أسودَ مجسمًا عليه. وكان يرتدي قبعة على رأسه وشارة وحزامًا أسودَ لامعًا حول خصره؛ ثم قرأ بالام الأحرفَ المكتوبة على حزام كتف السترة.

قال وهو في حالة غيابٍ عن الوعي: «إيه دبليو إيه دبليو.»

إلامَ يرمز الحرفان «إيه دبليو» ثم ومضَت حقيقةُ هذَين الحرفَين في عقله.

إنها في الإنجليزية حارسٌ مُساعد! جال ببصره في الغرفة، تُوجَد نافذة واحدة محجوبة بعددٍ كبير من أسياخ الحديد ومُغطَّاة بزجاجٍ سميك. وعلى الحائط. لُصِقَت ورقة مطبوعة، فنهض من فِراشه وقرأها وهو لا يزال فاغرًا فاه:

«لوائح السجون الملكية.»

نظر إلى جزئه السُّفلي. مِن الواضح أنه ذهب إلى الفِراش مُرتديًا بنطالَه وجوربه، وكان بنطاله من خامةٍ صفراءَ خشنة وموسومًا بأسهُمٍ سوداءَ باهتة. لقد كان في السجن! منذ متى وهو مسجون؟

الحارسُ بفظاظة: «هل ستُحسِن التصرُّف اليوم؟ لا نُريد المزيد من تلك التصرُّفات التي أريتَنا إيَّاها بالأمس!»

قال بالام بصوتٍ كالنَّعيق: «منذ متى وأنا هنا؟»

«أنت تعرف كم من الوقت قضيتَ هنا. أتممتَ بالأمس ثلاثة أسابيع.»

قال بالام لاهثًا: «ثلاثة أسابيع! بأيِّ تُهمة؟»

قال الحارس بأسلوبٍ ليس فظًّا: «لا تلعب هذه اللعبة معي يا بالام. أنت تعلم أنه ليس مسموحًا لي بالحديث معك. عُد ونَم. أحيانًا، أعتقد أنك مجنونٌ كما تدَّعي.»

سأل بالام: «هل كنتُ ... سيئًا؟»

رفع الحارس رأسه، وقال: «سيئًا؟ لم أكن معك في المحكمة، لكنهم يقولون إنك تصرَّفتَ في قفص الاتهام كالمجنون، وعندما أصدر القاضي حكمًا بالإعدام ...»

صرخ بالام وارتدَّ إلى سريره بوجهٍ شاحبٍ ومُرتعد، وقال: «يا إلهي! حكمٌ بالإعدام!» ثم واصل بكلمات مُتثاقلة على لسانه: «ماذا فعلت؟»

قال الحارس: «لقد قتلتَ سيدة شابة، وتعرِف ذلك. أنا متفاجئ منك؛ تُحاول خداعي بعدما كنتُ صديقًا طيبًا لك يا بالام. لماذا لا تستجمع قوَّتك وتستقبل عقابَك كالرجال؟»

يُوجَد تقويمٌ موضوع فوق المكان الذي يجلس فيه السجَّان.

قرأ بالام وكاد أن يصرخ مرةً أخرى لأنه قابلَ ذلك الغريبَ الغامض في الأول مِن شهر مارس: «الثاني عشر من أبريل.» وتذكَّر كل شيء الآن. البال! المُخدِّر الذي يدفع المرء للجنون.

قفز على قدمَيه.

وقال: «أُريد أن أرى المأمور! أريد أن أُخبره بالحقيقة! لقد كنتُ مُخدَّرًا!»

قال الحارس باستعفاء: «حسنًا، لقد أخبرتَنا بكل هذه القصة من قبل. عندما قتلتَ الشابة ...»

صرخ بالام: «أي شابة؟ ليست ماجوري! لا تقل لي إنني ...»

قال الحارس: «أنت تعلم جيدًا أنك قتلتَها. ما فائدة كل هذه الجلَبة؟ الآن عُد إلى السرير يا بالام. لن تجني شيئًا من إثارة كل هذه الضجة في تلك الليلة بالذات.»

«أريد أن أرى المأمور! هل أستطيع أن أكتب له؟»

«يمكنك أن تكتب له إن أردت.» وأشار الحارس إلى الطاولة.

ترنَّح بالام إلى الطاولة وجلس مرتعشًا على كرسي. وجد نصف دستة من أوراق الملاحظات الزرقاء لها ترويسةٌ باللون الأسود: «السجن الملكي، واندسوورث، إس دبليو ١.»

كان في سجن واندسوورث! نظر حوله في الزنزانة. لم تكن تُشبه الزنزانة ولكنها كانت كذلك. الزنزانة فارغة فراغًا مروِّعًا ويبدو البابُ ثقيلًا. لم يدخل زنزانة من قبل، وبالطبع وجد الأمر مُختلفًا عمَّا كان يتوقعه.

انتابَته فكرة، فقال بصوتٍ مختنق: «متى ... متى سأُعاقَب؟»

«غدًا!»

وقعت الكلمة عليه وقْع حُكم الإعدام؛ فسقط الرجل إلى الأمام ورأسُه فوق ذراعَيه، وبكى بكاءً هستيريًّا. وفجأة، بدأ يكتب بعجَلةٍ محمومة، وقد احمرَّ وجهه من البكاء.

اختطَّ رسالةً غير مترابطة العبارات؛ تحدَّث فيها عن رجل أتى إلى الملهى وأعطاه مخدرًا، ثم قضى وقتًا سرمديًّا في ظلامٍ دامس يرى فيه أضواءً وأناسًا يُلاحقونه وأصواتًا تهمس في أذنه. ولم يكن مُذنبًا. وقد أحبَّ جيني ماجوري. ولم يكن ليُؤذيَ شعرةً من رأسها.

توقف هنا ينوح مرةً أخرى. هل يرى حُلمًا؟ أم لا يزال تحتَ تأثير هذا المخدر؟ ضرب بقبضة يده على الحائط، وأصابته الصدمةُ بالفزع.

قال الحارس بصرامة: «لا فائدة مما تفعله. عُد إلى السرير.»

نظر بالام إلى أصابعه النازفة. لقد كانت حقيقة! لم يكن حلمًا! لقد كانت حقيقة! حقيقة!

استلقى على السرير وفقد وعيه مرةً أخرى؛ وعندما أفاق وجد الحارس جالسًا في مكانه يقرأ. بدا وكأنه أخذ غَفوةً مرة أخرى لمدة ساعة، على الرغم من أنه لم يَغفُ أكثرَ من بضع دقائق في الحقيقة؛ وفي كل مرة يستيقظ يقول شيئًا ما بداخله: «هذا الصباح تموت!»

بمجرَّد أن قفز صارخًا من السرير، واستلزم الأمرُ إلقاءه على السرير مرةً أخرى.

قال الحارس بوحشية: «إذا سبَّبت لي مزيدًا من المتاعب، فسأُدخل ضابطًا آخر وسنُقيِّدك. لماذا لا تتقبل الأمر كالرجال؟ إنه ليس أسوأَ عليك ممَّا كان عليها.»

بعد ذلك، استلقى ساكنًا وغطَّ في نومٍ يبدو أنه أطولُ فترة نوم حتى لمسه الحارس. وعندما استيقظ وجد ثيابه موضوعةً مُرتَّبة بجانب السرير على كرسي، وارتدى ملابسَه على عجل.

نظر حوله بحثًا عن شيءٍ ما.

ثم قال وهو يرتجف: «أين الطوق؟»

قال الحارس بصوتٍ به نوعٌ مُعين من الفكاهة التهكمية: «لست بحاجةٍ إلى طوق.»

ثم قال بخشونة: «تماسَك. لقد مرَّ أشخاص آخرون بهذا. حسبما سمعت، فقد كنتَ تُدير وكرًا للأفيون. زارنا عددٌ كبير من عملائك. كان عليهم المُضيُّ قدُمًا في الأمر، ويجب عليك ذلك أيضًا.»

انتظرَ جالسًا على حافَةِ السرير ووجهُه في يدَيه ثم انفتح الباب ودخل رجلٌ نحيف ذو لحية حمراء وخَصلة من الشعر الأحمر.

أدار الحارسُ السجينَ للجهة الأخرى قائلًا: «ضع يدَيك خلفك.» ومن ثَم تعرَّق بالام عندما شعر بالرِّباط يُمسك بمعصمَيه.

انطفأ الضوءُ حينذاك. وضع غطاء على وجهه، واعتقد أنه سمع أصواتًا خلفَه. لم يكن مُستعدًّا للموت، وهو يعلم ذلك. دائمًا ما يحضر قَسٌّ في مثل هذه القضايا. أمسك أحدُهم بذراعه من كِلا الجانبَين وسار ببطءٍ إلى الأمام من الباب وعَبَر ساحةً ثم عبر بابًا آخر. مشى طريقًا طويلًا؛ وقد انثنَت رُكبتاه للحظةٍ ولكنه وقف مُنتصِبًا. ثم توقَّفوا الآن، وقال صوتٌ: «قِف حيثما أنت.» ووجد حبلَ مشنقة ينزلق حول عنقه؛ وانتظر، وانتظر في عذاب، مرَّت الدقائق وكأنها ساعات. لم يهتمَّ بالوقت ولم يتمكَّن من حسابه. ثم سمع خطوةً ثقيلة وأمسكه شخصٌ من ذراعه.

قال الصوت: «ماذا تفعل هنا أيها المأمور؟»

سُحِب الغِطاء من فوق رأسه، ووجد نفسَه في الشارع. كان الوقت ليلًا وتبيَّن أنه يقف تحت ضوء مصباحٍ من مصابيح الشارع. وكان الرجل الذي ينظر إليه بفضولٍ شُرَطيًّا، وقال وهو يفكُّ الطوق: «وُضِع حبل حول عنقك أيضًا، وقَيَّد شخصٌ يدَيك. ما هذا؟ اختطاف؟ أم مزحة؟ أنا متفاجئ منك، رجل عجوز مثلُك بشعر أبيض!»

لم يشتعل الشيبُ في رأس جريجوري بالام إلا قبل أقلَّ من سبع ساعات عندما وضع ليون جونزاليس المُخدِّر في قهوته، ونقله عبر مخرج القبو إلى الفناء الكبير خلف النادي.

كان هناك مِرآب جديد ولطيفٌ اكتشفه ليون عندما تفقَّد المكان، وتُرِكوا في هذا المكان — لا يُقاطعهم أحد — كي يلعبوا مسرحيتَهم الكوميدية عن زنزانة المحكوم عليه بالإضافة إلى أوراق السجن الزرقاء التي وضَعوها هناك لِحَبكِ اللُّعبة ونسخة من لوائح السجن، التي تبرع بها مفوَّض الشرطة السيد فير عن غير قصد.

الفصل الخامس

مبغض أميليا جونز

نُشِرت لأول مرة في صحيفة ذا ستاندرد، سبتمبر ١٩٢١

وصلت رسالة إلى ليون جونزاليس، رُسِمَت صورةُ ألفونس الثالث عشر على طابَع البريد وكُتِب عليه اسمه. أُرسِلت الرسالة من رجل ذهنه صافٍ كتبَها في ساعة القيلولة؛ أي الوقت الذي يَقيلُ فيه أهل قرطبة. كتب الرسالة مُسترسلًا الأفكارَ التي أتت إلى رأسه وهو جالسٌ في تعريشةِ برتقال تُطلُّ على نهر الوادي الكبير العريق، الذي يَفيض الآن باللون الأصفر.

ليون: «إنها من بويكارت.»

ردَّ جورج مانفريد، وهو يَغفو على كرسيٍّ كبير أمام المدفأة: «حقًّا؟»

الغرفة يُضيئها مصباحُ القراءة الضاربُ إلى اللون الأخضر، إذ كان يُوفر الإضاءةَ لشقتِهما المريحة في شارع جيرمين في تلك اللحظة.

قال جورج مُتمددًا: «وماذا يقول صديقُنا الرائع بويكارت؟»

قال ليون بجِدية: «أصابت آفةٌ محصولَ البصل لديه.» حاول مانفريد إخفاء ضحكه ثم أصبح متزنًا فجأة.

في وقتٍ من الأوقات، كان اسمُ هؤلاء الثلاثة — ومعهم صديقهم الذي يرقد الآن في مقبرة بوردو — يُثير الرعبَ في قلوب الأشرار. في تلك الأيام، بات رجالُ العدالة الأربعة يَقُضُّون مضاجع العديد من الماكرين الذين أفلَتوا من يدِ القانون، ولكنهم لم يستطيعوا الهربَ من هذا التنظيم الواسع الانتشار، الذي كان يقتل بلا رحمةٍ باسم العدالة.

كان بويكارت يزرع البصل! تنهَّد وكرَّر الكلمات بصوتٍ عالٍ.

سأل ليون: «ولِمَ لا؟ هل قرأتَ عن الفرسان الثلاثة؟»

قال مانفريد، مُبتسمًا للنيران: «بالتأكيد.»

سأل ليون: «هل لي أن أسأل في أي كتاب؟»

ردَّ مانفريد متفاجئًا: «عجبًا، في رواية الفرسان الثلاثة بالطبع.»

قال ليون جونزاليس على الفور: «إذن قد أخطأت؛ فلكي تُحِب الفرسان الثلاثة، يجب أن تقرأ عنهم في رواية القناع الحديدي. في تلك الرواية، ترى أحدهم يكسب وزنًا ولا يهتمُّ إلا بأناقته، والآخر مجرَّد أحد رجال حاشية ملك فرنسا، والثالث عجوزٌ ويَفيض حزنًا على ابنه المُتيَّم به. حينذاك، يُصبحون بشرًا يا عزيزي مانفريد، تمامًا كما يُصبح بويكارت بشرًا عندما يزرع البصل. هل أقرأ لك أجزاءً صغيرة؟»

قال مانفريد على استحياءٍ شديد: «أرجو ذلك.»

قرأ جونزاليس: «همم، أخبرتُك عن البصل يا جورج. زُرِعت بعضُ الورود اليانعة. مانفريد سيُحبها ... لا تهتم كثيرًا بفحص الدم الجديد الذي يُصرح الطبيب الأمريكي أنه يستطيع به اكتشافَ درجات القرابة ... الخنازير الصغيرة الجديدة في حالٍ جيدة للغاية. وثَمَّة واحدٌ منها شديدُ الذكاء، ويَنزع إلى التفكير. أطلقت عليه اسم جورج.»

انطوى جورج مانفريد في كرسيه بجوار النار وضحك.

استكمل ليون القراءة: «قيل لي إن هذه السنة ستُوفر فيها النبيذ بكميات كبيرة، لكن البرتقال ليس وفيرًا كالعام الماضي ... هل تعلم أن بصمات أصابع التوأم متطابقة؟ من الغريب أن بصمات توأم القرد الشبيه بالإنسان مختلفة. أتمنى أن تحصل على معلوماتٍ حول هذا الموضوع ...»

تابع القراءةَ في قُصاصاتٍ صغيرة من الأخبار المحلية، وجولات عابرة في القضايا العِلمية الجانبية، وقُصاصات شديدة الصغر من القيل والقال، ملأَت عشر صفحاتٍ مكتوبة بإحكام.

طوى ليون الرسالةَ ووضعها في جيبه، قائلًا: «بالطبع هو ليس مُحِقًّا في أن بصمات أصابع التوأم متطابقة؛ فهذا أحدُ أوهام المذهل لومبروسو. على أي حال، فإن نظام بصمات الأصابع لا يكفي.»

قال جورج متفاجئًا: «لم أسمع قطُّ أنه موضعُ شك، لماذا هو غير كافٍ؟»

لفَّ ليون سيجارة بأصابعَ رشيقة، ولعق الورقة، وأشعَل طرَفَها الخشن قبل أن يردَّ:

«في سكوتلاند يارد، لنقُل إن لديهم مائةَ ألف بصمة. وعدد السكان في بريطانيا خمسون مليون نسمة. مائة ألف تُساوي بالضبط خمسة على ألفٍ من خمسين مليونًا. لنفترض أنك ضابطُ شرطة واستُدعيتَ إلى ألبرت هول، حيث جُمِع خَمسمائة شخص وقيل لك إن أحدهم بحَوزته مُمتلكات مسروقة وحصلتَ على إذنٍ بتفتيشهم، فهل ستكتفي بتفتيشِ واحدٍ فقط وتُطلق سراح البقية؟»

قال مانفريد: «بالطبع لا، ولكنني لا أعرف ماذا تعني.»

«أعني أنه حتى يُقِر جميعُ من في هذا البلد وفي أوروبا نظامًا يُسجل بموجبه كلُّ مواطن بصماتِ أصابعه وحتى تُتاح لجميع البلدان فرصةُ تَبادل تلك البصمات ومقارنتها بالبصمات التي لديها، فمن السُّخف القولُ إنه لا تُوجَد بصمتان متماثلتان.»

قال مانفريد همسًا: «إن ذلك يحسم أمرَ نظامِ بصمات الأصابع.»

قال ليون شاعرًا بالرِّضا عن نفسه: «النظامُ كافٍ من حيث المنطق، لكن الواقع يقول غير ذلك.»

ساد صمتٌ طويل بعد هذا، ثم وجد مانفريد خِزانةً بجانب المدفأة وأنزل منها كتابًا.

في الوقت الحاليِّ، سُمع صرير كرسي لَمَّا قام جونزاليس، كما سمِع «صوتًا» منخفضًا لبابٍ يُغلَق. نظر مانفريد إلى الساعة وعلم أنها الثامنة والنصف.

عاد ليون بعدَ خمس دقائق، بعد أن غيَّر ملابسه. وكما قال مانفريد ذاتَ مرة، كان يتنكَّر باحترافية. لم يكن تنكرًا بالمعنى الشائع للكلمة؛ لأنه لم يمَسَّ وجهه بأي شكل من الأشكال، أو يُغير لون شعره.

بفضل براعتِه الفنية، أبدعَ في الظهور بالمظهر الذي يُريده؛ وهو مظهرُ رجلٍ يعيش في فقرٍ مدقِع. ارتدى ثوبًا ياقتُه نظيفة لكنها رثَّة، وحذاءً ملمعًا وجميلًا لكنه قديمٌ ومُرقَّع. ولم يترك خشونة الكعبَين تتآكل، بل ثبَّت كعبَين دائريَّين من المطاط بحجمٍ أكبرَ من أجل تغطية قاعدتَيهما.

قال مانفريد: «إنك موظَّف عجوز تُكافح الفقر، وتسعى جاهدًا حتى النهايةِ كي تبدوَ في طبقةٍ مرموقة.»

هز جونزاليس رأسه.

وقال: «أنا مُحامٍ شُطِب من جدول المحامين ودُمِّرَت مسيرته المهنية منذ عشرين سنة لأنني ساعدتُ رجلًا على الهروب من أيدي القانون. إنه دور يبعث على التعاطف كثيرًا يا جورج. علاوةً على ذلك، فإنه يجلب الناس إليَّ للحصول على المشورة. في إحدى هذه الليالي، لا بدَّ أن تأتيَ إلى الحانة العامة كاو آند كومباسيس، وتسمعني وأنا أتحدَّث عن قانون ممتلَكات المرأة المتزوِّجة.»

قال جورج: «لم أسأَلْك قطُّ عن عملك السابق. صيدٌ جيد يا ليون، وخالص تحياتي لأميليا جونز!»

كان جونزاليس يعَضُّ على شفَتيه مُفكرًا وينظر إلى النار، ثم أومأ برأسه.

وقال بصوتٍ منخفض: «هل تقصد المسكينة أميليا جونز؟»

ابتسم مانفريد قائلًا: «يا لك من رجلٍ رائع لو تمكَّنتَ من محاصرة خادمةٍ في منتصف العمر بسحر الرومانسية.»

كان ليون يعتمد على نفسه في ارتداء معطفٍ رث.

وقال: «قديمًا، كان هناك شاعرٌ إنجليزي في منصب البابا. على ما أعتقد، قال إن الشخص الرومانسي هو الذي يُحب شيئًا رائعًا أو يفعل شيئًا رائعًا. وأنا أعتقد أن أميليا جونز ينطبق عليها الأمران.»

كاو آند كومباسيس حانةٌ صغيرة في طريق تريت بديبتفورد. كان الطريق العامُّ المظلم خاليًا تقريبًا، فقد كانت ليلةً مُلبَّدة بالغيوم وباردةً عندما توجَّه ليون إلى الحانة. ربما كان الطقسُ غيرُ المشجع مسئولًا عن نُدرة العملاء في ذلك المساء؛ لأنه لم يكن هناك سِوى ستة أشخاص على الأرضية الرملية عندما شقَّ طريقه إلى البار وطلبَ خمرة الكلاريت مع الصودا.

ظلَّت امرأةٌ تُراقبه من فوق المقعد الخشبي الطويل الذي كانت تجلس عليه، ثم سكنَت مرة أخرى عندما سار نحوَها وهو يحمل كأسًا في يده.

حيَّاها قائلًا: «مرحبًا يا سيدة جونز، كيف حالكِ هذا المساء؟»

كانت امرأةً بَدينة ذاتَ وجهٍ أبيضَ مُرهَق ويدَين ترتجفان ارتجافًا متقطعًا.

قالت: «أنا سعيدة بقدومك يا سيدي.»

كانت تحمل كأسًا صغيرة من نبيذ البورت في يدها، لكنها لم تكن رشفَت منها شيئًا. إنها ليلة يئست فيها هذه المرأةُ بسبب مرورها بحالةٍ من الرُّعب والخوف، هرَبَت من منزلها الوحيد إلى ضوء وراحة الحانة حيث قابلها ليون. كان في ذلك الوقت يُلاحِق

بأكبرِ قدرٍ من الحذَر رجلًا له جمجمة كبيرة وعريض المنكبين، وهو أحد عتَّالي حديقة كوفنت. سبق أن تعقَّب المالك إلى منزلِه ومكان استجمامِه، وبدأ في العمل على تحقيق هدفه، وهو معرفة تاريخ هذه الشجرة المُثمِرة وقياساتها التي لا يُمكن تصوُّرها، ولكن الخادمة البدينة انجرفَت في طريقه. من الواضح أنَّها كانت تُفكِّر في شيءٍ ما ذا أهمية غير عادية حتى الليل؛ لأنها كانت قد بدأت ثلاثَ بدايات واهية قبل أن تغوص في الأمر الذي يُقلقها.

«السيد لوكاس (هذا هو الاسم الذي عُرِف به جونزاليس لدى مُرتادي «كاو آند كومباسيس»)، أريد أن أطلب منك خدمةً كبيرة. لقد كنتَ لطيفًا جدًّا معي، فأعطيتَني نصيحة بشأن زوجي وغير ذلك. ولكن هذه خدمةٌ كبيرة كما أنك رجلٌ مشغول للغاية.»

نظرَت إليه بتضرُّع وكادت تتذلَّل.

قال جونزاليس: «لديَّ مُتسَع من الوقت الآن.»

فسألَته: «هل ستأتي معي إلى الريف غدًا؟ أريدك أن ... أن ... أن ترى شخصًا ما.»

قال جونزاليس: «بالتأكيد يا سيدة جونز.»

تابعَت بحماس: «هل ستكونُ في محطة بادينجتون في الساعة التاسعة صباحًا؟ سأدفع أجرتك. بالطبع ينبغي ألا أتركَك تدفع أي نفقات، لقد ادَّخرتُ بعض المال جانبًا.»

قال ليون: «فيما يتعلَّق بالأموال، فقد جنيتُ القليل من المال بنفسي اليوم، لذا لا تقلقي بشأن الأجرة. هل وصلك أيُّ خبرٍ من زوجك؟»

هزَّت رأسها قائلةً: «لم يَصِلني خبرٌ منه، بل من رجلٍ آخر خرج لتوِّه من السجن.»

ارتجفَت شفتاها والدموع في عينَيها.

وقالت بنبرةٍ مثيرة للاهتمام: «سيفعل ذلك. أنا أعلم أنه سيفعل ذلك، ولكنني لستُ مَن يُفكر في نفسها.»

فتح ليون عينَيه.

وكرَّر قولها: «لستِ من يُفكر في نفسه؟»

شكَّ في وجود عاملٍ ثالث، ولكنه لم يستطع قطُّ وضعه في خُطة هذه المرأة العادية.

قالت بائسةً: «لا يا سيدي، ليس أنا. أنت تعلم أنه يَكرهني وأنت تعلم أنه سيُؤذيني في اللحظة التي يخرج فيها، لكني لم أُخبرك عن السبب.»

سأل ليون: «أين هو الآن؟»

«سجن ديفايسز، انتقل إليه لأنه أوشك على قضاء مدة عقوبته، وسيَخرج بعد شهرَين.»

«ثم سيأتي إليك مباشرة، أتعتقدين ذلك؟»

هزَّت رأسها.

وقالت بمَرارة: «ليس هو؛ فهذه ليست طريقتَه. أنت لا تعرفه يا سيد لوكاس. لكن لا أحد يَعرفه مثلي. إذا أتى مباشرةً إليَّ فسيكون ذلك جيدًا، لكنه ليس مِن هذا النوع. أقول لك إنه سيَقتلني، ولا يُهمني متى سيأتي ذلك. إنه لم يُدْعَ باش جونز من فراغ. سأتلقَّى الأمر راضية!» وأومأت وهي مُتجهِّمة الوجه، ثم استكملَت قائلةً: «سوف يَدخل ببساطة إلى الغرفة ويضربني بعنف دون أن ينبس ببنت شفة، وستكون تلك نهاية أميليا جونز.» وكرَّرَت قائلةً: «لكنني لا أُمانع، لا أمانع. إنه الرجل الثاني الذي يُحطم قلبي ولم تتركني المصاعب طوال الوقت.»

علم أنه لا جدوى من محاولةِ إقناعها بإخباره بمشكلاتها؛ ولما أغلقَت الحانة، غادراها معًا.

قالت: «أودُّ أن أطلب منك اصطحابي إلى المنزل، ولكن قد يَزيد الأمر سوءًا، ولا أريد أن أتسبَّب لك في أي نوع من المشكلات يا سيد لوكاس.»

مد يدَه، وكانت هذه هي المرةَ الأولى التي يفعل فيها ذلك، وأخذتها في راحةِ يدها اللينة الكبيرة وأحسَّ بضعفها لَمَّا صافحها.

اعتقد جونزاليس أن قلةً قليلة من الناس قد صافَحوا أميليا جونز؛ وعاد إلى الشقة في شارع جيرمين ليجدَ مانفريد نائمًا أمام المدفأة.

كان ينتظر في محطة بادينجتون في صباح اليوم التالي مُرتديًا بذلة رثة بدرجةٍ أقل؛ وقد أدهَشه أن السيدة جونز أتَت بملابس ذاتِ ذوقٍ أفضلَ مما كان يتخيَّل. ارتدَت ملابسَ بسيطة لكنها تُخفي بكفاءةٍ الطبقةَ التي تنتمي إليها. أخذت التذكرتَين إلى سويندون ودارت محادثةٌ قصيرة بينهما في الرحلة. من الواضح أنها لم تكن تنوي أن تُزيح العبء من على كاهلها حتى الآن.

توقف القطار في نيوبيري لَمَّا تحوَّل خطُّ قطارٍ بطيء كي يسمح بمرور قطارٍ خاصٍّ بطلَّاب مدرسة. كان مزدحمًا بالفتية والفتيات الذين يلوِّحون بتحيةٍ مُبهجة ومختلطة أثناء مرورهم.

أومأ ليون، وقال: «بالطبع! إنها بداية عيد الفصح. لقد نسيت.»

نزلوا في سويندون ثم ذكَرَت المرأة لأول مرة بعضَ التفسيرات عن الغرض من رحلتهما.

قالت بتوتُّر: «يجب أن نبقى على هذا الرصيف. أتوقع رؤية شخصٍ ما، وأودُّ أن تراه يا سيد لوكاس.»

حينذاك، جاء قطارٌ خاص آخرُ مُسرعًا إلى المحطة، وكان غالبية ركاب هذا القطار من الأطفال أيضًا. نزل العديد منهم عند التقاطع، لتغيير وجهتهم على ما يبدو إلى وجهةٍ أخرى غير لندن؛ وظلَّ ليون يتحدَّث إلى المرأة وهو يعلم أنها لا تستمع له، ورأى وجهَها مضيئًا وقتَئذٍ. تركته بعد تنهيدة بسيطة وسارت بسرعة على طول الرصيف لتحيةِ فتاة طويلة وجميلة، ترتدي قبعةً ذات وشاح باللونَين القرمزي والأبيض لمدرسة شهيرة في غرب إنجلترا.

ضحكت وقالت: «عجبًا يا سيدة جونز، إنه لَلُطف شديد منك أن تأتي لرؤيتي. أتمنى ألا تَكوني قد واجهتِ الكثير من المتاعب. سأكون في غاية السعادة للذَّهاب إلى لندن. هل هذا أحد أصدقائك؟»

صافحت ليون وعيناها تبتسمان في ود.

قالت السيدة جونز مضطربةً: «لا بأس يا آنسة جريس. لم أُفكر إلا في أن أزورك سريعًا وأطمئنَّ عليك. كيف حال المدرسة معك يا عزيزتي؟»

قالت الفتاة: «أوه، رائعة. لقد فُزتُ بمنحةٍ دراسية.»

قالت السيدة جونز بصوتٍ مذهول: «يا له من خبر جميل! أنت رائعة دائمًا يا عزيزتي.»

استدارَت الفتاة إلى ليون.

وقالت: «كانت السيدة جونز مُربِّيتي منذ سنواتٍ وسنوات، أليس كذلك يا سيدة جونز؟»

أومأت أميليا جونز.

وسألتها الفتاة: «كيف حالُ زوجكِ؟ هل ما زال بغيضًا؟»

قالت السيدة جونز بشجاعة: «أوه، إنه ليس سيئًا للغاية يا آنسة. إنه يُحاول قليلًا من حينٍ لآخر.»

«أتعلمين؟ أودُّ أن ألتقيَ به.»

لهثت أميليا قائلةً: «أوه لا، لا أنصحكِ يا عزيزتي. هذا فقط قلبكِ الطيب. أين تقضين عطلتكِ؟»

«مع صديقةٍ لي في كليفتون اسمها مولي ووكر، ابنة السير جورج ووكر.»

التهمَت عينا أميليا جونز الفتاةَ وعرَف ليون أنها تُغدِق كلَّ الحبِّ الذي حُرِمت منه في حياتها القاحلة على هذه الطفلة التي ربَّتها. ساروا على الرصيف معًا؛ وعندما جاء قطارها، وقفت السيدة جونز عند باب العربة حتى خرج القطار من المحطة، ثم انتظرَت بلا حَراك ناظرةً إلى القطار السريع حتى توارى عن الأنظار.

تمتمَت بانكسار: «لن أراها مرةً أخرى! لن أراها مرة أخرى! يا إلهي!»

ظهر التعب على وجهها وشحب شحوبًا مروعًا، وأخذ ليون بذراعها:

«يجب أن تأتي وتتناولي وجبةً خفيفة يا سيدة جونز. هل تُحبين هذه الشابة كثيرًا؟»

التفتَت إليه قائلةً: «مُغرَمة بها؟ مغرمة بها؟ إنها ... إنها ابنتي!»

أخذا عربةً خاصة وهما عائدان إلى المدينة وحكَت السيدة جونز قصتها.

قالت: «كانت جريس تبلُغ من العمر ثلاث سنواتٍ عندما وقع والدها في مشكلة. كان دائمًا متوحشًا، وأعتقد أن الشرطة لم ترفع ناظرها عنه منذ أن كان طفلًا صغيرًا. لم أكن أعرف هذا عندما تزوَّجته. كنتُ مُربيةً في منزلٍ سطا عليه وأطلق سراحي؛ لأنني تركتُ باب المطبخ مفتوحًا له، وأنا لا أعلم أنه لص. قضى وقتًا طويلًا في السجن، وعندما خرج أقسم أنه لن يعود إليه مرة أخرى؛ وفي المرة التالية لو أحسَّ بأي خطرٍ يُهدِّده، فسيجعلها قضية قتل. تواصل هو ورجل آخر مع وكيل مراهنات ثري في بلاكهيث. اعتاد باش القيامَ بعمله القذِر نيابةً عنه، لكنهم تشاجروا ونهب باش وصديقُه المنزلَ وهربا ومعهما ما يقرُب من تسعة آلاف جنيه.

كان يومًا لأحد السباقات الكبيرة، وعلم باش أنه سيتوفَّر الكثير من الأوراق النقدية التي سُجِّلت في مضمار السباق ولا يُمكن تتبعُها. اعتقدت أنه قتل هذا الرجل في البداية. لم يكن خطأَه أنه لم يفعل ذلك. دخل إلى الغرفة وضربه بعنفٍ وهو مُستلقٍ في السرير — كانت هذه هي طريقة باش — واكتسب اسمه من طريقته تلك (الذي يعني الضرب العنيف). اعتقد أنه ستُجرى تحقيقات كثيفة ومن ثَم أعطاني المال لأعتنيَ به. اضطُرِرت إلى وضع المال في جَرَّة بيرة قديمة نصفُها مملوء بالرمل، وسدَدتُها بالفلين وغطَّيتُ الفلين والعنق بالشمع؛ حتى لا يمرَّ الماء، ثم وضعتها في صِهريج يستطيع باش أن يصل إليه من إحدى الغرف في الطابق العلوي في الجزء الخلفي من المنزل. كدتُ أُجَن من الخوف لأنني اعتقدت أن الرجل المحترم قد قُتل، لكنني فعلت ما قيل لي وأغرقتُ الجرة في الصِّهريج. في تلك الليلة، وفي أثناء هروب باش ورفيقه إلى شمال إنجلترا، أُلقِيَ القبضُ عليهما في محطة

يوستون. قُتل صديق باش لأنه ركَض عبر الخط أمام أحد القطارات، ولكنهم أمسكوا باش وفتشوا المنزل ولم يتركوا فيه شبرًا من دون تفتيش. سُجِن لمدة خمسة عشر عامًا ولو تحلَّى بحُسن السير والسلوك في السجن، لَخرج منذ عامَين.

وهو في السجن، لزمني أن أجلس وأُفكر يا سيد لوكاس، وأول ما فكرت فيه هو طفلتي. رأيت الحياة التي كانت ستكبر فيها وبيئتها المحيطة والأحياء الفقيرة المروعة والخوف من الشرطة؛ لأنني علمتُ أن باش سيُنفق مليون جنيه إذا كان يملك هذا المبلغ في غضون أسابيعَ قليلة. كنت أعلم أنني تحرَّرتُ من باش لمدة اثنَي عشر عامًا على الأقل وما برحتُ التفكير حتى اتخذتُ قراري.

بعد مرور اثنَي عشر شهرًا على دخوله السجن، تجرَّأتُ وأخذت المال؛ لأن الشرطة ظلت تُراقبني، لأن الأموال لم يُعثَر عليها. لن أُخبرك كيف اشتريتُ ملابسَ فاخرة حتى لا يشكَّ أحد في أنني كنتُ امرأة عاملة أو في كيفية تغييري للأموال.

جمَّدتُ المبلغ بالكامل في أسهُم. لم أحصل على تعليمٍ جيد؛ لكني قرأتُ الصحفَ لأَشهُر، واطلعتُ على الأعمدة التي تتحدَّث عن المال. في البداية شعرتُ بالحيرة ولم أفهم الكثيرَ عن الأمر، لكني بعد فترة استوعبتُ واستثمرت الأموالَ في شركة أرجنتينية، وعهدت إلى مُحاميَةٍ في بيرموندسي لمتابعة الأمر. اعتادَت على تحصيل الأرباح كلَّ ثلاثة أشهر وتدفع فواتيرها بنفسها، لم أَمَسَّ فلسًا واحدًا منها قط. كان الشيء التالي هو إخراج ابنتي الصغيرة من الحي، ومن ثَم أرسلتها بعيدًا إلى دار رعاية للأطفال الصِّغار — لقد حطَّم قلبي أن أفترق عنها — حتى كبرت وبلغت سنَّ الذَّهاب إلى المدرسة. اعتدتُ رؤيتها بانتظام. وبعد زيارتي الأولى، لمَّا وجدت أنها كادت أن تنساني، تظاهرتُ أنني كنتُ مُربيتَها — وتلك هي القصة.»

كان جونزاليس صامتًا.

ثم قال: «هل زوجكِ يعلم؟»

قالت المرأة مُحدقةً من النافذة وهي شاردةُ الذهن: «إنه يعلم أنني أنفقتُ المال. إنه يعلم أن الفتاة في مدرسة جيدة. سوف يكتشف ذلك.» ثم قالت هامسةً تقريبًا: «سوف يكتشف!»

هكذا كانت المأساة! صُدِم ليون بجمال تضحيةِ هذه المرأة. وعندما استعادَ القدرة على الحديث، سألها:

«لماذا تعتقدين أنه سيقتلكِ؟ هذا النوع من الناس لا يَقْوى إلا على التهديد.»

قاطعَته قائلةً: «باش ليس من عادته التهديد. إنها الأسئلة التي كان يَطرحها على الأشخاص الذين يعرفونني. أشخاص مِن ديبتفورد التقى بهم في السجن. يسألون عما أفعله في الليل، وفي أيِّ وقتٍ أذهب إلى النوم، وماذا أفعل في النهار. تلك هي طريقة باش.»

قال ليون: «فهمت.» ثم سأل: «هل أعطاه أحدٌ التفاصيلَ اللازمة؟»

هزَّت رأسها.

وقالت: «لقد بذَلوا قصارى جهدهم معي. إنهم شخصيات سيِّئة ويرتكبون الجرائم، ولكن ثَمَّة بعض القلوب الطيبة بينهم؛ فلم يُخبروه بشيء.»

«هل أنتِ متأكدة؟»

«أنا متأكدة؛ لأنهم لو أخبَروه، لما ظلَّ يسأل. عجبًا، جاء توبي براون من ديفايسز قبل شهرٍ وأخبرني أنَّ باش هناك ولا يزال يسأل عني. أخبر توبي أنه لن يُسجَن مرة أخرى، وأنه يعتقد أنه سيكون على قيد الحياة حتى عيدِ منتصف الصيف لو أمسكوا به.»

صعد ليون إلى شقته في تلك الليلة شاعرًا بالمجد.

سأل مانفريد: «ماذا كنت تفعل وحدك؟ أنا عن نفسي كنتُ أتناوَلُ الغداءَ مع السيد فير الرائع.»

هزَّ رأسه قائلًا: «كنت أتنقَّل بين جنبات قصةٍ عظيمة مَدْعاة للمجد! ليس مَجْدي، لا، ليس مجدي يا مانفريد. ولكن مجد أميليا جونز. إنها امرأة رائعة يا جورج. من أجلها، سآخُذ إجازةً لمدة شهر، وخلال هذه الفترة يُمكنك العودة إلى إسبانيا ورؤيةُ محبوبنا بويكارت والاستماعُ لكل شيءٍ عن البصل.»

قال مانفريد مفكرًا: «أودُّ أن أعود إلى مدريد لبضعة أيام. أجد في لندن جاذبيةً خاصة، ولكن إذا كنتَ ستأخذ إجازةً حقًّا، فأين ستَقضيها بالمناسبة؟»

أجاب جونزاليس مبتهجًا: «في سجن ديفايسز.» وكان مانفريد يُؤمن بصديقه، لدرجة أنه لم يُبدِ أي تعليق.

غادر ليون جونزاليس إلى ديفايسز بعد ظهر اليوم التالي. ووصل إلى البلدة عند الغسَق وترنَّح في تداعٍ وسار نحو السوق. في الساعة العاشرة من تلك الليلة، وجده شُرطيٌّ متكئًا على جدارٍ خلف فندق بير، يُغني أغانيَ حمقاء، وأمَرَه بالابتعاد. عندئذٍ خاطبَه ليون بلُغةٍ لا تليق بمقامه البتَّة في ذلك الوقت (حيث لم يكن ثملًا البتَّة). لذلك، مثل أمام هيئة القضاة في صباح اليوم التالي بتهمة السُّكر واستخدام لغةٍ مسيئة وعرقلةِ أداء الشرطة لواجبها.

قال رئيس المحكمة الرزين: «نادرًا ما يُحكَم في مثل هذه القضايا بفرض غرامة. غريبٌ من لندن يأتي إلى هذه المدينة ويتصرَّف بطريقةٍ مثيرة للاشمئزاز للغاية. هل ثَمَّة تصرُّفاتٌ معروفة تُدين هذا الرجل؟»

قال الحارس آسفًا: «لا شيء يا سيدي.»

«ستدفع غرامةً عِشرين شلنًا، أو تذهب إلى السجن لمدة واحد وعشرين يومًا.»

قال ليون بصراحة: «أُفضِّل الذَّهاب إلى السجن على أن أدفع الغرامة.»

لذلك أرسلوه إلى السجن المَحلي كما توقَّع. بعد واحدٍ وعشرين يومًا، اسمرَّت بشرته وأصبح جسمه مُتناسقًا. دخل إلى الشقة والتفَت إليه مانفريد بيدَين ممدودتَين.

قال ليون فرِحًا: «سمعتُ أنك عُدت. قضيت وقتًا رائعًا! ولكنهم أفسدوا حساباتي بإعطائي ثلاثةَ أسابيع بدلًا من شهر، وكنت أخشى أن أعود قبلك.»

قال جورج وعيناه شاردتان في الخوان: «عدت أمس.»

تُوجَد ستٌّ بصلاتٍ إسبانية كبيرة مصفوفة، وانحنى ليون جونزاليس ضاحكًا. لم يكن الأمر كذلك، حتى ارتدى ملابسَ أكثر أناقة وحكى عن مغامرته.

قال: «لا شك أن باش جونز وضع خُططَ قتل. لم أرَ حالةَ تَشوُّهٍ للوجوه أغربَ من حالته. عملت معه في ورشة الحياكة. وسيخرج يوم الإثنين المقبل.»

قال مانفريد بجفاء: «أفترض أنه رحَّب بك عندما اكتشف أنك من ديبتفورد؟»

أومأ ليون.

وقال: «إنه ينوي قتل زوجته في اليوم الثالث من الشهر، وهو اليوم الذي يلي إطلاقَ سراحه.»

سأل مانفريد متفاجئًا: «لِمَ هذه الدقة؟»

«لأنها الليلة الوحيدة التي تَبيت فيها في المنزل بمفردها؛ فعادةً ما يَبيت في المنزل نَزيلان شابَّان من عُمَّال السكك الحديدية يعملان حتى الثالثة صباحًا في اليوم الثالث من كل شهر.»

سأل مانفريد: «أهذه الحقيقةُ أم أنها من تأليفك؟»

اعترف جونزاليس قائلًا: «إنها من تأليفي بالفعل، لكن هذه هي القصة التي أخبرتُه بها وتلهُّفه جعَلها تنطلي عليه. ليس مع الشابَّين مِفتاح، ومن ثَم يدخلون من باب المطبخ الذي يُترَك مفتوحًا. يُمكن الوصول إلى باب المطبخ من خلال ممرٍّ ضيق يمتدُّ على طول شارع ليتل ميل بمحاذاة المنازل. أوه نعم، إنه يَحرص حرصًا مُخيفًا على الحصول على

المعلومات، وأخبرَني أنه لن يعود إلى السجن مرةً أخرى إلا في زيارةٍ قصيرة. إنه رجل مُثير للاهتمام. أعتقد أنه من الأفضل أن يموت.» واستكمل ليون ببعض الرَّزانة: «فكِّر في احتمالات البؤس يا جورج. رأيت هذه الفتاة البائسة وهي سعيدةٌ بين أصدقائها، كما أنها نشأَت تنشئة جيدة ...»

ابتسم مانفريد قائلًا: «هل تقول ذلك عن باش باعتباره أبًا؟»

قال جونزاليس بحزم: «نشأت تنشئة جيدة، أُكرر. التنشئة الجيدة ما هي إلا صفةٌ تُكتسَب من خلال الارتباط مدى الحياة مع الأشخاص اللطفاء. ضع ابنَ الدوق في الأحياء الفقيرة وسوف يكبر ويتخلَّق بأخلاق أطفال الأحياء الفقيرة، ولكنه على كل حالٍ سيُصبح من أطفال الأحياء الفقيرة. فكر في النتائج الوخيمة لو عادت هذه الطفلة إلى مآوي ديبتفورد. هذا ما سيُسفر عنه الأمر، إن افترَضنا أن السيد باش جونز لن يقتل زوجته. وإذا قتلها، فستَظهر الحقيقة المُروِّعة. كلَّا، أعتقد أنه مِن الأفضل أن نُسوِّيَ أمر السيد باش جونز هذا.»

قال مانفريد، وهو ينفث دُخان سيجاره مُفكِّرًا: «أتفق معك.» جلس ليون جونزاليس على الطاولة وفتح قصائدَ براوننج أمامه يقرؤها، وكان يتوقَّف بين الحين والآخر للنظر مُتأمِّلًا في الفراغ وهو يشرح الطريقةَ التي يجب أن يموت بها باش.

بعد ظُهر اليوم الثالث، وصل تلغرافٌ إلى السيدة أميليا جونز من ليون جونزاليس يدعوها إلى مقابلته في محطة بادينجتون.

«هل أحضرتِ مِفتاحكِ معك يا سيدة جونز؟»

قالت المرأة في دهشة: «أجل يا سيدي.» ثم سألته: «هل تعرف أن زوجي خرج من السجن؟»

قال جونزاليس: «أعرف، أعرف. ولذلك أُريدكِ أن تذهبي بعيدًا بِضع ليالٍ. لدي بعض الأصدقاء في بليموث. من المُحتمل أن يُقابلوكِ في المحطة؛ وإن لم يُقابلوكِ، فعليكِ أن تذهبي إلى هذا العنوان.»

أعطاها عنوان نزلٍ كان قد حصل عليه من إحدى صُحف بليموث، وقال: «هذا بعض المال. أُصِر على أن تأخذيه. يَحرص أصدقائي حرصًا شديدًا على مساعدتك.»

كانت تبكي عندما تركها.

قال ليون عند الافتراق عنها: «هل أنتِ متأكدة من أنكِ أغلقتِ منزلَكِ؟»

«معي المفتاح هنا يا سيدي.»

فتحَت حقيبتَها ولاحظ أن يدَيها ترتجفان طوال الوقت.

قال ليون وهو يأخذ الحقيبة في يده وهو ينظر بداخلها دون تمعُّنٍ: «دعيني أرَ. أجل، ها هو.»

مدَّ يده وأخرجها فارغةً على ما يبدو وأغلَق الحقيبة مرَّةً أخرى، ثم قال: «وداعًا يا سيدة جونز، ولا تفقدي شجاعتكِ.»

عندما حلَّ الظلام، وصل ليون جونزاليس إلى شارع ليتل ميل حاملًا شيئًا ضخمًا في حقيبةٍ من القماش الأسود. دخل المنزل دون أن يُلاحظه أحد؛ لأن الليلة كانت مَطيرة وعاصفة وكان الناس في شارع ليتل ميل جاثِمين حول نيرانهم الضئيلة.

أغلق الباب خلفه ووجد طريقَه بمساعدة مِصباح جيبه إلى غرفة النوم الفقيرة الوحيدة في المنزل الصغير. أزال الغِطاء، وهو يُهمهِم لنفسِه، ثم أزال بعِنايةٍ محتوياتِ الحقيبة، التي كان أهمُّها كُرَةً زجاجية كبيرة.

إضافة إلى ذلك، وضع شعرًا مستعارًا أسودَ بعنايةٍ وبحث في الغرفة عن أشياءَ من الملابس التي يُمكن لفُّها في حُزمة. عندما أنهى عمله، تراجع ونظر إلى ما صنَعه بإعجاب، ثم نزل إلى الطابق السفلي، وفتح باب المطبخ؛ ولتمامِ التأكيد، عبَرَ الفناء الصغير وتحقَّق من إغلاق البوابة المؤدِّية إلى الممر. يبدو أن القُفل كان معطَّلًا تمامًا؛ ثم رجع راضيًا.

في أحد أركان الغرفة، وجد عَلَّاقَةَ ملابس محجوبةً عن الأنظار بقطعةٍ طويلة من قماش الكريتون الرخيص. أزال القماش من هذا الركن ليصنع به الصُّرة على السرير. ثم جلس على كرسيٍّ وانتظر بصبر، وهي الصفة المميزة للعالِم.

قُرِعت أجراس الكنيسة مرتَين عندما سمع صرير البوابة الخلفية؛ فالتزم الصمت وأخرج شيئًا من جيبه واختبأ خلف ستارة الكريتون. لم يكن منزلًا يُمكن للمرء أن يتحرَّك فيه دون أن يُصدِر صوتًا؛ لأن ألواح الأرضية كانت قديمة وتُصدِر صريرًا عندما يمشي عليها أحد. كان كلُّ درج يَصدُر عنه صرير. لكن الرجل الذي كان يزحف من درجٍ إلى آخر كان بارعًا، ولم يسمع ليون أي صوتٍ آخر حتى فُتِح الباب ببطء ودخَل شخصٌ ما.

تحرَّك هذا الشخصُ بخُطًى مُسْتَرَقة عبر الغرفة ووقف لبضع ثوانٍ بجوار الشيء الضخم على السرير. يبدو أنه استمع وكان راضيًا. ثم رأى ليون عصًا تعلو وتهبط.

لم يَنبِس باش جونز بكلمةٍ واحدة حتى سمع صوت تحطُّم الزجاج المكسور. ثم حلف يمينًا وسمعه ليون يتحسَّس جيبه بحثًا عن أعواد ثقابه. كان التأخير قاتلًا. تصاعد

غاز الكلور — المضغوط تحت ضغط العديد من الأجواء — حوله. اختنق واستدار ليركض، ثم سقط وتكاثف الغاز الأصفر فوقه حتى كوَّن سحابةً كثيفة ومنتفخة.

خرج ليون جونزاليس من مكان اختبائه ورأى الرجل المُحتضَر الذي كان يُحدق ورأى عينَين زجاجيتَين ضخمتين وفوهةَ جهاز التنفس الصناعي التي تُشبه الخطام، وظلَّ مذهولًا حتى وفاته.

جمع ليون الزجاج المكسور ولفَّ القِطَع بعنايةٍ في حقيبته. واستبدل الملابس بأقصى قدرٍ من العناية، ووضع الباروكة بعيدًا ورتَّب الغرفة قبل أن يفتح النافذةَ والباب. ثم ذهب إلى مقدمة المنزل وفتح تلك النوافذ أيضًا. كانت تهبُّ من الجنوب الغربي رياحٌ، وبحلول الصباح سيكون المنزل خاليًا من الغاز.

لم يخلع قناع الغاز الذي كان يرتديه حتى وصل إلى الفناء الخلفي، ووضعه أيضًا في الحقيبة.

بعد ساعة، كان في سريره نائمًا نومًا عميقًا ومطمئنَّ البال.

نامت السيدة جونز جيدًا في تلك الليلة. وفي مهجعٍ أنيق في مكانٍ ما في غرب إنجلترا، كانت الفتاة النحيفة ترتدي مَنامتها مُستكينةً على وسادتها وتتنهَّد في سعادة.

ولكن باش جونز غطَّ في نومٍ أعمق من الكل.

الفصل السادس

لحظات سعادة في حياة رجل

نُشِرت لأول مرة في صحيفة ذا ستاندرد، أكتوبر ١٩٢١

في أمسيةٍ ممتِعة في أوائل الصيف، نزل ليون جونزاليس من إحدى الحافلات في ميدان بيكاديلي وهمَّ سائرًا بنشاطٍ في هايماركت، ثم انعطف إلى شارع جيرمين غافلًا على ما يبدو عن حقيقةِ أن شخصًا ما كان يتبعه.

رفع مانفريد عينَيه عمَّا كان يكتب عندما جاء صديقه، وأومأ برأسه مبتسمًا ونزع ليون معطفه الخفيف وشقَّ طريقه إلى النافذة المطلة على الشارع.

سأل: «ما الذي تبحث عنه هذا البحثَ الحثيث يا ليون؟»

قال ليون من غير أن يرفع عينَيه عن الشارع بالأسفل: «جين بروثيرو، من ٧٥ بنايات بارسايد، لامبث. آه، ها هو، الرجل المجتهد!»

«مَن يكون جين بروثيرو؟»

حاول جونزاليس إخفاء ضحكه.

«رجلٌ دعَته جُرأتُه إلى التجوُّل في ويست إند في هذه الساعة.» ثم نظر في ساعته، وقال: «أوه لا، ليس بهذه الجُرأة، فالجميع يرتدون ملابس السهرة الآن.» قال مانفريد مقترحًا: «لصُّ منازل؟» ضحك ليون مرةً أخرى، وقال: «إنه ليس مجرمًا لهذه الدرجة. أفترض أنك تقصد بلصِّ المنازل نوعًا من اللصوص الصغار الذين يضعون سُلَّمًا على نافذة غُرَف النوم عندما تكون العائلةُ مشغولة بالعَشاء في الطابق السُّفلي، ويهرب ببعضِ قطع المجوهرات الصغيرة التي يعثر عليها؟»

أومأ مانفريد.

وقال موافقًا إيَّاه على كلامه: «ذلك هو الوصف الرسمي لهذا النوع من المجرمين.»

هز ليون رأسه.

وقال: «كلَّا، إن السيد بروثيرو رجلٌ مُثير للاهتمام؛ مُثير للاهتمام لسبب آخر تمامًا. في المقام الأول لأنه مجرم أصلَع، أو مجرمٌ مقتدِر. كما تعلم عزيزي جورج، نادرًا ما تجد مجرمًا أصلع. بعضهم خشنُ الشعر والبعض الآخر خفيفُ الشعر. إنهم يشتركون في سِماتٍ شخصية غريبة مثل تسريح الشعر على الجانب الخطأ؛ ولكن نادرًا ما تجد لديهم صلعًا. قمة رأس السيد بروثيرو خاليةٌ تمامًا من أي شعر من أي نوع. إنه الرجل الثاني في سفينةٍ مُتجولة تُستخدَم في تجارة الفاكهة بين جزر الكناري وساوثهامبتون. إنه متزوِّج من فتاةٍ آيةٍ في الجمال. ومن الغريب أنَّ صِهره لصُّ منازل، ومن ثَم أثار في نفسي الشكوكَ عن غير قصدٍ على الإطلاق.» ثم أضاف وكأنه يُضيف فكرةً مهملة قد خطرَت على باله مؤخرًا: «بالمناسبة، إنه يعلم أنني أحد رجال العدالة الأربعة.»

ظلَّ مانفريد صامتًا.

ثم سأل بهدوء: «كيف علم ذلك؟»

خلع ليون معطفه ووضع ذراعَيه في سُترةٍ باهتة من صوف الألبكة. لم يردَّ حتى لفَّ سيجارة إسبانية بغير إتقانٍ وأشعلها.

«منذ سنوات، لمَّا كان ذلك التنظيم الوخيمُ الذي ذكرت اسمه تحت المطاردة، سعى هذا التنظيم — على طريقته المتواضعة — إلى رفع الظلم في العالَم ومُعاقبة الأشرار الذين لم يقَعوا تحت طائلة القانون ذي الإجراءات المُتثاقِلة، قُبِض عليك يا عزيزي جورج وأُودِعتَ سجن تشيلمسفورد. هربتَ منه هروبًا معجزًا ووصلتَ إلى الساحل الذي نعرفه أنا وأنت وبويكارت حيث أخذْتَ يخت صديقنا الرائعِ أمير أستورياس، الذي شرَّفنا بأن كان رابع مجموعتنا.»

أومأ مانفريد.

قال ليون: «ركب السيد جين بروثيرو على متن تلك السفينة. أما عن كيفية وصوله إلى يخت صاحب السمو المبجَّل، فسأشرح ذلك في مرحلةٍ لاحقة؛ لكنه بالتأكيد كان هناك. أنا لا أنسى الوجوه أبدًا يا جورج، لكن للأسف لست وحدي مَن لا ينسى الوجوه؛ فالسيدُ بروثيرو يتذكَّرني، ويتذكَّر رؤيتي في مباني بارسايد ...»

سأل مانفريد بابتسامة باهتة: «ماذا كنتَ تفعل في مباني بارسايد؟»

أجاب ليون بطريقةٍ مُثيرة: «يُوجَد رجلان في مباني بارسايد لا يعرف كلٌّ منهما الآخَر، كِلاهما مُجرم، وكلاهما مُصاب بعمى الألوان!»

وضع مانفريد قَلمه واستدار، مُستعِدًّا لسماع محاضرةٍ عن الإحصائيات الجنائية؛ لأنه لاحظ الحماسَ في صوت جونزاليس.

قال ليون مبتهجًا: «من خلال هذَين الرجلَين، أُصبح قادرًا على دحض النظريات شديدةِ السخف التي قدمها كلٌّ من مانتيجازا وشيمل، التي تقول إن عمى الألوان لا يُصيب المجرمين مطلقًا. والحقيقة يا عزيزي جورج أن الرُّجلَين كلَيهما متورطان في الجريمة منذ ريعان شبابهما، وقضى كلاهما عقوبةً بالسجن؛ والأهم من ذلك أن أبوَيهما كانا مجرمَين ومُصابَين بعمى الألوان!»

قال مانفريد، قاطعًا بلباقةٍ ما كان يُبشِّر أنه محاضرة طويلة وشاملة عن عيوب الإبصار وعلاقتها بالسِّمات الخلقية لدى الخارجين على القانون: «حسنًا، ماذا عن السيد بروثيرو؟»

«إن أحد أهدافي هو صهر بروثيرو، أو بالأحرى الأخ غير الشقيق لزوجة بروثيرو. كان والدها نجارًا بريئًا، ويعيش في الشقة العلوية. هذه الشقق هي مجرد مساكن صغيرة تتكوَّن من غرفتَين ومطبخ. لا يُوفِّر بُناة مساكن لامبث الحماماتِ برفاهية. بهذه الطريقة، تصادف أن تقابلتُ مع زوجة بروثيرو وأنا أحاول التغلُّب على إحجام أخيها عن الحديث عن نفسه.»

قال مانفريد بصبر: «أظنُّ أنك قابلتَ بروثيرو أيضًا.»

«لا، لم أُقابله إلا بالصدفة. مرَّ على الدرج ورأيته يُلقي نظرةً خاطفة عليَّ. كان وجهه في الظل ولم أتعرَّف عليه حتى لقائنا الثاني، وهو اليوم. وقد تبِعَني إلى المنزل.» ثم أضاف: «في واقع الأمر، أشكُّ في أنه تبعني أمس، ولم يأتِ اليوم إلا ليتأكَّد من محل إقامتي.»

قال مانفريد: «أنت رجل غريب.»

ابتسم ليون قائلًا: «ربما سأكون أغرَب.» ثم قال مُفكرًا: «كل شيء يعتمد الآن على اعتقاد بروثيرو بأنني تعرَّفتُ عليه من عدمه. فإن كان يعتقد ذلك ...»

هزَّ ليون كتفَيه.

وقال باستخفاف: «ليست هذه هي المرة الأولى التي يُحيطني فيها الموت وأتغلَّب عليه.»

لم ينخدع مانفريد بالتهكُّم الذي في نبرةِ صوت صديقه، وقال: «الأمر بالِغُ السوء، أليس كذلك؟» ثم أضاف بهدوء: «الخطر عليه أشدُّ على ما أعتقد. لا أُحبُّ فكرة قتل رجلٍ لأنه عرَفَنا. لا يبدو أن ذلك المسار يتناسَب مع تصوُّري للعدالة.»

قال ليون بانتعاش: «بالضبط، ولن تكون ثَمة حاجةٌ إلى ذلك على ما أعتقد. ما لم يكن، بالطبع، ...» ثم توقف.

سأل مانفريد: «ما لم ماذا؟»

«ما لم يكن بروثيرو يُحب زوجته حقًّا؛ ففي هذه الحالة قد يكون الأمر خطيرًا للغاية.»

في صباح اليوم التالي، عرَج إلى غرفة نوم مانفريد حاملًا فنجانَ الشاي الذي يُحضره الخادم عادةً، ونظر إليه جورج في ذهول.

قال: «ما خَطْبك يا ليون، ألم تنَم؟»

كان ليون جونزاليس يرتدي ما أسماه «طقم المنامة»: سُترةً وسروالًا رَماديًّا من صوف الفانلا، مربوطًا بحزام عند الخصر، وقميصًا حريريًّا مفتوحًا عند الرقبة، وزوجين من النِّعال الخفيفة بحيث تكمل ملابسه. لم يتفاجأ مانفريد إذ ربط هذا الزيَّ بالتفكير طوالَ الليل، عندما هزَّ ليون رأسه.

قال: «كنتُ أجلس في غرفة الطعام، أُدخن الغليون في سلام.»

قال مانفريد متفاجئًا: «طوال الليل؟ استيقظتُ في منتصف الليل ولم أرَ أي ضوء.»

قال ليون معترفًا: «جلستُ في الظلام؛ فقد أردتُ سماع الأشياء.»

قلَّب مانفريد كوب الشاي بعناية، وقال: «هل الأمر بذلك السوء؟ هل توقَّعت ...»

ابتسم ليون، وقال: «لم أكن أتوقَّع ما حصلت عليه. هلا صنعتَ لي معروفًا يا عزيزي جورج؟»

«ما المعروف الذي تطلبه؟»

«أُريدك ألا تتحدَّث عن السيد بروثيرو لبقية اليوم. وبدلًا من ذلك، أرغب أن تُناقش مسائلَ عِلمية وزراعية بحتة كمُزارِع أندلسي أمين، كما أُريدك أن تتحدَّث باللغة الإسبانية.»

عبَس مانفريد، قائلًا: «لماذا؟»

ثم قال: «أنا آسف، لا يُمكنني التخلُّص من عادةِ طرح التساؤلات بسبب الحَيرة، كما تَعلم يا ليون. الإسبانية والزِّراعة إذن، دون ذكر لبروثيرو على الإطلاق.»

كان ليون جادًّا للغاية وأومأ مانفريد ونهض من على السرير.

سأل بسُخرية: «هل يُمكنني التحدُّث عن الاستحمام؟»

لم يحدُث شيءٌ مثير للاهتمام بشكلٍ خاص في ذلك اليوم. وما كاد مانفريد أن يُشير إلى تَجرِبة ليون والتكهُّن بانحرافِ فكره، حتى رفع ليون إصبع تحذير.

كان بإمكان جونزاليس أن يتحدَّث عن الجريمة، وقد فعل. تحدَّث عن جوانبها العِلمية أكثرَ وشدَّد بشكلٍ خاص على اكتشافه للمجرم المُصاب بعمى الألوان. لكنه لم يَهمِس بكلمة عن السيد بروثيرو.

بعدما تناوَلا العَشاء في تلك الليلة، خرج ليون من الشقة ولما عاد قال: «حمدًا لله يُمكننا الآن أن نتحدَّث دون تفكير.»

سحب كرسيًّا بجانب الحائط وثبَّته جيدًا. وكان فوق رأسه مِروحة صغيرة مثبَّتة على الحائط بمسامير. عندما سمع لها بعضَ الأزيز، أدار مِفكًّا ببراعةٍ ورفع الشبكة الصغيرة من تجويفها، وكان مانفريد يُشاهده بجدِّية.

قال ليون: «ها هو ذا. اسحب كرسيًّا يا جورج.»

تبين «أنه» كان صندوقًا بُنيًّا مسطَّحًا صغيرًا بمساحة أربع بوصات في أربع بوصات، في وسطه تجويفٍ من الفلكانيت الأسود.

قال ليون: «هل تعرفه؟ إنه الهاتف الكاشف. بعبارة أخرى، جهاز استقبال هاتف مزوَّد بجهاز مرفق لتسجيل الصوت.»

«هل كان هناك من يستمع إلى كلِّ ما نتلفظ به؟»

أومأ ليون.

«مرَّ الرجل في الطابق العلوي بيومٍ مُملٍّ وكئيب. أعترف أنه يتحدَّث الإسبانية، وأنني لم أقُل شيئًا بعيدًا عن هذا الفرع من العلوم وهو هوايتي الخاصة.» وأضاف بتواضُع: «لا بد أنه كان يشعر بالملل الشديد.»

استهلَّ مانفريد قائلًا: «ولكن ...»

قال جونزاليس: «إنه بالخارج الآن. ولكن للتأكُّد تمامًا ...»

بأصابع ماهرة، فصل أحد الأسلاك التي عُلِّق بها الصندوق في عمود فتحة التهوية.

قال موضحًا: «جاء السيد بروثيرو الليلة الماضية. أخذ الغرفة في الطابق العلوي، وطلَبها تحديدًا. علمتُ هذا من النادل الرئيسي. إنه يعشقني لأنني أعطيتُه بالضبط ثلاثة أمثال الإكرامية التي يحصل عليها من النُّزلاء الآخرين في هذه الشقق المفروشة؛ ولأنني أُعطيه ثلاثة أمثال الإكرامية في كثيرٍ من الأحيان. لم أعرف خُطة بروثيرو بالضبط، حتى سمعتُ نقرَ لاقط الصوت وهو ينزله على العمود.»

كان مشغولًا بإعادة تثبيت شبكة فتحة التهوية، ثم أسرع بالنزول حينذاك.

«هل تُريد أن تذهب إلى لامبث اليوم؟ لا أعتقد أن ثمَّة فرصةً كبيرة للقاءِ السيد بروثيرو. من ناحيةٍ أخرى، سنرى زوجة بروثيرو تتسوَّق في الساعة الحادية عشرة في طريق لندن؛ لأنها سيدة تتبع نظامَ حياةٍ مُنتظمًا.»

سأل مانفريد: «لماذا تريدني أن أراها؟»

لم يُسمَح له عادةً برؤية أساليب عمل أيٍّ من مُخطَّطات ليون حتى اقترابِ النهاية الدرامية، التي كانت مبعثَ مُتعة له.

قال ببساطة: «أريدك — بمعرفتِك الواسعة بالطبيعة البشرية — أن تُخبرني: هل هي من نوع النساء اللاتي يُمكن لرجلٍ أصلعِ الرأس أن يرتكب جريمة قتل مِن أجلِهن أم لا؟» فنظر إليه مانفريد بدهشة قائلًا: «والضحية هو …»

ردَّ جونزاليس وانحنى ضاحكًا ضحكةً صامتة على النظرة التي لا تُعبِّر عن شيء على وجه مانفريد: «أنا!»

كانت الساعة الحادية عشرة إلا أربع دقائق بالضبط عندما رأى مانفريد السيدة بروثيرو. شعَر بضغط يدِ ليون على ذراعه ونظر، فقال ليون: «ها هي.»

كانت هناك فتاة تعبُر الطريق. وكانت مُتأنِّقة بدرجةٍ تفوق فتاةً من طبقتها. كانت تحمل حقيبة تسوُّق في يدٍ واحدة مرتدية فيها قفازًا، ومحفظة في اليد الأخرى.

قال مانفريد: «إنها فاتنة الجمال.»

توقَّفَت الفتاةُ للنظر في نافذة محلٍّ مجوهرات؛ ومِن ثَمَّ توفَّر الوقت لمانفريد كي يُراقبها. كان وجهُها حلوًا ومفعمًا بالأنوثة، وعيناها كبيرتان وداكنتان، وذقنها الصغير منحسرًا ومستديرًا.

قال ليون: «ما رأيك فيها؟»

قال مانفريد: «أعتقد في الواقع أنها نموذج مثالي للأنوثة الطاغية.»

قال الآخر آخِذًا بذِراعه: «تقدَّمْ وقابِلْها.»

نظرَت الفتاة حولها في البداية متفاجئةً ثم ابتسمَت. توقع مانفريد أن يرى أسنانًا بيضاء وامضةً وشفاهًا قرمزية تبعث ابتسامتها على البهجة. لم يكن صوتُها صوتَ سيدة، لكنه كان هادئًا وموسيقيًّا.

قالت لليون: «صباح الخير يا دكتور. ماذا تفعل في هذا المكان في هذا الوقت المبكِّر جدًّا من الصباح.»

قال مانفريد: «دكتور.»

بإمكانِ جونزاليس التكيُّف لتقمُّص شخصية العديد من المِهَن بغرض الحصول على المعلومات.

قدَّم مانفريد قائلًا: «جئنا للتوِّ من مستشفى جاي. هذا هو الدكتور سيلبرت. إنكِ تتسوَّقين، أليس كذلك؟»

أومأت.

وقالت: «في الحقيقة، لم أكن مُضطرةً إلى الخروج، ولكن ظل السيد بروثيرو بعيدًا في الميناء لمدة ثلاثة أيام.»

سأل ليون: «هل رأيتِ أخاكِ هذا الصباح؟»

انطفأَت الابتسامة من وجه الفتاة.

وقالت باختصار: «لا.»

من الواضح — حسب اعتقاد مانفريد — أنها لم تكن فخورةً بقَرابتها منه على وجه الخصوص. من المُحتمل أنها اشتبهَت في مهنته غير المشروعة، لكنها على أي حالٍ لم تكن لديها رغبةٌ في فتح مُناقشة بشأنه؛ لأنها غيرَت الموضوع بسرعة.

تحدَّثوا لبعض الوقت، ثم تركَتهما معتذرةً ورآها تختفي عبر الباب الواسع لمتجر بقالة.

«حسنًا، ما رأيك فيها؟»

قال مانفريد بهدوء: «إنها فتاة فاتنة الجمال.»

سأل ليون: «أهي من هذا النوع من الفتيات اللاتي من شأنهن أن يجعلن مجرمًا أصلعَ يرتكب جريمة قتل؟»

ضحك مانفريد وقال: «ليس من المُستبعَد، ولكن لماذا يقتلك؟»

ردَّ ليون بالفرنسية: «سنرى.»

عندما عادا إلى شقتهما بعد الظهيرة، وجدا أن البريد وصل وبه ستُّ رسائل. حملَت إحدى الرسائل شارةً ثقيلة على ظرفها مما لفت انتباه مانفريد.

قال وهو ينظر على التوقيع: «اللورد بيرثام. من يكون اللورد بيرثام؟»

قال ليون: «ليس لديَّ دليلٌ بالشخصيات في متناول يدَي، لكن يبدو أنني أعرف الاسم. ماذا يريد اللورد بيرثام؟»

قال مانفريد: «سأقرأ لك الرسالة.

إنها تقول: «السيد المحترم، صديقنا المشترك السيد فير من سكوتلاند يارد سيتناول العشاء معنا الليلة في كونوت جاردنز، وأتساءل عما إذا كنتَ ستَلْحق بنا؟ أخبرني السيد فير

أنك أحد أذكى علماء الجريمة في هذا القرن؛ ولأنني أُجري دراسةً خاصة في هذا الشأن، فسأكون سعيدًا بالتعرُّف إليك.»

ثم توقيع «بيرثام»، الذي ذيَّل رسالته أيضًا بقوله:

بالطبع تشمل هذه الدعوة صديقك.»

فرك مانفريد ذقنه.

وقال: «لا أريد حقًّا أن أتناول العشاء متأنقًا الليلة.»

قال ليون على الفور: «لكني أريد؛ بدأتُ أُحب الطبخ الإنجليزي، وعلى ما أتذكر فإن اللورد بيرثام يُحب الملذَّات الدنيوية.»

لم يتوانَ كلاهما ووصَلا إلى المنزل الكبير عند زاوية كونوت جاردنز الساعة الثامنة واستقبلهما خادمٌ أخذ قبعتَيهما ومعطفيهما وقادهما إلى قاعة استقبالٍ كبيرة ومظلمة.

رأيَا رجلًا يقف وظهره إلى المدفأة؛ رجلًا طويل القامة يبلغ من العمر خمسين عامًا وذا لحية ذات شعر رمادي، ما جعله يبدو شبيهًا بالأسد.

جاء بسرعة للقائهما.

وسأل بالإنجليزية: «أيُّكما السيد فوينتيس؟»

ردَّ مانفريد مبتسمًا: «أنا سينجر فوينتيس، لكن صديقي هو عالِم الجريمة.»

قال على عجَل: «مسرورٌ بلقائكما، لكن لديَّ اعتذارًا لكما؛ بسبب بعض سوء الحظ وغباء أحد رجالي، لم تُرسَل الرسالة المُوجَّهة إلى فير. ولم أكتشف ذلك إلا قبل نصف الساعة. أتمنَّى ألا يكون ذلك قد ضايقكما.»

تمتم مانفريد بشيء تقليدي ثم فُتِح الباب لإدخال سيدة.

قال اللورد بيرثام: «أودُّ أن أُقدِّمكما إلى السيدة.»

دخلت امرأة نحيفة ذات طباع حادة وعينَين شاحبتَين وفمٍ ذي شفتَين رفيعتَين، ومسحةٍ من عُبوس جرَّدَتها من أي سحرٍ وهَبه الخالق لها.

فكر ليون جونزاليس — الذي كان يُحلل الوجوه تلقائيًّا — في «غضب، شك، جفاء، غرور».

زاد العبوس عندما مدَّت يدَها الضعيفة.

قالت: «العشاء جاهز يا بيرثام.» ولم تُحاول التلطُّف مع ضيفَيها.

ساد بعضُ الإحراج خلال تناول العشاء؛ فقد كان اللورد بيرثام مُتوترًا، وربما لو كانا أيَّ رجلَين آخرَين غير هذين لانتقل توتره إليهما. بدا هذا الرجل الضخم في حالةِ

رُعب من زوجته، إذ تصرَّف باحترام، لدرجة التواضُع في حضورها. وعندما أزاحت وجهَها الفظ عن الغرفة أخيرًا، لم يتكلَّف جهدًا في إخفاء تنفُّسِه الصُّعداء، وقال: «أخشى أننا لم نُقدِّم لكما عشاءً يليق بكما؛ فالسيدة ... على خلافٍ بسيط مع طباخي.»

من الواضح أن السيدة معتادة على بعض الخلافات مع الطباخ في المنزل. في سياق المحادثة التي تلَت ذلك، ذكر دون قصدٍ أسماءَ بعض الخدم الذين لم يعودوا في خدمته. تحدَّث في الأغلب عن ملامح وجوههم. وبدا لمانفريد — الذي كان يستمع باهتمامٍ مثل رفيقه — أن اللورد لم يكن ذا سلطةٍ كبيرة على مرءوسيه. ظهر التردُّد في حديثه، وصدرت منه عدةُ زلَّات واضحة، لكن ليون لم يُصحِّح له. وذكر مِن دون قصدٍ أنه كان لديه اهتمام إضافي بالمجرمين لأن حياتَه كانت مهددة.

قال بعد عرضٍ طويل ومُتخبِّط لبعض مراحل عِلم الإجرام، التي كاد مانفريد يُقسِم أنه ما قرأها إلا من أجل هذه المناسبة: «دعونا نصعد وننضم إلى زوجتي.»

صعدوا السُّلَّم العريضَ إلى صالةِ استقبالٍ صغيرة في الطابق الأول. وجَدوها فارغة، ومن الواضح أن اللورد اندهش من ذلك إذ قال: «عجبًا ...» وعندئذٍ فُتِح الباب وركضت زوجة بيرثام إلى الداخل. كان وجهُها شاحبًا وشفتاها النحيفتان ترتعشان، وقالت بسرعة: «بيرثام، أنا متأكدة من أنَّ هناك رجلًا في غرفة ملابسي.»

اللورد بيرثام: «في غرفة ملابسك؟» وخرج بسرعة.

كان الرجلان سيَتْبعانه، لكنه توقَّف في منتصف الطريق أعلى الدرَج ولوَّح لهما بأن يتراجعا.

قال: «مِن الأفضل أن تنتظرا مع السيدة. اتصِلي بتوماس يا حبيبتي.»

سَمِعاه يتحرَّك وهما واقفان عند أسفل الدرَج، ثم سمعا صرخةً وصوتَ صِراع. وصل مانفريد إلى منتصف السُّلَّم عندما ارتطم أحدُ الأبواب بالأعلى. ثم جاءت أصواتٌ وطلقات أعقَبها سقوطُ جسم ثقيل.

رمى مانفريد بنفسه على الباب الذي جاء منه الصوت.

قال صوت اللورد بيرثام: «كل شيء على ما يُرام.»

بعد ثانيةٍ حرَّر قُفل الباب وفتحه، قائلًا: «يُؤسِفني أنني قتلتُ هذا الرجل.»

كان المسدس المُنبعِث منه الدخانُ لا يَزال في يده. وفي منتصف الأرضية يتمدَّد رجلٌ رديء الملابس لطَّخ دمُه السجادة الرمادية بلون اللؤلؤ.

مشى جونزاليس بسرعةٍ إلى الجثَّة وقلبها. للوهلة الأولى عرَف أن الرجل قد مات. نظر طويلًا وبجدِّية إلى وجهه، ثم قال اللورد بيرثام: «هل تعرفانه؟»

قال جونزاليس بهدوء: «أعتقد ذلك. أعرف أنه مجرم مصابٌ بعمى الألوان.» لأنه تعرف على أخي السيدة بروثيرو.

عادا إلى منزلهما في تلك الليلة تاركين اللورد بيرثام وقد اختلى به مفتشُ المباحث، والسيدة بيرثام في حالة هستيرية.

لم يتكلم أيٌّ من الرجلَين حتى وصلا إلى شقتِهما. جلس ليون وأطلق تنهيدةً تنمُّ عن الرضا وارتاح على كرسيٍّ كبير بذراعَين وسحب بشوقٍ سيجارًا كريهَ الرائحة.

«ليون!»

لم ينتبه.

«ليون!»

أدار ليون رأسَه وقابلَت عيناه عينَي جورج.

«هل وجدتَ أيَّ شيءٍ غريب فيما حدث من إطلاق النار الليلة؟»

قال ليون: «عدة أشياء.»

«مثل ماذا؟»

«مثل غرابة القدر الذي قاد سليباري بيل — هذا اسم اللِّص — إلى منزل اللورد بيرثام. سطوُه على المنزل ليس مُستغرَبًا، لأنه لصُّ منازل، كما تُسميه.» ثم سأل وهو يلتفُّ مُستديرًا ويُحدِّق عبر الطاولة في مانفريد: «بالمناسبة، هل نظرتَ إلى يد الرجل الميت؟»

قال الآخر متفاجئًا: «لا، لم أفعل.»

«يا للأسف، كنتَ سترى أمورًا أغرب. ما الأمور التي كنتَ تُفكر فيها؟»

«كنتُ أتساءل عن السبب الذي دفع اللورد بيرثام إلى حمل مسدَّس. لا بدَّ أنه كان معه في جيبه أثناء العشاء.»

قال جونزاليس: «يُمكن تفسير ذلك بسهولة. ألا تتذكَّر قوله لنا إن حياته تعرَّضَت للتهديد عبر رسائل مجهولة؟»

أومأ مانفريد وقال: «لقد نسيت ذلك. لكن مَن أغلق الباب؟»

ليون مُبتسمًا: «اللصُّ بالطبع.» ولما ابتسم، عرَف مانفريد أنه يُراوغ. ثم استطرد: «بمناسبة الحديث عن الأبواب المُغلَقة ...»

دخل غرفته وعاد بآلتَين صغيرتَين تُشبهان أقراص الأجراس الكهربائية، باستثناء أنَّ هناك سنًّا ملتصقةً بكلٍّ منهما.

أغلق باب غرفة الجلوس ووضَع إحدى هاتَين الآلتَين على الأرضية، وثبَّت المسمار في أسفل الباب بحيث يستحيل فتحُه من دون الضغط على الجرس. ثم جرَّب فتح الباب وصدرت عنه جلجلة حادة.

قال: «لا بأس.» واستدار ليفحص النوافذ.

«هل تتوقَّع قدوم اللصوص؟»

قال ليون: «إلى حدٍّ ما، في الواقع، لا يُمكنني تحمُّل فقداني للنوم.»

لم يكتفِ بإحكام النافذة، فدفع فيها بإسفين صغير، وفعل الشيء نفسَه في النوافذ الإضافية المطلَّة على الشارع.

وقد فعل في بابٍ آخر، يُؤدي إلى غرفة مانفريد من الممر بالخارج، كما فعل في الباب الأول.

في منتصف الليل صدَر رنينٌ مسعور من أحد الأجراس. قفَز مانفريد من السرير وأشعَل النور. كان بابه مُحكَم الإغلاق وأسرَع إلى غرفة الجلوس، لكن جونزاليس سبَقه إلى المكان ووجده يُحقق مع الحارس الضئيل الحجم بجوار الباب. كان الباب مفتوحًا، فدفع المُنبِّه بقدَمِه التي كان منتعلًا فيها شبشبًا.

قال: «تعالَ يا لورد بيرثام. دعنا نُناقش هذا الأمر.»

ساد صمت بضع لحظات، ثم سُمع صوت قدم مُنتعلة شبشبًا ودخل رجل. كان يرتدي ملابسَ كاملة ما عدا القبعة؛ ثم لهث مانفريد حين رأى الرأس الأصلع.

قال ليون: «اجلس واعتبر نفسك في منزلك، ودعني أُخفف عنك ذلك السلاح الفتَّاك الذي تحمله في جيبك؛ لأن هذا الأمر يمكن تدبُّره تدبرًا في غاية السلمية.»

على الرغم من اختفاء كتلة الشعر لدى اللورد بيرثام، تعرَّف عليه مانفريد ولم يُحدق فيه إلا عندما انزلقَت يد ليون اليسرى في جيب زائر منتصف الليل وسحب مُسدسًا ووضعه بحذرٍ على رف المدفأة.

غطَس اللورد بيرثام في كرسيٍّ وغطَّى وجهه بيدَيه وساد الصمت لفترة.

استهلَّ ليون الحديث وأجفل مانفريد: «قد تتذكَّر المُبجل جورج فيرنسايد.»

«فيرنسايد؟ عجبًا، كان على متن يخت الأمير ...»

جونزاليس موافقًا: «كان على متن يخت الأمير، واعتقدنا اعتقادًا راسخًا أنه لم يربط بيننا وبين المجرمين الهاربين، ولكن من الواضح أنه تعرَّف علينا باسم رجال العدالة الأربعة. أظن أنك حصلت على لقبك منذ حوالي ستِّ سنوات، أليس كذلك يا بيرثام؟»

أومأ الرجل المنحني. اعتدلَ في جِلسته حينئذٍ، ولكن كان وجهه أبيضَ وتكوَّنت هالات سوداء حول عينَيه.

قال: «حسنًا أيها السادة، يبدو أنه بدلًا من أن أنال منكما، قد نلتما أنتما مني. الآن، ما الذي تنويان فعله؟»

ضحك جونزاليس بهدوء.

وقال: «أنا عن نفسي بالتأكيد لن أذهب إلى المحكمة وأقف في منصة الشهود لأشهد بأن اللورد بيرثام متزوج من امرأتين وأنه يعيش مع زوجتَين منذ عدة سنوات لأنَّ هذا يعني أنه يجب عليَّ أيضًا أن أعترف ببعض الأمور غير المريحة عن نفسي.»

لعق الرجل شفتَيه ثم قال دون وضوح:

«جئتُ لأقتلَكما.»

قال مانفريد: «نعلم ذلك. ما القصة يا ليون؟»

قال جونزاليس: «ربما سيُخبرنا اللورد.»

نظر اللورد بيرثام حوله بحثًا عن شيءٍ ما.

قال: «أريد كوبًا من الماء.» ومن ثَم أحضره له ليون.

قال اللورد بيرثام بعد فترة: «هذا صحيح تمامًا. نمى إلى علمي أنكما من رجال العدالة الأربعة. كنتَ صديقًا مقربًا لسموِّه، وبالصدفة كنت على متن اليخت عندما انصرفتما. أخبرني سموُّه بحكايةٍ عن واقعة هروب، ولكن عندما وصلت إلى إسبانيا وقرأت في الصحف عن الهروب، بتُّ متأكدًا تمامًا من هُويَّتِكما. ربما تعرفان شيئًا عن حياتي في بدايتها، وكيف وصلتُ للوقوف أمام صاري المركب باعتباري بحَّارًا عاديًّا وسافرت في جميع أنحاء العالم. لقد كان أسلوب الحياة الذي أرضاني أكثرَ من أي شيءٍ آخر، لأنني تعرفتُ على الناس والأماكن وتعرفتُ عليهم من زاويةٍ لم أكن لأفهمَها بأي طريقة أخرى.» ثم أضاف مُبتسمًا نصف ابتسامة: «إذا أردتَ يومًا أن ترى العالَم، فلتُسافر وتقف على مقدمة المركب.

قابلت مارثا جراي ذات ليلةٍ في إيست إند في لندن في أحد المسارح. عندما كنتُ بحارًا، كنت أتصرَّف كالبحارة. لم تكن علاقتي بأبي على ما يُرام ولم أكن أرغب قطُّ في العودة إلى المنزل. جلسَتْ بجانبي في الجزء الخلفي من المسرح؛ ومِن المُثير للسخرية كما قد يبدو لكما أنني وقعتُ في حُبها.»

قال ليون: «ثم تزوَّجتما؟» لكن الرجل هزَّ رأسه.

قال بسرعة: «لا؛ فقد اقتنعتُ كالأحمق أن أتزوَّج سيادتها بعد ما يقرُب من ثلاثة أشهر، بعد أن سئمتُ من البحر وعُدت إلى ناسي. لقد كانت وريثةً ومن ثَم بات ذلك توافقًا جيدًا معي. كان ذلك قبل أن يرث أبي مال ابن عمه. كانت حياتي مع سيادتها جحيمًا على الأرض. لقد رأيتماها الليل ويُمكنكما أن تُخمِّنا أي نوعٍ من النساء هي. لديَّ احترام كبير جدًّا للنساء وكثيرًا ما أعيش في رهبةٍ منهن فلا يُمكنني ممارسةُ أي سيطرة على مِزاجهن الغادر؛ وإن الحياة البائسة التي عِشتها معها هي ما دفَعني للبحث عن مارثا.»

ثم قال والوميضُ في عينَيه مُتحديًا إنكارَه: «إن مارثا فتاة طيبة. إنها الأنقى، والأعز، إنها أجملُ امرأة على الإطلاق. عندما قابلتها مرة أخرى أدركتُ عُمقَ حبي لها، وكما هو الحال مع فتاة بشخصيتها، لم يكن ثَمة طريقةٌ أخرى، وفي النهاية تزوجتها.»

أضاف: «أصابتني الحُمَّى عندما كنتُ في رحلة إلى أستراليا وفقدت كلَّ شعري. حدث ذلك قبل أن أُقابل مارثا بوقتٍ طويل. أعتقد أنه كان غرورًا من جانبي، ولكن عندما عدتُ إلى حياتي الخاصة وإلى أهلي — مثلما فعلتُ مرة بعد ذلك — طلبتُ أن يُصنَع لي شعرٌ مستعارٌ لغرَضَين، وهما إخفاء مرضي ومنعُ زملاء البحر السابقين من التعرُّف عليَّ.»

قال بابتسامةٍ يتخلَّلها الحزن: «لما صار شعري الصغير رماديًّا، صبغتُ الشعر المستعار باللون الرمادي كذلك، وقد جعلتُه يبدو بمظهرٍ كثيف وشاعري لإتمام تنكُّري.» واستطرد بهدوء: «لم يكن لدى مارثا مشكلة مع رأسي الأصلع، بارك الله فيها! وعِشت معها حياةً تَغمُرها السعادة ولا يُعكِّر صفوها شيء. اضطُرِرت أن أتركها في بعض الأحيان لإدارة شئوني الخاصة. كي أُبرِّر غيابي عنها حينذاك، اعتدتُ الادعاءَ بأنني في البحر، كما اعتدت الادعاء للسيدة أن شئون العمل تستدعيني إلى أمريكا.»

قال جونزاليس: «بالطبع، الرجل الذي أطلقتَ عليه النار هو أخو مارثا غير الشقيق.» وأومأ اللورد بيرثام.

قال: «لم يُوصله إلى منزلي سوى سوء الحظ. يا لسوء حظه! في وسط الصراع، سقط الشعر المُستعار فعرَفَني وأطلقتُ النار عليه.» ثم قال ببساطة: «أطلقتُ عليه النار عمدًا وبدمٍ بارد. ليس لأنه هدَّد بتحطيم سعادتي فحَسْب، بل أيضًا لأنه كان لسنواتٍ يُرهِب أخته ويعيش على دخلها الضعيف.»

أومأ جونزاليس، وقال: «رأيتُ شعرًا رماديًّا في يديه وخمَّنت ما حدث.»

سأل اللورد بيرثام: «الآن ماذا ستفعل؟»

كان ليون يُدخن في ذلك الوقت، وسأله بمِثل ما سأل: «ماذا ستفعل أنت؟ ربما تُريدني أن أقول لك، أليس كذلك؟»

قال الرجل جِدِّيًا: «بلى.»

قال جونزاليس: «ستصطحب زوجتَك الثانية إلى الخارج بمجرد انتهاء هذا التحقيق، وستنتظر وقتًا معقولًا ثم تُقنع زوجتك الأولى بالطلاق. وبعد ذلك ستتزوَّج السيدة بروثيرو باسمك الحقيقي.»

قال مانفريد بعد أن عاد فيرنساند إلى الغرفة العلوية التي أخذها على أملِ اكتشاف مدى معرفة جونزاليس بأمره: «ليون، أعتقد أنك شخص غير أخلاقي على الإطلاق. ما الذي سيحدث إذا لم تُرِد السيدة بيرثام الطلاق من اللورد؟»

ضحك ليون، وقال: «لا حاجة لها في الواقع إلى الطلاق من اللورد بيرثام؛ لأن سيادته أخبرنا بكذبةٍ صغيرة. لقد تزوَّج مارثا أولًا، وهجرها ثم عاد إليها. لقد عرَفتُ ذلك لأنني فحَصت بالفعل السجلَّين كليهما، وعلمت أنه تزوج السيدة بروثيرو قبل السيدة بيرثام.»

قال مانفريد بإعجاب: «إنك رجل رائع يا ليون.»

قال جونزاليس مُسلِّمًا لقوله: «أنا كذلك بالفعل.»

الفصل السابع

محب الموسيقى

نُشِرت لأول مرة في صحيفة ذا نوفل، سبتمبر ١٩٢١

أبرزُ سِمات السيد هومر لين، عواطفه العميقة والجياشة، وحُبه لافتتاحية سيمفونية تشايكوفسكي عام ١٨١٢. كان يُحب الموسيقى بشكلٍ عام، لكن جيرانه في بنيرثون رود بمدينة هامبستيد يشهدون شهادةً لا جدال فيها على تفضيله لتلك المقطوعة الرائعة عن الحرب. أدَّى ذلك إلى تصاعُد الأمر من حالة إزعاج محلية إلى تقديم طلبٍ لمحكمة الجُنَح والمخالفات بهدف قمع السيد هومر لين؛ باعتباره مصدرَ إزعاج عامًّا، كما وصل الأمر أخيرًا إلى تبادل رسائل المحامين والتهديد باتخاذ إجراءٍ في المحكمة العُليا.

كان على السيد المُرهَف الحس الرقيقِ الفؤاد أن يتجاهل مشاعرَ جيرانه ورغباتهم تمامًا ما دام يُحب أن يكون لديه في غرفة نومه أكبرُ جراموفون عرَفَتْه منطقة هامبستيد على الإطلاق، بالإضافة إلى جراموفون مُزوَّد بذراع آلية، بحيث تنتقل الإبرة إلى الحافَة الخارجية للأسطوانة، وتبدأ تشغيلها من جديد فور انتهاء التسجيل. كان يختار ساعةَ منتصف الليل لينغمِسَ في استمتاعه. إنها وقائعُ غريبة بقدْر ما هي مؤسفة.

سبق أن أكَّد السيد لين تأكيدًا حثيثًا في المحكمة على أن الطريقة الوحيدة التي اكتشفها لتهدئة أعصابه حتى ينامَ في سلام في الليل، هي سماع تلك المقطوعة الموسيقية ذاتِ الإيقاع الراعد.

يُمكن أن يشهد على الأقل ثلاثةُ آباء مُنزعجين على لطف السيد لين. عمل وكيلًا مسرحيًّا؛ ومن ثَمَّ كانت له مصالحُ كبيرة في أمريكا الجنوبية، وقد تخصَّص في مجموعة «الجولات» لحوالي عشرين قاعة كبيرة وصغيرة، ولم يسَع الفنانين الكبارَ الذين سافروا

عبر الأرجنتين والمكسيك وتشيلي والبرازيل سوى الثناءِ على المعاملة الممتازة التي تلقَّوها على أيدي هؤلاء الذين مثَّلهم السيد لين. اعتُقِد أنه كان مُهتمًّا من الناحية المالية بعددٍ لا بأس به من أماكنِ التسلية هذه — وهذه حقيقة — الأمر الذي ربما يكون مسئولًا عن الكرم والاهتمام اللذَين شهدهما كبارُ المُمثلين في جولتهم.

أرسل أيضًا عددًا من الفنانين الصغار، فنانون صغار جدًّا لم تظهر أسماؤهم مطلقًا على مُلصَقات المسارح في بريطانيا. وقع الاختيارُ عليهم لجمالهم ونشاطهم وعدَمِ تمتُّعهم بروابط.

من أقوال السيد هومر لين: «إن هذا البلد جميل.»

من صفات السيد لين الجدِّية، ومن صفاتِه أيضًا المرد — باستثناء بعض الشعرات الرمادية في وجنتَيه — ومَن لم يعرفه يتخيَّل أنه مُحامٍ ناجح، وأنه يعمل في بعض القضايا الكنَسية.

كان يقول: «إن هذا البلد جميل، لكنني لا أعرف هل يُستحَب أن أُرسِل فتاةً صغيرة إلى هناك أم لا. بالطبع ستتقاضى راتبًا جيدًا، وستعيش حياةً كريمة. هل لديكِ أيُّ أقارب؟»

لو ذكرَت الفتاة أن لها أقاربَ من الدرجة الأولى كأخٍ أو أبٍ أو حتى أُم أو عمَّة أو خالة لم تتزوَّج بعد، لأومأ السيد لين برأسه ومنَّى مُقدِّمة الطلب بكتابة العقد في الغد، ثم يتملَّص من ذلك الالتزام بذريعة عدَم استيفاء مُقدِّمة الطلب للشروط التي وضَعها، وهذا صحيح. لكن إذا لم يكن هناك أقاربُ للفتاة؛ أي إذا لم يكن لها أقاربُ تُرسِل إليهم خطاباتٍ، أو أصدقاءُ من المُحتمَل أن يُزعجوه بالأسئلة، فغالبًا ما تُسافر بعد فترةٍ وجيزة في رحلة من الدرجة الأولى، ولكن ليس للجولة التي كان يتبعها كبارُ الفنانين، ولا للقاعات الأكبر التي كانوا يجتمعون فيها على الأرجح، بل كانت تُرسَل إلى قاعاتٍ أصغر، لم تكن مسرحًا بقدْر ما كانت ملهًى.

تكرَّر أن تخدعه مُقدمةُ الطلب بدَناءة، وحدث ذلك في ثلاث مناسباتٍ منفصلة على وجه الدقة؛ إذ كانت تقول إنها ليست لديها علاقات، ومن العجيب أن يظهر لها أخٌ فضولي أو أبٌ، كما في الحالة الحاليَّة.

في صباحٍ مُشرق من شهر يونيو، جلس السيد لين على كرسيِّه المريح، ويداه مطويَّتان، يُشاهد رجلًا صغير الحجم مُتوترًا بشدَّة يجلس على الجانب الآخر من المكتب الكبير المصنوع من خشب الماهوجني، وهو يضبط اتزان وضعِ قُبعته على ركبتَيه.

قال السيد لين مُفكرًا: «روزي جولدستاين، يبدو أنني أتذكَّر الاسم.»

قرع الجرس وأجاب شابٌّ أسمر.

قال السيد لين: «أحضِر لي دفترَ تعاقداتي يا سيد مانديز.»

كان الزائر عبرانيًّا لا شكَّ وعصبيًّا للغاية، قال بقلق: «تُرى كيف هي يا سيد لين. لم يكن لديَّ أيُّ فكرة عن أن روزي سافرت إلى الخارج حتى أخبرتْني صديقةٌ لها أنها أتتْ إلى هنا وحصلت على تعاقد.»

قال السيد لين: «فهمت. لم تُخبرك أنها ذاهبة.»

«لا يا سيدي.»

عاد الشاب الأسمر ومعه الدفتر، وقلَّب السيد لين الصفحات على مهل، مُمررًا إصبعَه على قائمة الأسماء.

ثم قال: «ها نحن ذا. روزي جولدستاين. أجل، أتذكر الفتاة الآن، لكنها أخبرَتني أنها يتيمة.»

أومأ جولدستاين.

وقال مُتنهدًا بحسرة: «أعتقد أنها ظنَّت أنني سأمنعها. لكن ما دمتُ أعرِف مكانها، فلستُ قلقًا للغاية. هل لديك عُنوانها الحالي؟»

أغلَق لين الكتاب بعناية وابتسم للزائر، ثم قال مسرورًا: «ليس لديَّ عُنوانها الحالي، ولكن إذا كتبتَ لها خِطابًا وأعطيتَه لي، فسأُحوِّله إلى وكلائنا في بوينس آيرس، وبالطبع سيتمكَّنون من العثور عليها. كما ترى، هناك عددٌ كبير من القاعات المُرتبطة بسلسلة المسارح، ومن المُرجَّح أن تكون في عرضٍ في داخل البلاد. يستحيل تمامًا تتبُّع كل فنان.»

قال اليهودي القصير المُمتن: «أفهم ذلك يا سيدي.»

قال لين المُرهَف الحس وهو يهز رأسه: «كان يجب أن تُخبرك.»

وكان يعني حقًّا أنه كان يجب عليها أن تُخبره.

«ومع ذلك، سنرى ما يُمكن فعله.»

مدَّ يده المُمتلئة كي يُصافح الزائر، وأراه الشابُّ الأسمر الطريق إلى الباب.

بعد ثلاث دقائق، انشغل السيد لين في مقابلةٍ مع فتاة جميلة تتمتَّع بميزة أنها أدَّت أعمالًا سابقة في المسرح. كانت عضوًا في جوقة الجمال في إحدى المسرحيات المُتنقلة. وعندما أجابت الفتاة الشغوفة على الأسئلة ذات الصِّلة بخبراتها المسرحية القليلة، وصل السيد لين إلى صُلب المقابلة الحقيقي.

سألها بألطف ابتسامة: «ما رأي والدكِ ووالدتكِ في فكرة قَبولكِ هذا التعاقد للسفر إلى الخارج؟»

قالت الفتاة: «ليس لديَّ أبٌ أو أم.» خمَّن السيد لين من ارتجاف شفتَيها الخاطفة أنها فقدت أحدهما مؤخرًا.

«لعل لديكِ إخوة.»

أجابت وهي تهز رأسها: «ليس لدي إخوة. ليس لدي أيُّ أقارب في العالَم يا سيد لين.» ثم قالت ملتمسة: «ستمنحني فرصة السفر، أليس كذلك؟»

نوى السيد لين منحها فرصة السفر. في الحقيقة، يجني «الفنانون» الصغار الذين أرسلهم إلى قارة أمريكا الجنوبية مكاسبَ أكثر من الفنانين العظماء الذين كانت أسماؤهم معروفة في لندن.

قال بطريقة رسمية: «سأُرسل لك خطابًا غدًا.»

«ستسمح لي بالذهاب؟»

ابتسم.

وقال: «بالتأكيد ستُسافرين يا آنسة هاكر. لا داعي للخوف بشأن الأمر. سأُرسل لك العقد ... كلَّا، من الأفضل أن تأتي إلى هنا وتُوقِّعيه.»

ركَضَت الفتاة نزولًا على الدرج إلى ميدان ليستر وقلبُها يتراقص فرحًا. تعاقُد بقيمةٍ أكبر ثلاث مرات من أعلى راتبٍ حصلت عليه على الإطلاق! أرادت أن تُخبر الجميع عنه، رغم أنها لم تحلُم أنها ستُثرثر بسعادتها في غضون ثوانٍ لرجلٍ كان في تلك اللحظة غريبًا تمامًا.

يبدو الرجل بمظهرٍ أجنبي وملابس أنيقة وطلعةٍ حسنة. وجهه من تلك الوجوه التي تروق للأطفال. إنه يتمتَّع بذلك القَبول الذي لم يُحلله أي طبيب نفسي بعد.

التقت به حرفيًّا عن طريق الصدفة؛ حيث كان يقف في أسفل الدرج عندما نزلَت، وتعثَّرت قدمُها فوقعت بين ذراعَيه.

وقالت مُبتسمةً: «أنا آسفة للغاية.»

ابتسم الرجل وقال: «لا داعي للأسف البتة. يدلُّ مظهرك أنك حصلتِ للتوِّ على عقدٍ بملغٍ جيد للسفر إلى الخارج.»

حدَّقت به.

وقالت: «كيف عرَفتَ ذلك؟»

قال ضاحكًا، ويبدو أنه تخلَّى عن نيته في الصعود إلى الطابق العلوي واستدار وسار معها إلى الشارع: «أعرف ذلك لأنه ... حسنًا، لأنني أعرف.»

أومأَت وقالت: «أجل، الأمر كذلك. لقد حصلتُ على فرصة رائعة. هل تعمل في المجال؟»

قال ليون جونزاليس: «لا، لستُ في المجال، إذا كنتِ تقصدين مجال المسرح؛ لكنني أعرف البُلدان التي ستذهبين إليها جيدًا. هل ترغبين في معرفة شيءٍ عن الأرجنتين؟»

نظرَت إليه بريبة.

وقالت بتردُّد: «يُسعدني جدًّا، ولكنني …»

قال ليون بخفة دم: «سأحتسي فنجانًا من الشاي. فلتأتي معي.»

على الرغم من أنها لم تكن ترغب في تناول الشاي أو حتى إجراء المقابلة (على الرغم من أنها كانت تتُوق لإخبار أي أحد)، فالشخصية الساحرة للرجل حمَلَتها على ذلك وجذَبَتْها إليه. وفي تلك اللحظة ذاتِها قال السيد لين للرجل ذي البشرة السمراء: «فونسيو! إنها جميلة!» وقبَّل ذلك الرجلُ الرزين أطرافَ أصابعه المضمومة بنشوة.

هذه هي المرة الثالثة التي يزور فيها ليون جونزاليس المكاتب الأنيقة للسيد هومر لين في شارع بانتون.

في يوم من الأيام، أُقيم تنظيم عُرِف باسم رجال العدالة الأربعة. تكاتف هؤلاء الرجال معًا لتطبيق العدالة على مَن لم يَطلْهم القانون أو فرُّوا منه، ومن ثَم اكتسبوا لأنفسهم سمعةً سادت جميع أنحاء العالم. تُوفِّي أحدهم، ومن الثلاثة الذين بقُوا، انتقل بويكارت (الذي اشتهر بأنه العقل المدبر للأربعة) للعيش بهدوءٍ في إشبيلية. وصل إليه خطابٌ من أحد أبناء بلده في ريو. إنه مواطن لم يكتُب إلى بويكارت بصفته ينتمي إلى تنظيم رجال العدالة الأربعة، لكنه كتب باحتدامٍ عن بعض الفظائع. عندما تبادلا الرسائل، اكتشف بويكارت أنَّ معظمَ هؤلاء الفتيات الإنجليزيات الجُدد اللائي ظهَرْن في قاعات الرقص في مدُن غير مشهورة تمَّ استيرادُهن من خلال وكالة السيد لين المحترم، فأرسل بويكارت خطاباتٍ إلى صديقَيه في لندن.

قال ليون جونزاليس وهو يُقلِّب الشاي بعناية: «أجل، إنه بلد جميل. أعتقد أنكِ ترقصين من الفرح.»

قالت الفتاة: «بلى، هذا رائع. ما يُفرحني أنني سأحصل على اثنَي عشر جنيهًا إسترلينيًّا في الأسبوع ووجبات الطعام والسكن. إنه عرضٌ سخي، سأتمكَّن من توفير راتبي كله تقريبًا.»

«ألديكِ أي فكرة عن مكان عملك؟»

ابتسمت الفتاة.

وقالت: «لا أعرف البلد، وجهلي به يُخيفني خوفًا شديدًا، ولكني لا أعرف حتى بلدة واحدة في الأرجنتين.»

ابتسم ليون وقال: «الأرجنتين لا يعرفها كثيرون، لكنكِ ربما سمعت عن البرازيل، أليس كذلك؟»

أومأَت وقالت: «بلى، إنها دولة صغيرة في أمريكا الجنوبية. أعرف ذلك.»

ضحك ليون وقال: «من حيث تأتي المكسرات. لا، إنها ليست دولة صغيرة في أمريكا الجنوبية. إنها دولة كبيرة تُساوي مساحتُها المسافةَ من هنا إلى وسط بلاد فارس، ومن برايتون إلى خطِّ الاستواء. هل يُعطيك ذلك أي فكرة عن حجمها؟»

حدَّقَت به.

ثم تابع، ولكنه اقتصر على السمات المادية لشبهِ القارة. ولم يُشِر ولو مرةً واحدة إلى عقدها؛ فلم يكن ذلك غرضه. ولكنه قد كشف عن غرضه — وإن لم يكن لها — عندما قال: «يجب أن أُرسل لكِ كتابًا يا آنسة هاكر ستستفيدين به إذا كنتِ ذاهبةً إلى الأرجنتين. إنه مليء بمعلوماتٍ دقيقة للغاية.»

قالت بامتنان: «أوه، شكرًا لك. هل أُعطيك عنواني؟»

ظلَّ ليون يُراوغ كي يصل إلى هذا الهدف تحديدًا. وضَعَ قُصاصة الورق التي كتبَت عليها في دفتر جيبه وتركها.

استأجر جورج مانفريد سيارة ذات مقعدَين، ومن ثَم غادرا المعرض الوطني وقاد السيارة إلى حدائق كينسينجتون، حيث لا يعجُّ بوفيه الوجبات الخفيفة بالناس في هذه الساعة من اليوم. وعلى إحدى الطاولات المهجورة، كشف ليون عن نتيجة زيارته قائلًا: «حالفني حظ غريب والتقيتُ بأحد الحِملان.»

«هل رأيت لين نفسه؟»

أومأ ليون.

وقال: «بعد أن تركتُ الفتاة، صعدت وأجريتُ مكالمة. كان من الصعب إلى حدٍّ ما تجاوُزُ السيد المكسيكي — أعتقد أن اسمه مانديز — للوصول إلى مكتبه الخاص، ولكن في النهاية رآني لين.»

ضحك بصوتٍ منخفض.

وقال: «أنا لا أعزف على آلة البانجو؛ أُصرح لك بذلك يا عزيزي جورج بكل جدية. آلة البانجو بالنسبة لي آلة رهيبة ...»

قال مانفريد مُبتسمًا: «وهو ما يعني أنك قدَّمت نفسك بأنك عازفُ بانجو منفرد يُريد وظيفةً في أمريكا الجنوبية.»

قال ليون: «بالضبط، ولستَ في حاجة إلى أن أُخبِرَك أنني لم أتعاقد. الرجل مثيرٌ للاهتمام يا جورج.»

ضحك مانفريد وقال، وهو يضع القهوة التي طلبها جانبًا ويُشعل سيجارًا طويلًا ورفيعًا: «كل الرجال يُثيرون اهتمامك يا ليون.»

«وَدِدتُ أن أقول له إن مِهنته الحقيقية هي تدمير حياة البشر عمدًا. ملامح وجهه تُوحي بذلك حقًّا. وأنا أقول لك يا جورج إن لومبروسو لم تتجلَّ دقته قطُّ إلا عندما وصف هذا النوع من البشر. بشرة صافية ولطيفة وحساسة، ووجه مُكتنز كوجوهِ الأطفال، وشعر ناعم للغاية. يُمكنك تمييز هذا النوع في أي مكان.»

دلَّك ذقنه وعبَس.

«إنه يُدمر سعادة الناس أيضًا تدميرًا من أجل الربح. أعتقد أن نوع العقلية نفسَه سيرتكب كِلتا الجريمتَين. إنه تَشابهٌ مُثير للاهتمام. أودُّ استشارة صديقنا العزيز بويكارت حول هذا الموضوع.»

سأل مانفريد: «هل يمكن أن يقع تحت طائلة القانون؟ أمَا من سبيلٍ لفضحِ أمره؟»

قال ليون في الحال: «لا شيء على الإطلاق؛ فالرجل وكيلٌ صادق، ولديه أسماء بعض أفضل الأشخاص في دفاتره، وكلهم يَصْدعون بمدحه. الكذبة الناقصة وغير المُحكَمة أسهلُ في كشفها عن المجرم الذي يَصْدُق مرةً ويكذب في أخرى. إذا أصبح كبيرُ أمناء الصندوق في بنك إنجلترا مزورًا، فسيكون أنجحَ مزوِّرٍ في العالَم. لقد أمَّن هذا الرجلُ نفسَه من كل ناحية. تحدَّثت مع رجل يهودي — رجل عجوز مُثير للشفقة يُدعى جولدستاين — سافرَت ابنتُه إلى الخارج منذ حوالي سبعة أو ثمانية أشهر. لم يسمع عنها، وأخبرني أنَّ لين ذُهِل لَمَّا علِم أنَّ لديها أقاربَ. الفتاة التي ليس لها أقرباءُ أفضلُ استثمارٍ له.»

«هل أعطى لين الرجلَ العجوز عنوانها؟»

هزَّ ليون كتفَيه.

وقال: «تبلغ مساحة الأرجنتين مليونَ ميل مُربَّع. أين هي؟ قرطبة أم توكومان أم ميندوزا أم سان لويس أم سانتا في أم ريو كوياريو، هذه بعض المدن. تحتوي الأرجنتين على مئات المدن التي ربَّما تكون هذه الفتاة ترقُص فيها، وهي مدُن ليس بها قنصل بريطاني أو أمريكي. إنه أمرٌ مروع في الواقع يا جورج.»

نظر مانفريد مُتأملًا عبر المساحات الخضراء في الحديقة.

قال جونزاليس بهدوء: «إذا تأكَّدنا من الأمر، فسيستغرق ذلك شهرَين تحديدًا كي نَصِل إلى نتيجةٍ نرضى عنها، وأعتقد أن الأمر يستحق المال. سيُغادر صديقنا الشابُّ في أول سفينةٍ ذاهبة إلى أمريكا الجنوبية. وأنت تُفكر في العودة إلى إسبانيا منذ فترة. أعتقد أنني سأنضمُّ إلى الرحلة.»

أومأَ جورج.

وقال: «اعتقدت أنك ستنضم إلينا. في الحقيقة، أنا لا أُحسن التصرُّف من دونك.»

اندهشَت الآنسة ليلى هاكر عندما صعدت على متن سفينة براجانزا في بولوني واكتشفَت أن الغريب المُهذَّب الذي أعطاها محاضرةً مُمتعة عن جغرافية أمريكا الجنوبية بين الرُّكاب زملائها في الرحلة.

بالنسبة للفتاة، باتت توقُّعاتها ورديةً ومشرقة؛ إذ أمْسَت تتطلَّع إلى أرض الميعاد، وقد بلَغَت آمالُها في المستقبل ذروتَها. شعرت بخيبةِ أمل بعض الشيء لأن جونزاليس اللطيف لم يبقَ برفقتها في الرحلة لأنه بدا مشغولًا على الدوام، ولكن ذلك لم يكن بالأمر البالغِ الأهمية.

لم يمر سوى شهرٍ بالتمام من اليوم الذي صعدت فيه على متن سفينة براجانزا حتى نُسِف أملُها وقدرٌ كبير من إيمانها بالإنسانية، على يدِ رجلٍ إيرلندي بدين اسمُه رافيرتي، ولكنه وُلِد في الأرجنتين. كان مالكَ قاعةِ رقصٍ تُسمَّى لا بلازا في بلدةٍ ريفية داخل البلاد. أُرسِلَت إلى هناك مع فتاتَين أُخريَين أوعى منها، وذلك للترفيه عن السكَّان من رُعاة البقر الذين يحتشدون في المدينة ليلًا؛ إذ كانت قاعة «لا بلازا» هي عامل الجذب الرئيسي لهم.

قال رافيرتي، وهو يلفُّ سيجاره من أحد جانِبَي فمه إلى الجانب الآخر: «عليكِ أن تُغيري من طريقتكِ؛ قيل لي إنكِ أحدَثتِ ضجَّةً عندما أراد السيد سانتياجو أن تجلسي على رُكبته الليلة الماضية.»

قالت الفتاة بسخط: «بالطبع فعلتُ ذلك. عجبًا، إنه زنجي!»

قال السيد رافيرتي: «حسنًا اسمعي، لا تَصِفي أحدًا بأنه زنجي في هذا البلد. هل تفهمين ذلك؟ السيد سانتياجو رجل نبيل ولديه أكوامٌ من المال، وفي المرة القادمة لن يُوليَكِ اهتمامًا كبيرًا، يجب أن تكوني لطيفة، أتفهمين؟»

قالت الفتاة وهي شاحبة ومُرتجفة: «لن أفعل شيئًا من هذا القبيل، وسأعود مباشرة إلى بوينس آيرس الليلة.»

ابتسم رافيرتي ملءَ فيه وقال: «أوه سترجعين، هل ستعودين؟ هذه الفكرة أيضًا يجب أن تُخرجيها من رأسكِ.»

أمسكها فجأةً من ذراعها.

وقال: «ستصعدين إلى غرفتكِ الآن، وستبقين هناك حتى أُخرجكِ الليلةَ لأداء عرضكِ، وإذا تفوَّهتِ بأيٍّ من تلك التُّرَّهات، فستندمين على ذلك!»

دفعها عبر الباب الصلب غير المَطليِّ للحُجيرة الصغيرة — التي تُسمَّى غرفة النوم — وتوقف في المدخل لتبليغ المعلومات (وكان ثَمَّة تهديد في طريقته) ممَّا تسبَّب في شحوب وجهها وهي تُحدِّق فيه.

نزلَت في تلك الليلة وأدَّت عرضها؛ ومما أثار دهشتها وارتياحها أنها لم تَلفِت حتى انتباهَ السيد سانتياجو الثري — وهو نصف إسباني ذو وجهٍ أصفر — ولم ينظر إليها كثيرًا.

كان السيد رافيرتي أيضًا لطيفًا ومُهذبًا على غير العادة.

ذهبَت إلى غرفتها في تلك الليلة وهي تشعُر براحة أكبر. ثم اكتشفت أن مفتاحها قد اختفى، وسهرَت حتى الساعة الواحدة صباحًا تنتظر، ما لم تضعه في حُسبانها. في تلك الساعة، سمعت وقْعَ أقدام في الممر؛ وحاول أحدٌ فتح مقبض بابها، لكنها كانت قد أسندَت كُرسيًّا تحت المقبض.

دفع الباب وأصدر الكرسيُّ المُتهالك صريرًا. ثم سُمِع صوتٌ كصوت عصًا تضرب وِسادة، وظنت أنها سمعت شخصًا تنزلق قدمه على الجدار الخارجي الخشبي للغرفة. وسمعت طرقًا على بابها.

قال الصوت: «آنسة هاكر.» فتعرَّفَت عليه على الفور، «افتحي الباب بسرعة. أريد أن أُبعدكِ.»

بيدٍ مرتعِشة، أزالت الكرسيَّ وقِطع الأثاث الصغيرة والقليلة التي كوَّمَتها على الباب، ثم فتحته. وعلى ضوء الشمعة المُشتعلة في غرفتها، تعرَّفَت على الرجل وهو زميلها الراكب معها على متن سفينة براجانزا.

قال: «تعالَي بهدوء. هناك سُلَّم خلفي للمبنى. هل لديك معطف؟ أحضريه، لأن أمامكِ رحلةً مسافتها ستُّون ميلًا بالسيارة قبل أن نصِل إلى السكة الحديد ...»

عندما خرجَت من الباب، رأَت أصابع قدمٍ مقلوبة رأسًا على عقب لشخصٍ ما راقد في الممر، وبارتجافٍ أدركَت أنه مَن أصدر صوت القرع الذي سمعته.

وصلا إلى الساحة الكبيرة خلف صالة لا بلازا المُزدحِمة بالسيارات المُغبرة لرعاة البقر ورؤساء عمَّالهم — الذين أتوا إلى المدينة للسهرة — ثم خرجا عبر المدخل. كانت هناك سيارة كبيرة تقف في منتصف الطريق أرشدَها إليها. نظرت للخلف مُلقيةً نظرةً واحدة على حانة رافيرتي. رأَت النوافذَ تشعُّ بالنور، وخرج صوتُ الفرقة الموسيقية خافتًا في هواء الليل الساكن، ثم أسقطت رأسها بين يدَيها وبكت.

عانى ليون جونزاليس من وخز ندمٍ مؤقَّت؛ لأنه كان من الممكن أن يُوفِّر عليها كل هذا.

مرَّ شهران بالتمام من اليوم الذي غادر فيه لندن حتى اليوم الذي أتى فيه صاعدًا على درج شقة شارع جيرمين، واقتحم المكان على مانفريد.

قال جورج، وهو يقفز ويُمسك بيده: «اكتسبت مظهرًا رياضيًّا ورائعًا يا ليون. لم تُراسلني وتوقعتُ ذلك أيضًا. عُدت من إسبانيا منذ يومَين فقط.»

أعطاه الأخبار من إشبيلية ثم قال:

«هل أثبَتَّ القضية؟»

قال ليون بصرامة: «بالقدْر الذي يُرضينا. على الرغم من أنني لم أستطع إثباتَ إدانة لين وفْقَ القانون. ولكنها قضية واضحة تمامًا. زرْتُ وكيله عندما كنتُ في بوينس آيرس، وأخذت حريتي في سرقة مكتبه في غيابه. وجدتُ عدة رسائلَ من لين. ومن خلال لهجتها، لا شكَّ أن لين يُشارك في عمليات الاتِّجار بالبشر بكامل وعيه.»

نظر كلٌّ منهما إلى الآخر.

وقال مانفريد: «البقية بسيطة، وسأتركك لتعمل على التفاصيل يا عزيزي ليون، وكُلي ثقة بأن السيد هومر لين سيندم أشدَّ ندمٍ لأنه حادَ عن الطريق المستقيم.»

لا أحد يُضاهي ليون جونزاليس في الاجتهاد أو دقَّة العمل أو إتقانه. صياغة العقوبة بالنسبة له عمل مُحبَّب إلى قلبه. لا يُوجَد جنرال يحرص على أدقِّ التفاصيل في التخطيط للمعركة أكثر من ليون.

قبل أن ينتهيَ اليوم، مشَّط الحيَّ الذي يعيش فيه السيد لين بحثًا عن كل معلومة ضرورية. وفي ذلك الوقت علِم بشغفِ السيد لين بالموسيقى. أحسَّ ليون أن سيارة الأجرة التي تعود به إلى شارع جيرمين لا تسير بالسرعة المرجوَّة، ومن ثم قفز حرفيًّا إلى غرفة الجلوس وهو يُغني من فرحته.

صرخ وهو يسير في شقته مثل رجل مجنون: «لا يُوجَد مُستحيل في قاموسي يا عزيزي جورج. اعتقدت أنني لن أتمكَّن من تنفيذ مُخطَّطي أبدًا، لكنه يُحب الموسيقى يا جورج! إنه يعشق الفونوغراف الشَّجي!»

اقترح مانفريد بلُطف قائلًا: «أعتقد أنك بحاجةٍ إلى تناول قليل من الماء المثلج.»

قال ليون: «لا لا، لا أشعر بالحرِّ بل بالبرودة، بل أشعر أنني الثلج نفسُه! ومن يتوقع مثل هذا الحظ السعيد؟ الليلة سوف نأخذ السيارة إلى هامبستيد وسنستمع إلى حفلته الموسيقية.»

مرَّ وقتٌ طويل قبل أن يُقدِّم وصفًا متماسكًا لما عِلمه. السيد لين لا يُحبه الكثير في الحي، وشرح ليون السبب.

استوعب مانفريد الأمر كلَّه في تلك الليلة عندما انكسر صمتُ الطريق الهادئ الذي يقع فيه المنزل المنعزل للسيد لين بصرير الأبواق وقرع الطبول وصليل الأجراس ودويِّ المدفع الزائف؛ كل ذلك التداخُل الموسيقي البربري الذي جعل مقطوعة ١٨١٢ ذائعةَ الصِّيت لدى غير الموسيقيِّين.

قال مانفريد مُتفاجئًا: «تبدو وكأنها فرقة حقيقية.»

سار شرطي على طول الطريق، وعندما رأى السيارة واقفةً أمام المنزل، أدار رأسه ضاحكًا وقال: «إنه صخبٌ مُروع، أليس كذلك؟»

قال مانفريد: «أتعجَّب من أنه لم يُوقظ الجميعَ من نومهم.»

أجاب الشرطي: «إنه كذلك بالفعل، أو كان كذلك حتى اعتادوا عليه. أظنُّ أنه أعلى جراموفون في العالَم. إنه يُشبه تلك الأشياء التي تُستخدَم في الأنفاق كي تُخبر الناس بالتحرُّك. إنه ستنتافون، أليس كذلك؟»

سأل مانفريد: «كم من الوقت يستمرُّ هذا الصخب؟ طوال الليل؟»

الشرطي: «لنحوِ ساعة على ما أعتقد؛ فالرجل الذي يعيش في ذلك المنزل لا يُمكنه النومُ من غير السماع للمُوسيقى. أعتقد أنه مُولَع بالفن بعض الشيء.»

قال ليون مُتجهمًا: «إنه كذلك.»

في اليوم التالي اكتشف أن هناك أربعةَ خدمٍ في المنزل، ثلاثة منهم ينامون داخله. كان السيد لين مُعتادًا على العودة إلى المنزل كل مساءٍ في حوالي الساعة العاشرة، باستثناء أيام الجمعة عندما يخرج من المدينة.

ليلة الأربعاء هي الليلة التي يقضيها الطاهي خارج المنزل، وهي أيضًا الليلة التي سُمِح فيها لساقي السيد لين وللخادم العامِّ بإجازةٍ مسائية. بقيت الخادمة، ولم يُشكِّل

وجودُها أيَّ عائق؛ بل تمثَّلت المشكلة الحقيقية في عودة كل هؤلاء الأشخاص إلى المنزل أو الحي في الساعة الحادية عشرة. قرَّر ليون تحديدَ موعده مع السيد لين ليلة الجمعة، وهو اليوم الذي عادةً ما يذهب فيه إلى برايتون. وقد شاهد الرجلَ اللطيف يُغادر فيكتوريا، ثم اتصل بمنزل لين.

سأله: «هل ذلك ماسترز؟»

فأجابه صوتُ رجل: «نعم يا سيدي.»

قال ليون وهو يُقلد الإنجليزية الركيكة والغريبة لمساعد لين المكسيكي: «معك السيد مانديز. سيعود السيد لين إلى المنزل الليلة في عمل مُهم للغاية، ولا يُريد أن يكون أيٌّ من الخدَم في المنزل.»

قال ماسترز ولم يَظهر عليه أنه قد تفاجأ على الإطلاق: «بالطبع يا سيدي.» من الواضح أن هذه التعليمات صدرَت من قبل. ولكن ليون توقَّع بعضَ الصعوبة هنا، فأَعَدَّ تفسيرًا مفصلًا للغاية لم يكن من الضروري تقديمه.

«ألا يُريدني أن أبقى يا سيدي؟»

قال ليون: «أوه، لا؛ أمر السيد لين بضرورة إخلاء المنزل من الخدَم على وجه الخصوص.» وأضاف لاحقًا: «وهو يُريد أن يبقى الباب الجانبي وباب المطبخ مفتوحَين.» لمعت هذه الفكرة مؤخرًا وبدَت رائعة إذا نجحت، وهذا ما حدث.

قال ماسترز: «حسنًا جدًّا يا سيدي.»

ذهب ليون مباشرةً من كابينة الهاتف التي أرسل منها الرسالة إلى الشباك وكتب برقيَّةً إلى لين، على العنوان في فندق ريتز، برايتون. وكان نصُّها كالآتي:

> عُثر على الفتاة جولدستاين في شجارٍ مُروِّع بسانتا في. كانت تُجري الشرطة التحقيقات. لديَّ معلومات مهمة جدًّا لك. أنا في انتظارك في منزلك.

ووقَّع باسم مانديز.

قال ليون عندما عاد إلى مانفريد الذي كان ينتظره خارج مكتب البريد: «ستصله البرقية في الساعة الثامنة. وثَمَّة قطارٌ عائد في الساعة التاسعة. لا بدَّ أنه سيأتي به إلى هامبستيد في العاشرة والنصف. وسنكون هناك قبل ذلك بساعة، أي حالَما يحلُّ الظلام.»

دخَلا المنزل دون أدنى صعوبة. وترك مانفريد سيارته ذات المقعدَين أمام منزل أحد الأطباء، وهو مكان لا تُلاحظ فيه سيارة غير مُراقَبة، وتوجَّها سيرًا على الأقدام إلى مقرِّ

إقامة لين. كان منزلًا كبيرًا منعزلًا، ومؤثَّثًا بأثاثٍ باهظ الثمن؛ وكما توقَّع ليون، فقد ذهَب الخدم. حدَّد موقع غرفة لين، وهي غرفة ذات مساحةٍ كبيرة في الجزء الأمامي من المنزل.

قال ليون مُشيرًا إلى خِزانةٍ جميلةٍ بالقُرب من النافذة: «ها هو صندوق ضوضائه. إنه يَعمل بالكهرباء أيضًا. إلى أين يقود هذا السلك؟»

تَبِع الانثناءَ إلى نقطةٍ فوق رأس السرير، حيث انتهى فيما يُشبه زرَّ جرس مُعلَّق.

احتار ليون في أمر الجرس للحظات، ثم أدرك حلَّ اللغز.

«بالطبع، إذا كان لديه هذا الضجيجُ الصاخب ليجعله ينام، فإن زرَّ الجرس يُطفئ الموسيقى ويوفر عليه النهوض من السرير.»

فتح غطاء خِزانة الجراموفون وفحص الأسطوانة.

حاول إخفاء ضحكه وقال: «١٨١٢.» ثم رفع الإبرة عن الأسطوانة، وأدار المفتاح ودارت الطاولة الخضراء. ومشى بعد ذلك إلى رأس السرير ودفع مقبض الجرس، فتوقَّف الدوران على الفور.

أومأ وقال: «ها هو.» ثم قلب علبة الصوت، وترك الإبرة على حافة الأسطوانة.

أشار إلى قضيبٍ من البرونز يمتدُّ من المركز إلى جانب الأسطوانة ومُجهز ببعض الإعدادات في علبة الصوت، وقال: «هذه أداة التَّكرار. إنه اختراعٌ أمريكي رأيتُه في بوينس آيرس، لكني لم أرَ الكثير منه في هذه البلاد. عند انتهاء الأسطوانة، ينقل القضيب الإبرة تلقائيًّا إلى بداية الأسطوانة.»

قال مانفريد باهتمام: «حتى يستمرَّ تشغيل الأسطوانة بلا توقُّف. لا عجب أن صديقنا مكروه.»

كان ليون يبحث في أرجاء الغرفة عن شيءٍ ما وفي النهاية وجدَ ما يبحث عنه. عثر على شماعة ملابسَ نُحاسية مُثبَّتة بالباب الذي يُؤدي إلى غرفة الملابس. وضع كلَّ ثقله على الشماعة لكنها ظلَّت ثابتة.

قال: «ممتاز.» ثم فتح حقيبته وأخرج منها حبلًا قويًّا وعقَد أحد طرَفَيه بمهارةٍ في شماعة الملابس، ثم اختبرها ولكنها لم تتحرَّك. ثم أخذ من الحقيبة زوجَين من الأصفاد، وفتح قُفلَه وفتح الأصفادَ ووضعها على السرير. ثم أخرج شيئًا يُشبه عصا المُشير. كان طولها نحوَ أربعَ عشْرة بوصة، ومُثبَّت حولها شريحتان عريضتان من نسيج اللبَّاد. وفي أحد طرَفَي الأسطوانة، ثُبِّت تسعة أسلاك. بلغ طول الأسلاك ضِعف طول المقبض، ولفَّها عليه بدقة وربطها مُؤقتًا في المقبض باستخدام قِطَع من الخيوط المفتولة.

نظر ليون إلى أحد طرفَي العصا ورأى مانفريد ختمًا أحمر، فقال: «يا ترى، ما هذا يا ليون؟»

أظهر له ليون الختم، وقرأ مانفريد:

«لجنة السجون.»

قال ليون: «ذلك هو ما يُعرَف بالعامية باسم «القط». بعبارة أخرى، «القط ذو الذيول التسعة» إنها أداةٌ موثوق بها وفَّرتُها بشيء من الصعوبة.»

قطع الخيط المفتول الذي يُثبِّت الأسلاك في المقبض وترك السيور التسعة تسقط بشكلٍ مُستقيم. أخذها مانفريد بين يدَيه وفحصها بفضول. كانت الأسلاك أرفع قليلًا من أسلاك النافذة العادية، لكنها كانت مجدولةً على نحوٍ أدقَّ: في نهاية كل سيرٍ كان هناك رباط من الحرير الأصفر بطول نصف بوصة تقريبًا.

أخذ ليون السلاح في يدَيه وجعل الحبال تُصفِّر حول رأسه.

شرح قائلًا: «صُنِع في سجن بينتونفيل، وأعتذر لأنني لستُ خبيرًا مثل الرجل الذي يستخدمه عادةً.»

أمسى الغسَقُ ظلامًا. وشقَّ الرجلان طريقهما إلى الطابق السُّفلي وانتظرا في الغرفة المُطلَّة على الصالة.

وفي تمام الساعة العاشرة والنصف سمِعا صوتَ دوَران مفتاحٍ في القُفل وانغلق الباب.

قال السيد لين بصوتٍ يعتريه القلق: «هل أنت هناك يا مانديز؟»

خطا ثلاثَ خطواتٍ نحوَ الباب ثم خرج جونزاليس، وقال: «مساء الخير يا سيد لين.»

أشعل الرجل الضوء.

رأى أمامه شخصًا يرتدي ملابس عادية، لكنه لم يتعرَّف عليه، لأن وجه الدخيل كان مُغطًّى بحجابٍ أبيض شبه شفاف.

لهث لين قائلًا: «من أنت؟ ماذا تريد؟»

قال ليون على الفور: «أريدك. قبل أن نستطرد في الحديث أكثرَ من ذلك، فإني أُحذرك يا سيد لين أنه إذا صرختَ أو إذا حاولتَ جذب الانتباه من الخارج، فسيكون هذا آخِرَ صوتٍ تُصدره على الإطلاق.»

سأل الرجل البدين مُرتجفًا: «ماذا تريد منِّي؟» ثم سقطت عيناه على مانفريد محجوبًا بشكلٍ مُماثل ومن ثَمَّ سقط على كرسي الصالة.

أمسك مانفريد بذراعه وقاده للطابق العلوي إلى غرفة نومه، حيث أُسدِلَت الستائر وكان الضوء الوحيد يأتي من مِصباح طاولة صغير بجانب السرير.

قال مانفريد: «اخلع معطفك.»

وأطاعه السيد لين.

«والآن صدريتك.»

طرح صدريته.

قال جونزاليس: «الآن، أعتذر لأنني يجب أن آخُذ قميصك.»

سأل الرجل بصوتٍ أجشَّ: «ماذا ستفعل؟»

«سأخبرك فيما بعد.»

وقف الرجل البدين، ووجهه ينتفض، عاريًا حتى الخصر، ولم يُبدِ مقاومةً عندما ألبسه مانفريد الأصفاد.

قاده إلى الباب حيث كانت شمَّاعة القبعات، وخلع ليون برشاقةٍ الطرفَ المفكوك من الحبل عبر الأسلاك وسحب يدَيه المُقيَّدتَين بإحكامٍ إلى أعلى.

قال جونزاليس: «الآن يُمكننا التحدُّث. سيد لين، تورَّطَت في اتِّجار بشع بالبشر في وقتٍ ما. كنتَ تُرسل نساءً — لم يكنَّ في بعض الأحيان أكثرَ من مجرد أطفال — إلى أمريكا الجنوبية. وكما تعلَم، عقوبة هذه الجريمة هي السجن وهذا.»

التقط العصا من حيث وضعها، ونفض الأسلاك المفكوكة. السيد لين انتابه الذُّعر وأخذ يُحدق وكأنه مسحور.

قال جونزاليس: «يُعرَف هذا بالعامية باسم «القطِّ ذي الذيول التسعة».» وأطلق صرير السيور حول رأسه.

انتحب الرجل قائلًا: «أُقسم لكما أني لم أعرف قَط. لا يُمكنكما إثبات التهمة ...»

قال ليون برويَّة: «لا أنوي إثباتها علنًا. لم آتِ إلا لأُثبت لك أنه لا يُمكنك خرقُ القانون والإفلاتُ من العقاب.»

بعد ذلك، بدأ مانفريد يُشغِّل الجراموفون، وملأ دويُّ الأبواق وقرع الطبول الغرفةَ بتناغمٍ طنَّان.

كان الشرطي نفسُه الذي تحدَّث إليه مانفريد وجونزاليس قبل بضع ليالٍ يسير بخطًى بطيئة أمام المنزل وتوقَّف للاستماع عابسًا. وكذلك كان أحد الجيران أيضًا.

قال صاحب المنزل المُتضرِّر: «يا له من ضجيجٍ يُصدره ذلك الشيء.»

وافقه الشرطي قائلًا: «أجل، إنه كذلك. أعتقد أنه بحاجةٍ إلى أسطوانة جديدة؛ إذ يبدو كما لو أن شخصًا يصرخ بشدة، أليس كذلك؟»

قال الجار مُتذمرًا: «لن يتغيَّر هذا الوضع أبدًا بالنسبة لي.» وتابع سيرَه.

ابتسم الشرطيُّ وأكمل سيرَه، ومن خلف نوافذ غرفة نوم السيد لين صدرت الإيقاعات الحماسية للنشيد الوطني الفرنسي ودوي المدافع، وصوت خوفٍ وألم صارخ لم يكن تشايكوفسكي مسئولًا عنه بالتأكيد.

الفصل الثامن

المسلوب من ماله

لم يُعثَر على سجلٍّ لنشر قصة بهذا العنوان في أي مجلة

في ليلة الأحد، يزدحم نادي مارتاوس دائمًا بأصحاب أعلى طبقةٍ اجتماعية، الذين يبقَون في المدينة خلالَ عطلة نهاية الأسبوع. يتميَّز نادي مارتاوس بإضاءته الخفيفة والمفارش البيضاء والزجاج والفِضَّة المُتلألئة والزهور العجيبة والطاولات الموضوعة بالقرب من الجدران على شكل متوازي الأضلاع على الأرضية اللامعة.

يَلقى الشبابُ والشابات، وكبار السن أيضًا، سعادةً غامرة في نادي مارتاوس، ولكن كلَّ شيء بثمنه. ولم يكن طول «الفاتورة» التي يُزيِّلها لويس النادل الرئيسي بالأحرف الأولى باسمه، أو التكلفة المُذهلة للنبيذ، أو الفراولة التي على شكل نصف التاج، هو ما يَضعُف أمامه الناس.

كان بإمكان جون إيدن أن يدفع فاتورة كلِّ ما يأكله أو يشربه أو يُدخنه في مارتاوس، وفي الحقيقة كان النادي نزيهًا بقدْر ما كان مرِحًا. لا يُمكن أن تجد حُزمة من بطاقات اللعب بين جنباته. يعرِف لويس كلَّ وجهٍ والتاريخَ وراء كلِّ وجه. ومقابل بضعة جنيهات، يمكن أن يُخبرك بالرصيد البنكي لكل مُرتادٍ من مرتادي النادي. لم يكن يعرف جون إيدن — آخر الأعضاء المُنضمِّين إلى النادي — لكنه خمَّن بذكاء.

رقص جون إيدن مع فتاةٍ غريبة، وهو أمر غير مُعتاد في مارتاوس؛ إذ عادةً ما تُحضِر معك شريكتك في الرقص، ولا تطلُب الرقص مع فتاةٍ غريبة تحت أي ظرفٍ من الظروف.

لكن ويلبي كان موجودًا في النادي. وجاك يعرف عنه القليل، رغم أنه لم يرَه منذ سنوات. يتبع ويلبي أحدثَ صيحات الموضة ويظهر بمظهر ذَوي الشأن. عندما التقى مصادفةً به، شعر جاك وكأنه من أبناء الريف. أمضى جاك ثمانيَ سنواتٍ في جنوب أفريقيا، ولكنه كان يشعر أنه غريب. لكن تصرَّف ويلبي بلُطف، وأصرَّ أن يُعرِّفه على ماجي فين. إنها فتاة جميلة ترتدي ملابس جميلة، وتتزيَّن بالجواهر الثمينة — بلغ ثمن عقدها من اللؤلؤ عشرين ألف جنيه إسترليني — ولذا انبهر بها جاك المسكين؛ وعندما اقترحت أن يذهبا إلى بينجلي، لم يكن ليحلُم بالرفض.

لَمَّا مرَّ عبر الرواق، اعتذر لويس — النادل الرئيسي — وأزال القليل من الزغب عن معطفه، وقال بصوتٍ غير مسموع لأحدٍ غير جاك: «لا تذهب إلى بينجلي.» وهذا تصرُّف سخيف ووقح بالطبع؛ مما دفع جاك إلى التحديق في وجهه.

مكث في بينجلي حتى الساعة السادسة صباحًا مُخلِّفًا شيكاتٍ من شأنها أن تمتصَّ كل قرشٍ جلَبه من أفريقيا، بل وأكثر بقليل. عاد إلى الوطن وهو يحلُم بمنزلٍ صغير وممارسة القليل من الرماية والقليل من صيد الأسماك وكتابة كتابه الخاص عن صيد الحيوانات الكبيرة، ولكنَّ أحلامه ذهبت أدراج الرياح عندما قلَب عامل القمار، بحركةٍ آلية وبابتسامة على شفتَيه المُحاطتين بلحيته، إحدى البطاقات وقال بالفرنسية:

«الفائز هو الورق الأحمر.»

ما تصوَّر جاك قطُّ أن بينجلي بيتٌ للقمار، وبالتأكيد لم يرَ مظاهر تدلُّ على أنه بيت للقمار عندما دخله. لم يعرف حتى أدخلَته تلك الجميلةُ إلى الغرفة الداخلية، حيث يلعبون لعبة المكسب من الخطين ثلاثين وأربعين (الأسود والأحمر) ورأى أنهم يُراهنون بمبالغ كبيرة، فبدأ يشعر بالتوتر. جلس إلى جانبها على الطاولة وراهن بمبلغٍ بسيط وفاز. واستمرَّ في الفوز حتى زادت رهاناته.

يتعامل أصحابُ بيت بينجلي بلُطفٍ بالِغ؛ إذ يقبلون التعامل بالشيكات. وفي الواقع، كانت لديهم نماذجُ شيكات جاهزة على ملء البيانات.

عاد جاك إيدن إلى الشقة التي أخذها في شارع جيرمين، التي تقع فوق شقة مانفريد وليون جونزاليس مباشرة، وكتب رسالة إلى شقيقه في الهند.

استيقظ مانفريد لَمَّا سمع صوت الرصاص. خرج إلى غرفة الجلوس مُرتديًا منامته ووجد ليون سبقه إلى هناك وينظر إلى السقف الذي تغيَّر لون بياضه بسبب رُقعةٍ حمراء صغيرة كانت تزداد اتساعًا.

خرج مانفريد وذهب إلى سُلَّم المبنى، ووجد مالك الشُّقَق مُرتديًا قميصه وبنطاله إذ سمع صوتَ الرصاص من شقته في الطابق السفلي، وقال: «اعتقدتُ أن الصوت صادرٌ من شقتك يا سيدي، لا بدَّ أنه في شقة السيد إيدن.»

لمَّا صعد الدرَج، أوضح أن السيد إيدن وافدٌ جديد إلى البلاد. وجد باب شقته مُغلقًا، لكن المالك أخرج مِفتاحًا وفتحه. رأَوا الأضواء مُشتعلة في غرفة الجلوس، وأدرك مانفريد القصة بنظرةٍ واحدة. رأَوا شخصًا جاثمًا ومُمدَّدًا على الطاولة والدم يقطُر من فوقها مُكوِّنًا بِركةً على الأرض.

تعامل جونزاليس مع الرجل تعاملًا عِلميًّا.

قال: «إنه ليس ميتًا. أظنُّ أن الرصاصة لم تَمس أي عضو حيوي.»

أطلق الرجل الرصاص على صدره؛ وبناءً على اتجاه الجرح، تيقَّن جونزاليس تمامًا أن الإصابات طفيفة. وضع ضمَّادة الإسعافات الأولية ورفعوه معًا على أريكة. ولمَّا غُطِّي الجُرح، نظر جونزاليس حوله ورأى رسالةً كشفت السر.

قال وهو يُمسك بها: «بينر، أتفهَّمُ أنك لا تُريد الإعلان عن أنَّ شخصًا حاول الانتحار في إحدى شققك.»

قال المالك بتعصُّب: «هذا آخِر شيء قد أريده في العالَم.»

«إذن، سأضع هذه الرسالة في جيبي. هلَّا اتصلتَ بالمستشفى وقلتَ إن لدينا حادثًا. لا تتحدَّث عن الانتحار. قل إن الرجل عاد مؤخرًا من جنوب أفريقيا، وكان يُعبئ مُسدَّسه وانطلقَت الرَّصاصة دون قصد.»

أومأ الرجل وغادر الغرفة على عجَل.

ذهب جونزاليس إلى مكان استلقاء إيدن، وفي تلك اللحظة انفتحت عينا الشاب. ظلَّ ينتقلُ بنظره من مانفريد إلى جونزاليس عابسًا وحائرًا.

قال ليون بصوتٍ رقيق وهو يميل على الرجل الجريح: «صديقي، لقد تعرضتَ لحادث، هل تفهمني؟ إنك لستَ مُصابًا إصاباتٍ مُميتة. في الواقع، أعتقد أن إصابتك طفيفة للغاية. ستأتي سيارة إسعاف من أجلك وستذهب إلى المستشفى وسأزورك يوميًّا.»

همس الرجل: «من أنت؟»

ابتسم ليون وقال: «أنا جارك.»

لهث إيدن بالكلمات قائلًا: «الرسالة!»

أومأ ليون قائلًا: «إنها معي في جيبي، وسأُعيدها لك عندما تتعافى. لقد تعرضتَ لحادث، هل تفهمني؟»

أومأ إيدن.

بعد ربع الساعة، وصلَت سيارة إسعافٍ من المُستشفى إلى الباب، وأخذت الشخص الذي حاول الانتحار.

قال ليون عندما عادا إلى شقتهما: «الآن سنكتشِف أصل ما حدث.» وبهدوء شديد فتحَ الظرف وقرأ.

سأل مانفريد: «ما الأمر؟»

«عاد صديقنا الشابُّ من جنوب أفريقيا بمبلغ سبعة آلاف جنيه إسترليني، جمعها في ثماني سنواتٍ من العمل الشاق. وخسِرها في أقلَّ من ثماني ساعاتٍ في بيتٍ للقمار لم يذكُر اسمَه. لم يخسر فقط كل الأموال التي يملكها ولكنه خسِر أكثرَ من ذلك، ويبدو أنه أعطى شيكاتٍ لسداد ديونه.»

حكَّ ليون ذقنه، وقال: «هذا يستلزم مزيدًا من التفتيش لغرفته. أتساءل هل يا تُرى سيعترض السيد بينر المدهش؟»

تمنَّى السيد بينر المدهش أن يُجري ليون البحث لأنه يتوقَّع زيارةً حتمية من الشرطة. أجرَيا البحث، وعثر ليون على دفتر شيكاتٍ كان يبحث عنه، مَطويًّا بعيدًا في الجيب الداخلي لبذلة جاك إيدن، وأحضره إلى غرفته.

قال بخيبةِ أمل: «لا تُوجَد أسماء، بل لا تحتوي أرومة كل شيكٍ سوى على «المبلغ». وكلها — على ما أعتقد — للشخص نفسِه. إنه يتعامل مع البنك الوطنيِّ الثالث لجنوب أفريقيا، والبنك له فرع في شارع ثروجمورتون.»

نسَخ أرقام الشيكات بعناية، وكانت عشرة في مجموعها.

قال: «أولًا وقبل أي شيء، بمجرد أن يفتح مكتب البريد سنُرسل برقية إلى البنك لإيقاف سداد هذه المبالغ. بالطبع قد يُقاضى الرجل، لكن دَين القمار لا يُمكن استرداده بموجَب القانون؛ وقبل أن يحدُث ذلك سنشهد العديد من التطوُّرات.»

حدث التطور الأول بعد ظهر اليوم التالي. سبق أن أعطى ليون تعليمات بأن أيَّ شخصٍ يسأل عن السيد إيدن يجب أن يُعرَض عليه. في الساعة الثالثة، ظهر شابٌّ يرتدي ملابسَ أنيقة للغاية يلفظ حرف الهاء بملء أنفاسه بتركيزٍ مُريب، وقال: «هل هذه شقة السيد إيدن؟»

قال جونزاليس: «لا، إنها ليست كذلك. إنها شقَّتي أنا وصديقي ونحن نتصرَّف باسم السيد إيدن.»

عبس الزائر مُرتابًا في وجه ليون، وقال: «تتصرَّفان باسمه؟ حسنًا، ربما يُمكنكما إعطائي بعض المعلومات حول بعض الشيكات التي تمَّ تعليقها. ذهب مديري لصرفها هذا الصباح، ورفض البنك الدفع. هل يعرف السيد إيدن كلَّ شيءٍ عن هذا؟»

سأل ليون بلُطف: «مَن مُديرك؟»

«السيد مورتيمر بيرن.»

«وما عنوانه؟»

أعطاهما الشابُّ إيَّاه. وكان السيد مورتيمر بيرن على ما يبدو مُتعهد كمبيالات، وغطَّى شيكاتٍ لعددٍ من الأشخاص الذين لم يرغبوا في تمريرها عبر بنوكهم. شدَّد الشاب على أن الشيكات ملك لعددٍ كبير من الناس.

ليون موافقًا له: «وقد أتَوا جميعًا إلى السيد بيرن. يا لها من مُصادفة فريدة.»

قال مبعوث السيد مورتيمر بيرن، وكانت نبرة صوته غير لطيفة: «أُفضل أن أرى السيد إيدن، إذا كنتما لا تُمانعان.»

ليون: «لا يُمكنك رؤيته لأنه تعرَّض لحادث. لكنني سأرى سيدك بيرن.»

وجد السيد بيرن في مكتبٍ صغير جدًّا في شارع جلاسهاوس. لم يكن عمل السيد المحترم محدَّدًا سواء على لوحة الباب أو على النافذة المَطلية، لكن ليون اشتمَّ رائحة «مُقرِض أموال» لحظة دخوله إلى مكتبه.

وجد المكتب الخارجي شاغرًا عندما دخل، ورأى خِزانة صغيرة مُغبَرَّة في مكانٍ لا يتَّسع إلا لطاولة شديدة الصغر، وتقلصت المساحة أكثرَ بحاجزٍ خشبي مُرتفع أعلى الرأس، بحيث يحجب الشخصَ التعيس الذي شغَل الغرفة عن الهواء وعن المشاهدة المباشرة. ثَمة بابٌ مكتوب عليه «خاص» يُؤدي إلى قدسِ أقداسِ السيد بيرن، ومن هذه الغرفة سُمِعَت الأصوات العالية.

استمع جونزاليس.

زأر أحدُ الأصوات قائلًا: «... تعالَ دون اتصالٍ هاتفي، هل فهمت؟ إنها تأتي في الصباح دائمًا، ألم أُخبرك مائة مرة؟»

قال الآخر مُتذمرًا: «إنها لا تعرفني.»

«إنها لم ترَ سوى شعرك ...»

في تلك اللحظة، خرج الشابُّ الذي توقَّف في شارع جيرمين من الغرفة. وألقى جونزاليس نظرةً سريعة على رَجُلَين؛ أحدهما قصير وبدين، والآخر طويل، لكن شعره

الأحمر اللامع هو الذي لفت انتباهَ ليون. ثم عاد موظف السيد بيرن إلى الغرفة وتوقَّفت الأصوات. عندما أوصل جونزاليس إلى المكتب، لم يرَ سوى مالكِ المؤسَّسة.

بيرن رجلٌ أصلع وبدين ولطيف للغاية. أخبر ليون القصة نفسَها التي رواها موظَّفه.

سأل بيرن في النهاية: «الآن، ما الذي سيفعله إيدن بشأن هذه الشيكات؟»

قال ليون بلُطف: «لا أعتقد أنه سيُوفي بها، فهي — كما ترى — ديون مقامرة.»

قاطعه بيرن قائلًا: «إنها شيكات، والشيك هو الشيك سواءٌ أكان لِدَين مقامرةٍ أو شُوال من البطاطس.»

سأل ليون: «أليس هذا مُخالِفًا للقانون؟ وإن لم يكن مُخالفًا، فهلا كتبتَ لي رسالةً بهذا الغرض، وفي هذه الحالة سيُدفَع لك.»

قال السيد بيرن: «بالتأكيد سأفعل. إذا كان هذا كل ما تُريده، سأكتبها الآن.»

قال ليون: «هيا اكتب.» لكن السيد بيرن لم يكتب الرسالة، بل تحدَّث عن مُحاميه؛ إذ يستشيط سخطُه على الشخصية التي لا تتمتَّع بالروح الرياضية لدى مَن يتنصَّل مِن ديون الشرَف (لم يشرح كيف أصبح مُقتنعًا بأن الشيكات تُمثِّل خسائرَ المقامرة) وأنهى المُقابلة ببعض الغضب. ظل ليون يتكهَّن بهُوية الرجل الثالث الذي رآه، الذي من الواضح أنه غادر الغرفة عبر أحد الأبواب الثلاثة للمكتب.

نزل ليون على الدرَج الضيِّق إلى الشارع، وبينما يمشي على الرصيف، اقتربَت سيارة صغيرة ونزلت منها فتاة. لم تنظُر إليه، ولكنها مرَّت بجواره صاعدةً الدرَج. كانت وحدَها، وهي التي قادت سيارتها الكوبيه الفاخرة. انتظر جونزاليس — المُهتم — حتى خرجت. لم يستغرق الأمر أكثرَ من عشرين دقيقة، ومن الواضح أنها كانت حزينة.

انتاب ليون الفضولُ والاهتمام. وذهب مباشرة إلى المستشفى الذي نُقل إليه إيدن، ووجد الشابَّ تعافى بالقدْر الذي يُمكِّنه من الحديث.

وكانت كلماته الأولى تنمُّ عن قلقه وندمِه.

«عجبًا، ماذا فعلتَ بهذه الرسالة؟ لقد كنتُ أحمقَ …»

قال ليون: «لقد تخلَّصتُ منها.» وهذا ما فعله في الحقيقة. ثم أضاف: «الآن يا صديقي الشاب، يجب أن تُخبرني بشيء. أين كان بيت القمار الذي ذهبتَ إليه؟»

استغرق الأمر وقتًا طويلًا لإقناع السيد جون إيدن بأنه لم يَخُن الثقة، ثم أخبره القصة كاملةً من أولها إلى آخرها.

قال ليون مُفكرًا: «إذن كانت سيدة هي مَن أخذتك إلى هناك، أليس كذلك؟»

قال جون إيدن بسرعة: «لم تكن مُشترِكة في الأمر، فهي مجرد زائرة مثلي. وأخبرتْني أنها خسرَت خَمسمائة جنيه.»

قال ليون: «بالتأكيد، بالتأكيد. هل هي سيدة جميلة بعيونٍ شديدة الزُّرقة، وهل تمتلك سيارة صغيرة؟»

بدا الرجل مندهشًا.

وقال: «نعم، اصطحبَتْني في سيارتها، وهي بالفعل جميلة وعيناها زرقاوان. في الواقع، إنها من أجمل الفتيات اللاتي رأيتُهن على الإطلاق.» ثم قال وهو يهزُّ رأسه: «لا داعي للقلق بشأن السيدة يا سيدي. الفتاة مسكينة كما أنها ضحية خُدعة، إذا كان في الأمر ثَمَّة خداع.»

«أعتقد أنك قلتَ ١٩٦ شارع بول، مايفير.»

قال إيدن: «أنا مُتأكد أنه كان شارع بول، وعلى يقينٍ تقريبًا من أنه كان رقم ١٩٦. لكن آمُل ألَّا تتخذ أيَّ إجراءٍ ضدهم، لأنه كان خطَئي أنا.» ثم سأل فجأة: «ألستَ أحدَ السيِّدَين اللذين يعيشان في الشقة التي تحت شقتي؟»

أومأ ليون.

«أظن أن الشيكات قُدِّمت، وأن بعضها رجع.»

قال ليون: «لم تُقدَّم بعد، أو لم تُقبَل بأي حالٍ من الأحوال. ولو أطلقتَ النار على نفسك يا صديقي الشاب، ما قَبِلَها على الإطلاق؛ لأن البنك الذي تتعامل معه سيُوقف الدفع تلقائيًّا.»

تناول مانفريد العشاء وحدَه في تلك الليلة. ولم يعُد ليون، ولم تكن هناك أخبار عنه حتى الساعة الثامنة. عندما جاء مرسالُ المقاطعة بملاحظةٍ يطلُب فيها من مانفريد أن يُعطيَ لحاملها ملابسه وشيئًا أو شيئين من الأشياء التي ذكرَها.

كان مانفريد معتادًا جدًّا على طرُق ليون جونزاليس فلم يتفاجأ كثيرًا. حَزَم حقيبةً صغيرة، وأرسل الصبي بها. أما هو نفسُه، فقد أمضى المساء في كتابة الرسائل.

في الساعة الثانية والنصف، سمع شجارًا خفيفًا في الشارع بالخارج. دخل ليون دون تسرُّع، ولم يكن منزعجًا بأي حالٍ من الأحوال، على الرغم من أنه خرج لتوِّه من مواجهةٍ عنيفة مع شابٍّ مكث يُراقب المنزل طوال المساء انتظارًا لعودته.

لاحظ مانفريد أنه لا يرتدي ملابس المساء، بل يرتدي الملابس التي ارتداها عندما خرَج في الصباح.

«هل وصلَتك حقيبتُك كما أردت؟»

أجاب ليون: «أوه نعم، تمامًا.»

أخذ عودًا قصيرًا من جيب بنطاله، العود مصنوع من جِلد وحيد القرن، ويُسمَّى في جنوب أفريقيا «الشامبوك». يبلغ طول العود نحوَ قدمٍ ونصف القدم، لكنه سلاح مُرعب، وهو أحد الأشياء التي طلبها ليون. ثم فحصه في الضوء.

قال: «لا، لم أقطع رأسه. كنتُ خائفًا من فعل ذلك.»

«مَن كان هذا؟»

قبل أن يُجيب، أطفأ ليون الضوءَ وفتح ستائر النافذة المفتوحة ونظر للخارج. ثم عاد وأسدل الستائرَ وأشعل المصباح مرة أخرى.

قال: «لقد رحل، لكنني لا أعتقد أن الأمر سيتوقَّف عند هذا الحد.»

شرِب كوبًا من الماء وجلس بجانب الطاولة وضحك.

قال: «هل تُدرك يا عزيزي مانفريد أنَّ لنا صديقًا هو السيد فير — مفوض الشرطة — وأنه يزورنا أحيانًا؟»

ابتسم مانفريد وقال: «أُدرك ذلك جيدًا. عجبًا، هل رأيته؟»

هز ليون رأسه.

«لا، رآه آخرون وظنُّوا أنني من شرطة العاصمة. كذلك أُتيحَت لي الفرصة لمُقابلة صديقنا السيد بينجلي، وظلَّ هو ومن يعملون معه مُقتنعين تمامًا أنني الشخصُ المشهور في لندن باسم «المُنشق» — بعبارة أخرى مُحقِّق — وثمة اعتقاد مُنتشر أنني منخرِط في أعمال قمع بيوت القمار. ومن هذا المنطلق، حَظِيتُ باهتمامٍ طفيف. ولذلك فالحقيقة هي أنني تحت المُراقبة. أدركتُ تلك الحقيقة وأنا في طريق عودتي إلى شارع جيرمين اليوم؛ لحسن الحظ أنني نسيتُ أن أُخبر سائق سيارة الأجرة بمكان التوقُّف، فتجاوز المُراقبين قبل أن أتمكن من إيقافه.»

وصف زيارته إلى المستشفى ومُقابلته مع السيد بيرن.

«يمتلك بيرن — الذي هو في الواقع بينجلي — ثلاثة بيوت قمار كبيرة وربما أكثر في لندن، أو على أقل تقدير هو القوة المالية التي تقف وراءها. لا أظن أنه يتردَّد على أيٍّ منها بنفسه. يقع بيت القمار في مايفير، وبالطبع وجدتُه مغلقًا الليلة ولم أحاول تحديد مكانه. خَشُوا أن يُبلِّغ صديقنا المسكين الشرطة. لكن يا عزيزي مانفريد، كيف يُمكنني أن أصف لك جمال ذلك المنزل البهيج في طريق بايزووتر، إذ يجتمع فيه الأثرياء وعلية القوم في لندن كل ليلة ليُجربوا حظهم في لعبة الباكاراه.»

سأل مانفريد: «كيف وصلتَ إلى هناك؟»

أجاب جونزاليس ببساطة: «أُخِذت إلى هناك. ذهبتُ لتناول العشاء في نادي مارتاوس. وتعرفت على السيد ويلبي ورحبتُ به كصديقٍ قديم. أعتقد أنه جال في خَلدِه حقًّا أنه قابلني قبل أن أذهب إلى الأرجنتين وأصنع ثروتي. وبالطبع جلس معي وشربنا المشروبات الكحولية وقدَّمني إلى فتاةٍ رائعة الجمال لديها سيارة صغيرة مُنجَّدة بالكامل.»

«ألم يتعرَّف عليك أحد.»

هزَّ ليون رأسه.

وقال دون أن يتخلَّى عن كبريائه: «لم يستطع أن يُفرِّق بين الشارب الذي وضعتُه على وجهي والشارب الحقيقي. لقد وضعتُه شعرةً بشعرة، واستغرق وضعُه ساعتَين. ولو رأيتني حين أتممتُ وضعه، لما تعرَّفتَ عليَّ. رقصتُ مع مارجريت الجميلة.» ثم تردَّد في حديثه: «ثم ...»

قال مانفريد بإعجاب: «مارستَ الحبَّ معها.»

هز ليون كتفَيه.

قال بجِدية: «عزيزي مانفريد، كان ذلك ضروريًّا. ومن حُسن حظي أنني كنتُ أحمل في جيبي خاتمًا من الألماس أحضرتُه من أمريكا الجنوبية. كلَّفني الخاتمُ مائة وعشرة جنيهات في شارع ريجنت بعد ظهر اليوم. وكم كان رائعًا أنه ناسبها. لم تكن في أفضل حالاتها كذلك حتى قدمتُ الخاتم لها. دفعته ثمنَ دخولي إلى مؤسَّسة بايزووتر.» ثم قال بتواضع: «اصطحبتني إلى هناك بسيارتها، ولم أرجع من هناك خاليَ الوفاض.» ووضع يدَه في جيبه وأخرج حُزمةً كبيرة من الأوراق النقدية.

كان مانفريد يضحك بهدوء.

ليون أذكى مُتلاعبٍ بالأوراق في أوروبا؛ فقد كانت أصابعه الرقيقة الطويلة، والسرعة المُذهلة التي يمكن أن يُحركها بها، وموهبته الطبيعية في إخفاء الأوراق في راحةِ يده، كل هذا كفيل بجعله يَجني ثروةً كثروةِ مُحضِّري الأرواح أو الغشاشين المُحترفين.

أوضح ليون: «لعبنا الباكاراه والأوراق وُضِعت في صندوقٍ ووزَّعها مُوزِّع أوراق بارع. بدأ يُلقي الأوراق المُستخدَمة في وعاء. أما التي وُضعت في الحقيبة، كانت بالطبع مُرتَّبة بعناية لدرجة أن موزع الورق يعرف تسلسُلَها كلها. الحصول على دستة من البطاقات من الوعاء أمر بسيطٌ إلى حدٍّ ما، وكذلك لم يصعُب التمشِّي في الغرفة وإعادة

ترتيب الأوراق بحيث تَئول اللعبة لصالح اللاعب أو ضدَّه، لكن الصعب كان وضْعها أعلى الأوراق التي يُوزعها. إنني فنانٌ يا عزيزي مانفريد!»

لم يشرح ليون الشكل الذي اتَّخذته مهارتُه في اللعب، ولا كيف صرف انتباه مُوزع الورق والجمع بعيدًا عن «الأوراق» لهذا الجزء الضروري من الثانية. نادرًا ما كان مُوزِّع الورق يرفع يدَيه عن البطاقات، ولكن نتائج مغامرته ظهرت في الكومة السميكة من الأوراق النقدية الموضوعة على الطاولة.

خلع معطفه ولبس سترته المخملية القديمة، ومشى جيئة وذهابًا في أرجاء الغرفة ويداه في جيوبه.

قال بهدوء: «مارجريت فين. واحدةٌ من أجمل خلق الله يا جورج، جمال فتَّان، وموهوبة، ولكن إذا كانت كما ظهرتْ لي، فيا لكراهة أن ...»

هزَّ رأسه حُزنًا.

سأل مانفريد: «هل تلعب دورًا كبيرًا، أم إنها مجرد مُغفلة؟»

لم يردَّ ليون على الفور، ثم قال ببطء: «أنا محتار بعض الشيء.» وروى تجربته في مكتب السيد بيرن، ونظرته الخاطفة للرجل ذي الشعر الأحمر وغضب السيد بيرن منه.

«لا أشك في أن الضمير «هي» الذي تلفَّظ به يُشير إلى مارجريت فين. لكن هذا وحده لا يهز إيماني بأنها مُذنِبة. بعد أن غادرت منزل بايزووتر، قررتُ أن أكتشف المكان الذي تعيش فيه. لكنها تهرَّبَت بمهارة من أي سؤال طرحتُه عن مسكنها لدرجةٍ أشعَرَتني بالرِّيبة. استأجرتُ سيارة أجرة وانتظرت، وجلست في الداخل، ومن ثَم تبعتُها فورَ خروجها بسيارتها. يمتلك السيد بيرن منزلًا في ميدان فيتزروي. وصلَتْ إلى هناك بسيارتها وكان ثَمَّة رجلٌ ينتظر في الخارج ليأخذ سيارتها، ثم ذهبت مباشرةً إلى المنزل ودخلت. في هذه اللحظة، بدأتُ أعتقد أنها وبيرن صديقان وبينهما علاقة أوطدُ مما اعتقدت.

قررتُ الانتظار، وأوقفت السيارة على الجانب الآخر من الميدان. وفي غضون ما يقرُب من ربع الساعة خرجَت الفتاة، ولدهشتي خرجَت بملابس أُخرى. تركتُ سيارة الأجرة وتابعتُ سيري على الأقدام ووجدت أنها تعيش في ٨٠٣ شارع جاور.»

قال مانفريد موافقًا إيَّاه: «إن ذلك مُحير بالتأكيد. لا تبدو الأمور مُترابطة يا ليون.»

أومأ ليون، وقال: «هذا ما أعتقده. أنا ذاهب إلى ٨٠٣ شارع جاور صباح الغد.»

لم يكن جونزاليس بحاجةٍ إلا إلى القليل من النوم، وفي الساعة العاشرة كان يمشي على قدمَيه.

أحضر تقريرًا مثيرًا للاهتمام لمانفريد.

«اسمها إلسي تشوسر، وتعيش مع والدها المصاب بالشلل في كِلتا ساقَيه. لديهما شقةٌ وخادمة ومُمرِّضة مُهمَّتها رعايةُ والدها. ولا يُعرَف عنهما شيء سوى أنهما يعيشان في حالٍ أفضل. يقضي الأبُ يومَه مع حُزمة من أوراق اللعب، ويعمل على نظامٍ للقمار، وربما يُفسِّر ذلك فقرَهُما. لا يراه الزائرون أبدًا، ويعتقد الناس أن الفتاة مُمثلة؛ أي هذا ما تظنه صاحبة المكان.» قال جونزاليس مُفكرًا: «إن الحل، بالطبع، في بيت بيرن وفي ذهن بيرن.»

«أعتقد أننا سنصِل إلى ذلك يا ليون.»

أومأ ليون.

وقال: «لذلك أعتقد أن مؤسسة السيد بيرن لا تُمثِّل أي صعوبات مُستعصية.»

تَواجَد السيد بيرن في المنزل في تلك الليلة. إنه يمكث في المنزل مُعظمَ الليالي. جلس بارتياحٍ على كرسيٍّ عميق بذراعَين، ودخَّن سيجارًا طويلًا وباهظ الثمن، وقرأ جريدة لندن جازيت؛ إذ كانت أمتعَ مقطوعة أدبية وفَّرها له عبقري كاكستون.

في منتصف الليل، دخلت عليه مُدبرة منزله. إنها امرأةٌ فرنسية في منتصف العمر ومتحفِّظة.

تساءل السيد بيرن مُتكاسلًا: «أكلُّ شيء على ما يُرام؟»

«كلَّا يا سيدي، أريدك أن تتحدَّث إلى تشارلز.»

تشارلز سائق السيد بيرن، ولا ينفكُّ عن الشجار مع مُدبِّرة شئون المنزل.

سأل السيد بيرن بعبوس: «ما الذي فعله تشارلز؟»

أوضحت السيدة قائلةً: «يدخل إلى المطبخ لتناول العشاء كلَّ مساء، وأخبرته بضرورة إغلاق الباب بعد خروجه. ولكن يا سيدي، عندما ذهبتُ هذا المساء في الساعة الحادية عشرة كي أُوصِد الباب، لم يكن مُغلقًا. ولو لم أُشعِل الأضواء ورأيتُ ذلك بأم عينَيَّ، لتُرِك الباب مفتوحًا ولربما قُتِلنا في أسِرَّتنا.»

دمدم السيد بيرن قائلًا: «سأتحدَّث معه في الصباح. هل تركتِ باب غرفة الآنسة مفتوحًا؟»

«نعم يا سيدي، المفتاح في القفل.»

قال السيد بيرن مُستأنفًا قراءته: «ليلة سعيدة.» وفي الثانية والنصف سمع باب المنزل يُغلَق برفقٍ ومرَّت خطوات خفيفة عبر الصالة. نظر إلى الساعة، وألقى طرفَ

سيجاره بعيدًا وأشعل سيجارًا آخر قبل أن ينهض ويذهب مُتثاقلًا إلى خزنة الحائط. فتحها وأخرج صندوقًا فولاذيًّا فارغًا، فتحَهُ ووضعه على الطاولة. ثم رجع إلى كُرسيِّه.

وعلى الفور سُمِع طرقٌ خفيف على الباب.

قال السيد بيرن: «ادخل.»

دخلت الفتاة التي يُناديها مرةً باسم فين ومرة باسم تشوسر. كانت ترتدي ملابسَ أنيقة ولكنها ليست مُترَفة. من نواحٍ كثيرة، عزَّزَت بساطةُ زي الشارع الذي ترتديه جمالَها الفريد، ونظر السيد بيرن باستحسانٍ إلى شكلها المُفعم بالحيوية.

قال: «اجلسي يا آنسة تشوسر.» ومدَّ يدَه طلبًا للحقيبة الكتان الصغيرة التي تحملها. فتحها وأخرج حبلًا من اللؤلؤ، وفحص كلَّ جوهرةٍ على حِدَة.

قالت بازدراء: «لم أسرق أيًّا منها.»

قال السيد بيرن: «ربما لم تَفعلي، لكنني عرَفتُ بحدوث بعض الأشياء المضحكة.»

أخذ الدبُّوس الماسي، والخواتم، والسوارَين الماسيَّ والزمردي؛ وفحص كُلًّا منهما قبل إعادتهما إلى الحقيبة، ووضع الكيس في الصندوق الفولاذي.

لم يتكلَّم حتى وضعها في الخزنة، ثم سأل: «حسنًا، كيف تسير الأمور الليلة؟»

هزَّت كتفَيها وقالت باختصار: «أنا لا أهتمُّ بالمُقامرة.» وضحك السيد بيرن ضحكةً خافتة، قائلًا بصراحة: «إنكِ حمقاء.»

قالت إلسي تشوسر بمرارة: «أتمنَّى لو لم أكن أسوأَ من ذلك. أتريد منِّي شيئًا آخر يا سيد بيرن؟»

أمرها قائلًا: «اجلسي. مَن وجدتِ الليلة؟»

للحظةٍ لم ترُد، ثم قالت: «الرجل الذي قدَّمه ويلبي في الليلة الماضية.»

بدا السيد بيرن قلقًا، وقال: «ذلك الذي من أمريكا الجنوبية؟ لم يكن مُربحًا للغاية. أعتقد أنكِ تعرفين ذلك؟ لقد خسِرنا حوالي أربعة آلاف جنيه.»

قالت الفتاة: «دون حساب الخاتم.»

قال السيد بيرن وهو يهزُّ كتفَيه: «الخاتم الذي أعطاكِ إيَّاه؟ حسنًا، هذا يُساوي مائة جنيه تقريبًا، وسأكون محظوظًا إن حصلتُ مقابله على ستِّين جنيهًا. يُمكنك الاحتفاظ بهذا الخاتم إذا أردتِ.»

قالت الفتاة بهدوء: «لا، شكرًا لك يا سيد بيرن. لا أريد هذا النوع من الهدايا.»

قال بيرن فجأة: «تعالَي هنا.» ودارت حول الطاولة على مضَض ووقفت أمامه.

نهض وأمسك يدَها، قائلًا: «إلسي، أنا مولَع بكِ وكنتُ صديقًا جيدًا لكِ، كما تعلمين. إن لم يكن من أجلي، فما الذي ربما حدث لوالدكِ؟ ربما شُنِق! هل شنقُه لطيفٌ في نظركِ؟»

لم ترُدَّ لكنها أفلتَت يدَها بلُطف.

«لا تُريدين التخليَ عن تلك المجوهرات والملابس الجميلة كل ليلة، إذا كنتِ واعية.» وتابع: «أيضًا ...»

قالت الفتاة: «لحُسن الحظ أنني واعية، إذا كنتَ تعني بواعيةٍ أن أكون عاقلة. والآن أعتقد أنني سأذهب إذا كنتَ لا تُمانع يا سيد بيرن. أنا مُتعبة بعض الشيء.»

قال: «انتظري.»

مشى إلى الخزنة، وفتحها مرةً أخرى وأخرج علبة مُستطيلة ملفوفة بورقٍ بُنِّي، ومُثبَّتٍ بأشرطة ومختوم.

قال: «تحتوي العلبة على قِلادة من الألماس. إنها تُساوي ثمانية آلاف جنيه وإنها تستحقُّ كلَّ فلسٍ من هذا المبلغ. سأضعها في الخزانة الحديدية الخاصة بي في البنك غدًا، إلا إذا ...»

كرَّرَت الفتاة بثبات: «إلا إذا ...»

قال السيد بيرن: «إلا إذا كنتِ تُريدينها. أنا أحمقُ مع السيدات.»

هزَّت رأسها.

وقالت بهدوء: «هل يخطر ببالك يا سيد بيرن أنه كان بإمكاني الحصولُ على العديد من القلائد لو أردتُ ذلك؟ لا، شكرًا. إنني أتطلَّع إلى إنهاء عبوديتي.»

قال السيد بيرن مُتذمرًا وهو يُعيد العلبة إلى الخزنة ويُغلق الباب: «وافترضي أنني لم أُطلِق سراحَكِ؟ افترضي أنني أُريدكِ لثلاث سنواتٍ أخرى؟ ما رأيكِ في ذلك؟ ما زال والدكِ عُرضةً للقبض عليه. لا يمكن لرجلٍ أن يبطش برجلٍ آخر، حتى لو كان مجردَ مُوزع أوراق في لعبة قمار، دون أن يُشنَق جرَّاء فعلته.»

قالت الفتاة بصوت مُنخفض: «لقد دفعتُ ثمن حماقة والدي، مرارًا وتَكرارًا. أنت لا تعرف كيف أكرهُ هذه الحياة يا سيد بيرن. أشعر بأنني أسوأُ مِن أسوأِ امرأةٍ في العالَم! أمضيتُ حياتي في إغواء الرجال حتى يُدَمَّروا، ليتني لم أعقد هذه الصفقة مُطلقًا. أحيانًا أعتقد أنني سأُخبر والدي بأي حالٍ بما أدفعه مقابل سلامته، وأدَعُه يُقرِّر ما إذا كانت تلك السلامة تستحق تضحيتي!»

في لحظة، كسَت نظرةٌ من القلق وجه الرجل، وقال بجِدة: «لن تفعلي شيئًا كهذا. فلتَسِر الأمور كما اعتدنا! كنت فقط أمزح بشأن مُطالبتك بالبقاء.» ثم قال مازحًا: «الآن يا عزيزتي من الأفضل أن تذهبي إلى المنزل وتجعلي جمالَك يحظى ببعض النوم.»

سار معها إلى الباب، ورآها وهي تنزل الدرَج وشاهدها تختفي في ظلام الشارع، ثم عاد ليُغلق الأبواب لليلة. وشرب نصف كوب الويسكي الذي كان قد تركه، فتجهَّم وجهه وقال: «هذا الويسكي مذاقه غريب.» ومشى خطوتين نحو الممرِّ وسقط بلا حَراك.

جاء الرجل الذي تسلَّل إلى الغرفة عندما اصطحب إلسي تشوسر إلى الباب مِن خلف الستارة وانحنى وفكَّ زرَّ ياقته. دخل بهدوء إلى المَمر ذي الإضاءة الخافتة وأشار إلى آخر، فجاء مانفريد من الظلِّ بلا ضوضاء؛ حيث كان يرتدي حذاءً مطاطيًّا واقيًا.

ألقى مانفريد نظرة خاطفة على الرجل الفاقد للوعي ثم على بقايا الشراب في كأسِ الويسكي.

«إنه كلوريد البيوتيل، أليس كذلك؟»

قال ليون العمَلي: «لا أكثر ولا أقل. إنها في الحقيقة «قطَراتُ الضربة القاضية» الشهيرةُ للغاية في الأوساط الإجرامية.»

فتش الرجل، وأخرج مفاتيحه، وفتح الخزنة وأخرج الطرد المختوم، وحمله إلى الطاولة. ثم نظر بتمعُّن إلى الرجل المنبطح.

«سيبقى تحت تأثير «القطرات» لمدة خمس دقائق يا مانفريد، لكني أعتقد أننا لا نحتاج إلى أكثرَ من هذه المدة.»

سأل مانفريد: «هل توقَّفت للتفكير في النتائج المَرضية لهذا «التخدير» باستخدام أعلى جرعة من البيوتيل؟ رأيتك تمزج الهيوسين بالمورفين قبل أن نُغادر شارع جيرمين وأفترض أن هذا هو ما تستخدمه؟»

أجاب جونزاليس غيرَ مُبالٍ: «لم أبحث في الأمر؛ وإذا مات، فهل أبكي؟ أعطِه جرعةً أخرى بعد نصف الساعة يا جورج. سأعود بحلول ذلك الوقت.»

أخذ من جيبه حقيبةً سوداء صغيرة وفتحها. كانت المحقنة تحت الجلد مُمتلئة بالفعل؛ فشمَّر كم الرجل، وأدخل الإبرة وضغط بشدَّة على المكبس.

استيقظ السيد بيرن في صباح اليوم التالي مُصابًا بصداعٍ قوي.

لم يتذكَّر كيف نام، لكن من الواضح أنه خلع ملابسه؛ لأنه يرتدي منامته البنفسجية. رن الجرس ونزل على الأرض. وعلى الرغم من أن الغرفة كانت تدور حوله، إلا أنه استطاع أن يقف مُتزنًا على الأرض.

أتَت مدبرةُ منزله لمَّا سمعت الجرس.

سأل: «ماذا حدث لي الليلة الماضية؟» نظرَت مندهشةً وقالت: «لا شيء يا سيدي. تركتُك في المكتبة.»

تذمَّر السيد بيرن قائلًا: «إنه ذلك الويسكي البغيض.»

ساعد الاستحمامُ البارد وكوبٌ من الشاي على التخلُّص من الصداع، لكنه ظلَّ يرتعش عندما ذهب إلى الغرفة التي كان يجلس فيها الليلة السابقة.

خطرَت له فكرة. فكرةٌ مُرعبة. لنفترض أن أحدًا وضع مُخدرًا في الويسكي (على الرغم من أنه لم يتخيَّل أنه كانت ثَمة فرصة لوضع مُخدر في شرابه) وأن شخصًا ما قد اقتحم منزله!

فتح الخزنة وتنفَّس الصعداء؛ وجد العلبة في مكانها. تذمَّر واعتقد أن الويسكي هو ما جعله في تلك الحالة؛ ومِن ثَم رفض الإفطار وطلب سيارته وأوصله السائقُ إلى البنك مباشرة.

عندما وصل إلى مكتبه، وجد الشابَّ ذا الوجه الطويل النحيف في حالة هياج.

«لا بدَّ أن لصوصًا سطَوا على المكان ليلة أمس يا سيد بيرن.»

قال السيد بيرن مُنزعجًا: «لصوص؟» ثم ضاحكًا: «حسنًا، لن يجدوا الكثير هنا. لكن ما الذي يجعلك تعتقد أنهم كانوا هنا.»

قال الشاب: «كان هناك شخصٌ في الغرفة، أُقسم على ذلك؛ فالخزنة وجدتها مفتوحةً عندما أتيت وأُخرِج أحد الكتب وتُرك على طاولتك.»

ظهرت ابتسامة بطيئة على وجه السيد بيرن.

وقال: «أتمنَّى لهم التوفيق.»

مع ذلك، انزعج وأجرى بحثًا دقيقًا في جميع أوراقه ليعرف هل سُرِقَت أي وثائقَ مُهمة أم لا. كانت سنداته الإذنية في البنك، في ذلك الصندوق الكبير نفسِه الذي أودَع فيه القلادة التي جاءته تسويةً لأحد الديون.»

قبل الظهر بقليلٍ جاء موظفُه بسرعة.

وقال هامسًا: «ذلك الرجل هنا.»

دمدم السيد بيرن: «أي رجل؟»

«الرجل من شارع جيرمين الذي أوقف دفع شيكات إيدن.»

قال السيد بيرن: «دَعْه يدخل.» ثم قال ببشاشة: «حسنًا يا سيدي، هل فكرتَ بشكلٍ أفضل في أمر تسوية تلك الديون؟»

قال جونزاليس: «أفضل وأفضل. هل يُمكنني التحدُّث معك وحدَنا؟»

أشار بيرن إلى مساعده أن يتركهما.

«جئتُ لتسوية جميع أنواع الديون. على سبيل المثال، جئتُ لتسوية ديون رجلٍ نبيل يُدعى تشوسر.»

أجفل صاحب بيت القمار.

«إن تشوسر رجل لطيف للغاية. قابلته هذا الصباح. أُصيب بصدمةٍ في الماضي تسبَّبَت في إصابته بالشلل، ولم يتمكَّن من مغادرة غرفته لبعض الوقت نتيجة لذلك.»

قال السيد بيرن كي يختصر الحديث: «إنك تُخبرني بالكثير ممَّا لا أريد أن أسمع عنه.»

«إن الرجل المسكين يعتقد أنه قتَل مُوزِّع أوراق ذا شعرٍ أحمر كان يعمل لديك. يبدو أنه كان يُقامر وفقد صوابه عندما رأى مُوزِّع الأوراق يأخذ ورقة لعب.»

قال الآخرُ باستياءٍ متعفِّف: «مُوزِّع أوراق لعب يعمل لدي، ماذا تقصد؟ أنا لا أعرف ما هو مُوزِّع أوراق لعب.»

«ضربه على رأسه بأداة لَمِّ النقود. لقد أتيتَ إلى تشوسر في اليوم التالي وأخبرتَه أن موزع أوراق اللعب الذي يعمل لديك قد مات؛ وذلك كي تأخُذ منه المال. ولكن سرعان ما وجدتَ أنه مُفلس، ووجدتَ أيضًا أنَّ لديه ابنة، وخطر لك أنها قد تُفيدك في مخطَّطاتك الشائنة؛ لذلك تحدَّثتَ معها قليلًا، ووافقَتْ على العمل لديك من أجل إنقاذ والدها من الدمار وربما السجن.»

قال بيرن: «هذه قصة خُرافية تُخبرني بها، أليس كذلك؟» لكنَّ وجهه أصبح أبيضَ وشاحبًا، وارتجفت اليد التي أخذت السيجار من شفتَيه.

تابع جونزاليس: «ولدعم مُخطَّطك، وضعتَ إعلانًا في عمود الوفَيات بصحيفة التايمز، وأرسلتَ كذلك إلى الصحيفة المحلية بيانًا مُنمقًا للغاية عن جنازة السيد جينكينز، الأمر الذي أعددتَه أيضًا لحبْكِ اللعبة على تشوسر وابنته.»

غمغم السيد بيرن مع محاولة مُثيرة للشفقة للابتسام: «هذه طلاسمُ بالنسبة لي.»

«أجريتُ مقابلة مع السيد تشوسر هذا الصباحَ وتمكَّنتُ من طمأنته أن جينكينز حي يُرزَق ويعيش في برايتون، ويُدير بيتًا صغيرًا للمقامرة، وهو فرع من أنشطتك العديدة. بالمناسبة يا سيد بيرن، لا أعتقد أنك سترى إلسي تشوسر مرةً أخرى.»

كان بيرن يتنفَّس بصعوبة، ثم استهلَّ حديثه قائلًا: «أنت تعرف الكثير جدًّا.» لكن شيئًا في عينَي ليون أوقفه.

قال جونزاليس بهدوء: «سأُدمرك يا بيرن؛ سأسلب منك كلَّ بنسٍ من المال الذي سرقته من الرجال الحمقى الذين يتردَّدون على مؤسَّستك.»

قال بيرن مرتجفًا: «فلتُجرِّب فعل ذلك.» وأضاف بابتسامةٍ عريضة: «يُوجَد قانون في هذا البلد! فلتذهب وتسرق البنك، ولن تجد الكثير لتسرقه.» ثم قال ساخرًا: «تُوجَد أوراق مالية بقيمة مائتَي ألف جنيه في بنكي؛ أوراق مضمونةُ القيمة أيها الذكي! اذهب واطلب من مدير البنك أن يُسلمها إليك. إنها في صندوق ٦٥. هذه هي الطريقة الوحيدة التي يُمكنك أن تُدمِّرني بها يا بُنيَّ.»

نهض ليون وهزَّ كتفَيه.

قال: «ربما أكون مُخطئًا. ربما بعد كل شيء سوف تستمتع بمكاسبك غير المشروعة.»

أشعل السيد بيرن سيجاره مُجددًا، وقال: «سيحدث ذلك بالتأكيد.»

تذكَّر المحادثة التي دارت بعد ظهر ذلك اليوم عندما تلقَّى رسالة هاتفية عاجلةً من البنك. ما قاله المدير جعله يذهب إلى هناك بأقصى سرعةٍ يُمكن لسيارة أجرة أن تُوصله بها.

قال مدير البنك: «لا أعرف ما خطبُ خِزانتك الحديدية، لكن اضطُرَّ أحدُ موظفي البنك إلى الذهاب إلى القبو وقال إن هناك رائحةً غير عادية؛ وعندما نظرنا إلى الصندوق، وجدنا تيارًا من الدخان يتدفَّق عبر ثُقب المفتاح.»

صرخ بيرن مُتحسِّسًا جيوبه بحثًا عن مفتاحه: «لماذا لم تفتحه؟»

قال مدير البنك بتعقُّل: «من ناحيةٍ لأنه ليس لدي مفتاح يا سيد بيرن.»

بيدَين مُرتعشتَين، أدخل المُقرِضُ المفتاحَ ونزع الغطاء؛ فظهرت سحابة كثيفة من الدخان الأصفر الحارق وكادت تخنقه ... وكان كل ما تبقى من أوراقه المالية المضمونةِ القيمة عبارةً عن رُكام أسود لزج وزجاجة وبعض الأحجار الكريمة الباهتة، ولا شيء آخر ...

قال ضابطُ المباحث الذي حقَّق في الملابسات: «يبدو لي أنك وضعتَ عبوة حمضٍ قوي للغاية عن غير قصد، ويعمل مُحلِّلونا الآن على اكتشاف نوعه. لا بدَّ أنه إما تسرَّب أو انفجر.»

قال السيد بيرن مُنتحِبًا: «العبوة الوحيدة التي كانت هناك كانت علبة بها عِقد من الألماس.»

قال المحقق: «لا تزال بقاياها موجودة. هل أنت متأكد تمامًا من أنه لا يمكن لأحد الوصولُ إلى هذه العلبة ووضع شيءٍ مدمِّر بها؟ إنه أمر يُمكن صنعه بسهولة. زجاجة مثل التي وجدناها، وسدادة مصنوعة من بعض المواد السهلة التلَف، وتحصل على شيء كهذا! هل يمكن لأي أحدٍ أن يفتح العلبة ويدسَّ الزجاجة داخلها؟»

تأوَّه المُقرِض قائلًا: «مُستحيل، مُستحيل.»

جلَس ووجهُه بين يدَيه يبكي على ثروته المفقودة؛ لأنه على الرغم من إمكانية تعويض بعض محتويات هذا الصندوق، إلا أنه تُوجَد بعض السندات الأمريكية التي ضاعت إلى الأبد وسندات إذنية بالآلاف لن يُوقَّع عليها أبدًا مرةً أخرى.

الفصل التاسع

المُمتنع عن الكلام

نُشِرت لأول مرة في صحيفة ذا نوفل، أغسطس ١٩٢١

يحفظ ليون جونزاليس عددًا لا يُحصى من شعارات النبالة وشعارات العائلات سواءٌ التي صاغَتها العائلة بنفسِها أو التي اكتسبَتْها من عائلة أخرى، وربما يتَّخذ شعارَه الرئيسي المأخوذ من اللغة اللاتينية «أنا رجل يعلم شيئًا عن كلِّ شيء.» لا يُوجَد مجال من العلوم الدنيوية لم يَستهوِ ليون. أينما تجمَّعت الحشود، وفي أي موقف يمرُّ على البشرية سواءٌ كان جيدًا أو سيئًا، فلا يُلقِ جونزاليس بالًا للعوامل التي تجذب الناس إلى الحشد ولكنه ينهمكُ في تحليل المُحتشِدين أنفسِهم.

منذ سنواتٍ عديدة، اجتمع أربعة شبَّان أثرياء وفي غاية الإخلاص من أجل هدفٍ مشترَك مُستوحًى من تصورٍ واحد مشترك. منذ فجر التاريخ، تشكلت مثل هذه التنظيمات من المُتحمِّسين، وستظل تتشكَّل تنظيمات الشباب المُتعصبين الغاضبين التي تتمخَّض من رَحِم الصحوة الدينية الكبرى، ورفع راية الإصلاح، وحركات الإصلاح الاجتماعي، وغيرها من التطورات.

يتمثَّل هدف رجال العدالة الأربعة في تصحيح أوجُه القصور في القانون. أخذوا يبحثون ويعثرون على الذين أفلَتوا من بين يدَي القانون الطائلة؛ وأقاموا عدالتهم بسرعة رهيبة.

لم يَجِدْ أيٌّ من الثلاثة الأحياء (لأن أحدهم مات في بوردو) عن مُثُلهم العُليا، لكن ظلَّ ليون مُحتفظًا بحماس الشباب الذي جمعهم.

لا يذهب إلى مكانٍ إلا ويسعى فيه وراء أهدافه؛ ففي الجزء الخلفي من المُدرج الكبير في مِضمار سباق هيرست بارك، شاهد لأول مرة «سباجيتي» جونز. إنه أحد القوانين الواضحة عن المصادفة، إذ يقول القانون إذا صادفتَ كلمةً لم ترَها من قبلُ أثناء قراءة كتاب واضطُرِرت إلى الرجوع إلى القاموس، فسترى تلك الكلمة نفسَها في غضون ثلاثة أيام في إحدى المطبوعات الأخرى. ينطبق قانون التَّكرارات غير المُبرَّرة هذا بالمثل على الأشخاص. لمَّا نظر ليون إلى حجم جسم الرجل الضخم، انتابه شعور غريب أنه مُقدَّر لهما أن يلتقيا مرةً أخرى، ونادرًا ما يُخطئ حَدْسُ ليون.

السيد سباجيتي جونز رجل طويل القامة وضخم الجثة، له عينان تُوحيان بحزنٍ في قلبه وفكَّان يُتعبانه في الحديث. له شارب طويل داكن مُلتوي الطرفَين، وكان يرتدي رابطة عنق باللونَين الأخضر والأبيض كي لا يُخفيَ لون قميصه الوردي المُذهل عن الأنظار. يرتدي خواتمَ من الألماس في أصابعه السمينة، وسلسلةً كبلية فوق صدريته المُزركشة. كان يرتدي بدلةً زرقاء زاهية للغاية، مُفصَّلة تفصيلًا مثاليًّا، وحذاءً باللون الأصفر الفاقع يُغطي قدمَيه الصغيرتَين بالنسبة لرجلٍ في حجمه. في الواقع، يتحلَّى السيد سباجيتي جونز بالمظهر الذي يجب أن يتحلى به الرجل النبيل حسب رأيه.

لم يَلفِت انتباهَ ليون بسبب ملابسه الثرية أو حجمه الكبير، بل كان جونزاليس يتجوَّل في الجزء الخلفي من المنصة أثناء السباق، ولم يتواجد أحد في المرعى المُسوَّر باستثناء السيد جونز ورجلَين، ولم يرتقِ أيٌّ منهما إلى ضخامة جثة السيد جونز ولا إلى أناقة ملبسه.

اتَّخذ ليون مقعدًا بالقُرب من حلقة المُراهنات حيث عُرِضَت الخيول، وصادف أن سار الهدفُ نحوَه. لم يعبأ سباجيتي جونز بخَفضِ صوته، الذي كان ضخمًا وجَهوريًّا؛ وسمع ليون كلَّ كلمة. بدا أن أحد الرجُلَين يتشاجر؛ بينما قبَع الآخر صامتًا بعد محاولةٍ عابثة في لعب دور الوسيط.

كان السيد جونز يقول بلطف: «أخبرتك أن تكون في لينجفيلد، ولم تكن هناك.»

رآه ليون يُنظف أظفارَه بسكينٍ صغيرة، ويبدو أن اهتمامه مُرتكز على تجميل نفسه.

قال الرجل غاضبًا: «لن أذهب إلى لينجفيلد أو إلى أي مكانٍ آخر من أجلك يا جونز.»

شَحَب وجهُ الرجل واحتدَّ من الغضب، وعرَف ليون من نبرة صوته أنه كان خائفًا، ويستخدِم هذه الطريقة الصاخبة لإخفاء خوفه.

كرَّر سباجيتي جونز: «أوه، لن تذهب إلى لينجفيلد أو إلى أي مكانٍ آخر، أحقًّا؟»

دفع قُبعته إلى مؤخِّرة رأسه، ورفع عينَيه للحظة، ثم تابَع تقليم أظفارِه.

تابع الرجل: «لقد سئمتُ منك ومن مسابقاتك. إننا مجرد عبيد، هذا ما نحن عليه! يُمكنني كسبُ المزيد من المال وأنا أعمل وحدي، هل ترى الآن؟»

قال جونز: «أرى، لكن يا توم، أريدك أن تكون في سانداون الخميس المقبل. قابِلْني عند حلقة المُراهنات …»

زأر الآخر قائلًا، وقد احمرَّ وجهه: «لن أفعل، لن أفعل. لقد سئمتُ منك، ومن جميع مسابقاتك!»

قال سباجيتي جونز بلطف: «أنت فتًى شقي.»

ضرب وجه الآخر مرَّتَين بسكينه الصغيرة، وقفز الرجل صارخًا.

قال جونز، وقد رجع لتأمُّل أظفارِه: «أنت فتًى شقي، وستكون في سانداون عندما أُخبرك.»

قال ذلك ثم استدار وابتعد.

سحب الرجل الذي يُدعى توم منديلًا وربَّت به على وجهه النازف. أُصيب بجرحَين قليلَي العمق وطويلَين. يعرف السيد جونز بدقة العُمق الآمن الذي يُمكنه أن يجرحه به، لكنَّ الجرحَين كانا قبيحَين ومؤلِمين.

نظر الرجل الجريح إلى الرجل المنسحب، وأظهر أسنانه ذاتَ البقع بابتسامةٍ قبيحة، لكن علم ليون أنه سيحضُر لمُهمته في سانداون كما أَمَرَه.

أثار المشهد اهتمام ليون جونزاليس للغاية.

عاد إلى شقته في شارع جيرمين وقد تملَّكَه هذا الاهتمام.

كان مانفريد في الخارج لزيارة طبيب أسنانه؛ لكن في اللحظة التي وصل فيها إلى المدخل، راح ليون يُثرثر باكتشافه.

صاح مُتحمسًا: «إنه بالتأكيد أكثر رجلٍ أدهشَني في حياتي يا جورج! إنه تجسيد رائع لعصرٍ مضى وولَّى؛ وكأنه من عصر الأسياد والعبيد، ونادرًا ما يُقابل المرء مثل هذه الشخصية. هل تتذكَّر ذلك الراعي الذي وجدناه في إسكوريال؟ إنه أقربُ تشبيهٍ له، على ما أعتقد. هذا الرجل اسمه سباجيتي جونز.» واستطرَد: «إنه زعيم عصابة سباقات خيل تبتزُّ وُكلاء المُراهنات. اسم عائلته مُشتقٌّ من دمٍ إيطالي كما أنه يعيش في الحي الإيطالي. بناءً على عدم التناسُق العام بين الوجه وامتلاء الذقَن، أكاد أقول إن لديه تاريخًا مرَضيًّا من الجنون — الصرَع من غير ريب — في عائلته من ناحية الأم.

لم يسأل مانفريد كيف توصَّل ليون إلى هذه الاكتشافات. ضع ليون على مسارِ «موضوعٍ» مُثير للاهتمام ولن يتركه أبدًا حتى يُشرِّحه جزئيةً تِلْوَ الأخرى ويَسبُرَ أغوارَه.

«لديه سِجلٌّ إجرامي، أليس كذلك؟»

ضحك جونزاليس مبتهجًا.

«هذا موضع خطَئك يا عزيزي مانفريد. لم يُدَنْ قط، وربما لن يُدانَ أبدًا. وجدتُ وكيل مراهنات صغيرًا وفقيرًا في الحلقة الفِضية — وهي مساحة تُحجَز لإقامة مُراهناتٍ أصغرَ من المراهنات التي تُقام في تاترسال — حيث كانوا يدفعون الإتاواتِ للقيصر لسنواتٍ عديدة. لمستُ الحزن والأسى في حديثه، وإلا لما أخبرَني بما فعله. أوصلتُه إلى حانةٍ في كوبهام، بعيدًا عن الزحام الجنوني، وتناول شراب الجين (وهو أكثر شرابٍ مُفيد ومُتوفر في هذا البلد، فقط لو يعرفه الناس) حتى بكى؛ ومن ثَم خفَّ الحمل من على كاهله.»

ابتسم مانفريد ورنَّ الجرس طلبًا للعشاء.

قال: «سيقضي عليه القانونُ عاجلًا أم آجلًا. لديَّ إيمانٌ كبير بالقانون الإنجليزي. إنه يَخفِق مراتٍ أقلَّ بكثيرٍ من أي قانونٍ آخر يُطبَّق في العالَم.»

ليون مُتشككًا: «ولكن هل سينجح في ذلك بالفعل؟ أودُّ التحدُّث مع السيد فير المُهذَّب عن هذا الرجل.»

قال مانفريد: «ستُتاح لك فرصة؛ لأننا سنتناول العشاء معه غدًا في مطعم متروبوليتان.»

أفادتهما أوراق اعتمادهما باعتبارهما خبيرَين إسبانيَّين في عِلم الجريمة إفادةً كبيرة في علاقتهما مع السيد فير، وقد ساعدوه في المُقابل ويَدين فير لهما بالامتنان.

حكى ليون ما حدث معه بعد عشاء ليلة الأحد وقت تدخين السجائر ووقت انشغال معظم روَّاد مطعم متروبوليتان في غرفة الرقص.

أومأ فير وقال: «أوه أجل، سباجيتي جونز قضيةٌ صعبة. لم نتمكَّن من الإمساك به قط، على الرغم من ارتباطه ببعض الجرائم الشنعاء. إنه رجل ضخم، شديدُ الذكاء، على الرغم من أسلوبه السوقيِّ وقلةِ تعليمه. إنه لا يعرف الرحمة، ويحكم مملكته الصغيرة بقبضةٍ من حديد. لم نتمكن من القبض على رجلٍ واحدٍ لينقلبَ عليه ويَشِيَ به، وبالتأكيد لم يُقبَض عليه قط بالبضائع.»

نفضَ رماد سيجاره في صحنه، ونظر طويلًا إلى كومة الرماد شاردَ الذهن.

«يمتلك الإيطاليون إحدى منظمات اليد السوداء في أمريكا. أظنُّ أنكما تعرفان ذلك. إنه نظامُ ابتزاز، ولحُسن حظنا أننا لم نشهد عملياته في هذا البلد. على الأقل لم نشهدها حتى وقتٍ قريب. لديَّ كل الأسباب التي تجعلني أعتقد أن سباجيتي جونز هو العقل المدبِّر في القضية الحقيقية الوحيدة التي نمت إلى علمنا.»

قال مانفريد متفاجئًا: «هنا في لندن؟ لم يكن لديَّ أدنى فكرة أنهم مارَسوا هذا النوع من الأشياء في إنجلترا.»

أومأ المفوض.

قال: «قد يكون الأمر مُلفَّقًا بالطبع، لكنني وضعتُ مجموعة من أفضل رجالي لمراقبة كتَّاب الرسائل لمدة شهر، دون الاقتراب منهم. وأنا أرتدي ملابسي هذا الصباح، كنتُ أتساءل إن كان بإمكانكما أيها السيدان أن تُساعداني في قضية أقرُّ بأنها تَشغلُنا جميعًا. هل تعرفان الكونتيسة فينشي؟»

تفاجأ ليون لمَّا أومأ مانفريد برأسه.

قال ليون: «التقيتُ بها في روما منذ حوالي ثلاث سنوات. إنها أرملة الكونت أنطونيو فينشي، أليس كذلك؟»

قال المفوض: «إنها أرملة لديها ابن يبلغ من العمر تسع سنوات، وتعيش في ميدان بيركلي. سيدة فاحشة الثراء وفاتنة الجمال. منذ نحوِ شهرَين بدأت في تلقي الرسائل، التي لم يكن عليها توقيعٌ بل مختومة بصليبٍ أسود مكان التوقيع. كُتِبت بخط يدٍ جميل، وقد أثار ذلك الشكوكَ حول سباجيتي جونز؛ لأنه عمل في شبابه خطاطَ لافتات.»

أومأ ليون بقوة.

وقال موافقًا بحرارة: «بالطبع، يستحيل تحديد هذا النوع من الكتابة. أظن أنك تَعني بكلمة «خط» كتابة مطبوعة، أليس كذلك؟ هذه طريقة جديدة، وهي طريقة ذاتُ إبداعٍ خاص؛ لكنني قاطعتُك يا سيدي. هل يطلب مُرسِلُ هذه الرسائل المالَ؟»

«طلبوا المال وهدَّدوا السيدة بما سيحدُث إذا لم تُرسله إلى العنوان الذي أعطَوه لها. وهنا ظهرت وقاحة جونز الهائلة وتواطؤُه. ظاهريًّا، يُدير جونز متجرًا لبيع الصحف. لديه متجر صغير في نيتينج هيل، حيث يبيع الصحفَ الصباحية والمسائية، كما أنه وكيلٌ محلي لبائعي المعلومات السرية للسباقات، الذين ترى أحيانًا لافتاتهم معروضةً خارج متاجر الصحف. بالإضافة إلى ذلك، يُستخدَم المتجر بصفته عنوانَ إقامة ...»

مانفريد: «هل يعني هذا أن الأشخاص الذين لا يريدون أن تُرسَل رسائلهم إلى منازلهم يُمكنهم طلب إرسالها إلى هناك؟»

أومأ المفوض.

وقال: «إنهم يضعون رسومًا بقيمة بنسَين لكل رسالة. يجب بالطبع إدراج عناوين الإقامة هذه ضِمن الأنشطة غير القانونية؛ لأنها تفتح الطريق لجميع أنواع الاحتيال. إن ذكاء هذه الحركة واضح؛ إذ يتلقى جونز الرسالة، ظاهريًّا نيابةً عن العميل، والرسالة بين يديه فيُمكنه فتحها أو تركها دون فتح؛ حتى إذا انقضَّت الشرطة — كما فعلنا في إحدى المرَّات — تجد الرسالة سليمة! إذن، ما لم نمنَع الرسالة من الوصول إلى متجره، لا يُمكننا إبقاؤها تحت المُراقبة. في واقع الأمر، كان اسمُ الرجل الذي ستُرسَل الأموال إليه، وَفقًا للرسالة التي تلقَّتْها الكونتيسة، هو «إتش. فراسكاتي، عناية جون جونز.» بالطبع تلقَّى جونز الردَّ على رسالة الكونتيسة، ووضع الظرف مع عشَرات الرسائل الأخرى التي تنتظر المطالبة بها، وعندما دخل رجلنا في المساء بعدما ظل يُراقب المتجر طوال اليوم، أُخبِر أن الرسالة قد طُولِب بها. بالتأكيد لم يستطع تفتيش كلِّ من دخل إلى المتجر وخرج منه خلال اليوم، وكان من المُستحيل إثباتُ التهمة على الرجل.»

قال جونزاليس المُعجَب: «مُخطَّط رائع! هل أرسلت الكونتيسة المال؟»

قال فير وهو يهزُّ رأسه: «أرسلَت مائتي جنيه إسترليني بحماقةٍ شديدة. وبعد ذلك عندما جاء الطلب التالي أبلغت الشرطة. افتعلْنا رسالة للإيقاع به وأرسلناها إلى عُنوان جونز، وكانت النتيجة كما سبق وأخبرتُكما. ثم تلقَّت رسالةً أخرى تُطالبها بالدفع الفوري وتُهددها هي وابنها؛ فأرسلنا رسالةً زائفة أخرى، وكان هذا يوم الخميس الماضي. ومن منزل على الجانب الآخر من الطريق، ظلَّ اثنان من ضباطنا يُراقبان الأوضاع، باستخدام النظارات الميدانية، التي مكَّنَتهما من رؤية المتجر من الداخل. ولكن لم يتسلم جونز أيَّ خطابٍ خلال النهار؛ لذلك داهَمْنا المكان في المساء، وكانت هناك هذه الرسالة على الرفِّ مع غيرها من الرسائل غير المفتوحة.» وقال المفوض مُبتسمًا: «وبدَوْنا في غاية الحماقة.» فكَّر للحظةٍ ثم سأل: «هل ترغبان في مقابلة الكونتيسة فينشي؟»

قال جونزاليس بسرعة، ونظر إلى ساعته: «نرغب كثيرًا في الحقيقة.»

ابتسم المُفوض قائلًا: «ليس الليلة. سأُحدد مقابلة لكما بعد ظهر غد. ربما تفكران أيُّها السيدان البارعان في شيءٍ هرب عن عقولنا البريطانية الثقيلة الفهم.»

في طريق عودتهما إلى شارع جيرمين في تلك الليلة، كسر ليون جونزاليس الصمتَ بسؤالٍ مباغِت؛ حيث قال مفكرًا: «أتساءل أين يُمكن للمرء الحصولُ على منزل فارغ به حمَّام كبير وحوضُ استحمام بالِغ الكبر؟»

استهلَّ مانفريد حديثه قائلًا: «عجبًا، لِم؟» ثم ضحك، وقال وهما يدخلان الشقة: «أعتقد أنني أتقدَّم في السن يا ليون؛ فقد كنتُ في الماضي لا أتفاجأ من اكتشافات عقلك المُدهشة بأيِّ شكلٍ من الأشكال. ما الخصائص الأخرى التي يجب أن تكون في منزلك المثاليِّ هذا؟»

أدار ليون قُبعته على نحوٍ مُمنهَج عبر الغرفة بحيث سقطَت بدقَّة على سن شماعة القبعات.

سأل بغرور: «ما رأيك في هذه البراعة يا جورج؟ المنزل، آه حسنًا، يجب أن يكون منعزلًا بعضَ الشيء، وأن يكون وحدَه على أرضٍ خاصة به، إنْ أمكن ذلك. كما يجب أن يكون بعيدًا عن الطريق، وأن يكون الطريق لا يتردَّد عليه الكثيرون. وأُفضل لو كان محجوبًا عن الرؤية بالشجيرات أو الأشجار.»

قال مانفريد بدُعابة: «يبدو الأمر كما لو أنك تُفكر في جريمة شنعاء.»

صحَّحه ليون بسرعة، قائلًا: «ليس أنا، ولكنني أعتقد أن صديقنا جونز رجلٌ فاحش حقًّا.» أخذ نفسًا عميقًا وقال على جانب حديثه: «أودُّ لو أُقدِّم أي شيءٍ مقابل الحصول على قياسات رأسه.»

المقابلة مع الكونتيسة فينشي أسعدتهما. إنها امرأةٌ طويلةٌ جميلة، في الرابعة والثلاثين من عمرها، تتفجَّر «الأنوثة» منها؛ مِن رأسها إلى أخمصِ قدمَيها.

افتُتِن بها مانفريد ذو الطباع البشرية، أما ليون جونزاليس، فقد كان طبيعيًّا للغاية، لدرجة أنه لم يكن مُهتمًّا في الواقع.

قالت: «بطبيعة الحال أنا قلقة بعض الشيء. فيليب ليس قويًّا للغاية، رغم أنه ليس ضعيفًا أيضًا.»

بعد ذلك جاء الصبي، وهو شابٌّ صغير مهندم ذو بشرة زيتونية وعينَين بُنيَّتَين، هادئ وأذكى مما توقَّع مانفريد بِناءً على عمره. أتت معه مُربيته، وهي فتاة إيطالية جميلة.

قالت الكونتيسة عندما عادت الفتاة إلى العمل على دروسه: «إنني أثق في بياتريس أكثرَ مما أثق في شرطتكم؛ فوالدُها ضابط في شرطة صقلية وعاشت كلَّ حياتها غالبًا تحت تهديد الاغتيال.»

سأل مانفريد: «هل يخرج الولد؟»

قالت الكونتيسة: «مرة في اليوم، في السيارة. وإما أن أصحبه أنا وحدي، أو مع بياتريس، أو تصحبه بياتريس وحدَها.»

سأل جونزاليس: «بِمَ يُهدَّدون تحديدًا؟»

قالت الكونتيسة: «سأُريك إحدى رسائلهم.»

ذهبَت إلى مكتب، وفتحت قُفله، وعادت بورقةٍ متينة. كانت ذاتَ جودةٍ ممتازة وكُتِبت بخط يُشبه خطوط النقش على النحاس:

«ستُرسلين إلينا ألف جنيه إسترليني في الأول من مارس، ويونيو، وسبتمبر، وديسمبر. يجب أن تكون الأموال في شكل أوراقٍ نقدية، ويجب أن تُرسَل إلى إتش فراسكاتي، ولعناية جي جونز، ١٩٤ شارع نوتنج هيل. استعادة ابنكِ ستُكلفكِ أكثرَ مما سيُكلفكِ إبقاؤه معكِ.»

حمل جونزاليس الورقة في النور، ثم حملها إلى النافذة لإجراء فحص أفضل.

قال وهو يُعيدها: «أجل، سيكون من الصعب تتبُّعُ كاتبِ تلك الرسالة. سيفشل أفضلُ خبير في العالم في ذلك.»

هزَّت الكونتيسة رأسها تعبيرًا عن توقُّع ما سيحدُث، ولَمَّا نهضا للرحيل، قالت: «أعتقد أنه لا يُمكنك اقتراح أي شيء.»

كانت تتحدَّث إلى مانفريد، لكن جونزاليس هو مَن أجاب، قائلًا: «لا يُمكنني إلا أن أقترح يا سيدتي أنه إذا اختفى ابنُكِ الصغير، فعليك أن تتواصلي معنا على الفور.»

وقال عندما كانا في الشارع: «عزيزي مانفريد، من المؤكد تمامًا أن السيد فيليب سيختفي. سأستقلُّ سيارة أجرة وأتجوَّل في لندن بحثًا عن هذا المنزل الذي أريده.»

سأل مانفريد: «هل أنت جادٌّ يا ليون؟» وأومأ الآخر قائلًا بجدية: «لم أكن أكثرَ جِديةً في حياتي مما أنا الآن. سأكون في الشقة في الوقت المُحدد للعشاء.»

كانت الساعة الثامنة تقريبًا، بعد ساعةٍ من موعد العَشاء، عندما صعد الدرَج بمبنى شارع جيرمين، واقتحم الغرفة.

استهل قائلًا: «لقد حصلت على ...» ثم رأى وجه مانفريد، فقال: «هل أخذوه؟»

أومأ مانفريد.

وقال: «تلقَّيتُ رسالة هاتفية قبل ساعة.»

صَفَّرَ ليون.

وقال مُخاطبًا نفسَه: «بهذه السرعة!» ثم قال: «كيف حدث ذلك؟»

قال مانفريد: «أتى فير إلى هنا، وغادر قبل وصولك مباشرة. طريقة الاختطاف سهلة لدرجةٍ تبعث على السخرية. بعد فترةٍ وجيزة من مُغادرتنا، أخذت المُربية الصبيَّ في

السيارة، اتَّبَعا طريقهما المُعتاد، وهو عبر مروج هامبستيد إلى خارج البلد. من عادتهم قطع بضعة أميالٍ بعد المروج في اتجاه تلِّ بيكون ثم يرجعان.»

قال ليون: «للأسف، لا رَيب أن اتباع الطريق نفسه كل يومٍ جنون محض.»

قال مانفريد: «السيارة تدور دائمًا في المكان نفسِه، وتلك هي الحقيقة التي عِلمها الخاطفون. الطريق ليس واسعًا بالدرجة الكافية. ولتُدير سيارة الرولز الكبيرة، يتطلَّب الأمر القليلَ من المناورة. كان السائق مشغولًا في الدوران بالسيارة عندما وضعَ رجلٌ راكب على درَّاجة مُسدسًا أسفل أنفه، وفي الوقت نفسِه ظهر رجلان من العدَم وفتحا باب السيارة وانتزعا المسدس الذي تحمله المُربيةُ، وحمَلا الصبيَّ وهو يصرخ خارج السيارة إلى سيارةٍ أخرى. وتلك السيارة شاهدها سائقُ سيارة فينشي وهي واقفة على جانب الطريق، ولكن على ما يبدو لم تُثِر شكوكه.»

«هل شُوهِدت وجوه الرجال؟»

هزَّ مانفريد رأسه.

وقال: «كان الرجل الذي عطَّل السائق يرتدي واحدةً من اللِّحى المسرحية الرخيصة، التي يُمكنك شراؤها بشلنٍ واحد من أي متجرٍ للألعاب، بالإضافة إلى نظَّاراتٍ واقية لراكب الدراجة البخارية. يبدو أن كِلا الرَّجُلَين الآخرَين كانا مُتخفِّيَين بالطريقة نفسِها. كِدت أذهب إلى الكونتيسة الآن ولكنك أتيت. إذا كنتَ ستتناول عشاءك يا ليون ...»

قال ليون على الفور: «لا أريد عشاءً.»

كان المفوض فير في المنزل في ميدان بيركلي عندما اتَّصلا، وبات يُحاول عبثًا تهدئة الأم المُشتَّتة.

حيَّا الرجُلَين حين وصولهما بظفرة ارتياح.

قال ليون فورَ دخوله على الغرفة: «أين الرسالة؟»

«أي رسالة؟»

«الرسالة التي أرسلوها لبيان شروطهم.»

قال الآخر بصوتٍ منخفض: «لم تصِل بعد. هل تعتقد أنه بإمكانك تهدئة الكونتيسة؟ إنها على وشك الإصابة بانهيارٍ عصبي.»

أمستْ مُستلقيةً على أريكةٍ بيضاء من دون حَراك، وعيناها مُغمضتان، ظلَّت خادمتان تُحاولان إيقاظها. فتحت عينيها على صوت مانفريد ونظرت إلى الأعلى.

كانت تبكي وتقول مُشبكةً يدَيها معًا: «آه يا ولدي، يا ولدي! سوف تُرجعه، من فضلك. سأقدِّم لك أي شيء، أي شيء؛ أي مبلغ تطلبه سأدفعه لك!»

عندئذٍ دخل كبيرُ الخدم إلى الغرفة حاملًا رسالةً على صينية.

قفزت، لكنها كانت ستسقط لولا أن ثبَّتها مانفريد بذراعه.

صرخَت بشدة: «إنها من … الخاطفين.» وفتحت المظروف بعُنفٍ بأصابعها المُرتعشة.

كانت الرسالة أطولَ من سابقيها:

«ابنُكِ في مكانٍ لا يعرفه إلا كاتبُ هذه الرسالة. الغرفة مدعمة بقضبانٍ حديدية ومُغلقة، وبها طعامٌ وماء يكفيان لمدة أربعة أيام. لا أحد يعرف مكانه أو يُمكنه العثور عليه سوى كاتبِ الرسالة. مقابل مبلغ خمسةٍ وعشرين ألف جنيه إسترليني، سيُرسَل مكانُ اختبائه إلى الكونتيسة؛ وإذا لم يُدفَع هذا المبلغ قريبًا، فسيُترَك يموت جوعًا.»

صاحت السيدة المذهولة: «يجب أن أُرسِل المال على الفور. على الفور! هل تفهم؟ ابني، ابني!»

غمغم ليون وكانت عيناه تلمعان: «أربعة أيام. عجبًا، ليس هناك أفضل من ذلك!»

لم يسمعه سوى مانفريد.

قال السيد فير بجِدية: «سيدتي، إذا أرسلتِ خمسةً وعشرين ألفَ جنيه، فما الضمان الذي لديك لاستعادةِ الصبي؟ أنت امرأةٌ فاحشة الثراء. أليس من المُحتمَل عندما يحصل هذا الرجلُ على أموالك أن يطلب منكِ المزيد؟»

قاطعه ليون: «بالإضافة إلى ذلك، سيكون ذلك مضيعةً للمال. سأتعهَّد بإعادة ابنك في غضون يومَين. ربما في غضون يومٍ واحد، يعتمد الأمر كثيرًا على ما إذا كان سباجيتي جونز بات مُستيقظًا إلى وقتٍ متأخِّر في الليلة الماضية.»

اكتسب السيد سباجيتي جونز لقبَه بسبب ارتباطه بأبناء وبنات إيطاليا من ناحية، ومن ناحية أخرى لأنه على الرغم من أنه صاحبُ شهية قوية؛ فهو يُنهي عشاءه دائمًا بالطبق الإيطالي الوطني، بغضِّ النظر عن عدد الأطباق التي يتناولها قبلَه.

تناول عشاءً شهيًّا في مطعمه المُفضَّل في سوهو، لمَّا جلس بعيدًا عن روَّاد المطعم المُعتادين وتلقَّى خدمات صاحب المطعم المُجامِلة بقَناعة، كل ذلك يُشير إلى أنه لم يأخذ أكثرَ من حقِّه.

استخدم خلَّةَ الأسنان أمام الجميع، ثم دفع فاتورته وانطلق بفخامةٍ واستقلَّ سيارةَ أجرة. كاد أن يَركبها لولا أن اقترب منه رجلان، واحد على كل جانبٍ منه.

قال أحدهما بحِدَّة: «جونز.»

قال السيد جونز: «هذا اسمي.»

«أنا المُحقق جيثيرو من سكوتلاند يارد، وسآخُذك إلى الحجز بتهمة اختطاف الكونت فيليب فينشي.»

حدَّق السيد جونز في وجهه.

سبقَ أن بُذِلَت محاولاتٌ عديدة لإحضاره إلى الملجأ غير المِضياف الذي تُوفِّره السجون الملكية، وقد باءت جميعها بالفشل.

ضحك واثقًا في كفاءة خُططه، وقال: «لقد ارتكبتُ خطأً شنيعًا، أليس كذلك؟»

قال الرجل بخشونة: «اصعد إلى سيارة الأجرة تلك.» السيد جونز شديدُ الذكاء ذو خبرةٍ في التلاعُب بالقانون؛ فلم يُقدِم على أي مقاومة.

لن يخونه أحد؛ فلا أحد يُمكنه أن يكتشف مكان الصبي، لم يُبالغ في هذا الصدد. لم يكن الاعتقالُ يعني أكثرَ من زيارةٍ للقسم، بضع كلماتٍ مع المُحقِّق، وفي أسوأ الأحوال اعتقال لليلةٍ واحدة.

لم يدخل أحدُ خاطفيه إلى سيارة الأجرة حتى خاض محادَثة مطولة مع السائق، وتساءل السيد جونز، وهو يرى عبر النافذة تمريرَ ورقة نقدية بخمسة جنيهات، عن ذلك الكرم الشديد الذي أصبحت عليه قواتُ الشرطة.

قاد السيارة بسرعةٍ عبر ويست إند، ودخل إلى وايتهول؛ ولدهشة السيد جونز، لم يَستدِرْ إلى سكوتلاند يارد، لكنه استمرَّ بالسير على جسر وستمنستر.

سأل: «إلى أين تأخذونني؟»

انحنى الرجل الذي جلس أمامه — الرجل الأصغر الذي تحدَّث إلى سائق سيارة الأجرة — إلى الأمام ودفع شيئًا ما في صدرية السيد جونز الواسعة؛ وبالنظر إلى الأسفل، رأى الماسورة السوداء الطويلة لمُسدَّسٍ آلي، وشعر بغثيانٍ مؤقت.

قال الرجل: «لا تتكلَّمْ بعد.»

حاول جونز قدْر الإمكان، ولكنه لم يستطع رؤية وجه أيٍّ من المُحققين. ومع ذلك، صُدِم عندما مرُّوا أسفل الأشعة المباشرة للمصباح الكهربائي؛ فقد كان وجهُ الرجل المقابل له مُغطًّى بغطاءٍ أبيضَ رقيق لا يكشف سوى ملامح الوجه الغامضة. ثم بدأ في التفكير بسرعة. لكن حلول مشكلاته أعادته إلى ذلك المُسدَّس الأسود اللامع في يدِ الآخر.

بعد عبور نيو كروس في لويشام، بدأت السيارة أخيرًا في خفض سرعتها نزولًا من أعلى تل بلاكهيث. تعرَّف السيد جونز على المنطقة حيث إنه عمل فيها في أوقاتٍ سابقة وحقَّق نجاحًا معقولًا.

وصلت سيارة الأجرة إلى طريق المروج، وفتح الرجل الذي يجلس بجانبه النافذةَ وانحنى للخارج مُتحدثًا إلى السائق.

وفجأةً استدارت السيارة عبر بوابة حديقةٍ وتوقفَت أمام باب منزلٍ مهجور قديم ولا يبعث على السرور.

قال الرجل الذي يحمل المسدس: «قبل أن تخرج، أريدك أن تفهم أنك إذا تحدَّثت أو صرختَ أو نطقت بأي كلمةٍ لسائق سيارة الأجرة هذه، فسوف أُطلق عليك النار من معدتك. وسوف يُمهلك ذلك ثلاثة أيام حتى تموت، وستُعاني من آلامٍ لا أعتقد أن عقلك الجسيم يُمكِنُه تخيُّلُها.

صعد السيد جونز الدرَج إلى الباب الأمامي ومرَّ بخنوعٍ وصمت إلى داخل المنزل. كان الليل باردًا وارتجف عندما دخل المسكنَ غير المريح. أشعل أحدُ الرجلَين مصباحًا كهربائيًّا، أغلق الباب على ضوئه. ثم أطفأ الضوء، ووجدوا طريقهما صعودًا على الدرَج المُغبر بمساعدة مصباح جيب كان ليون جونزاليس يُضيئه أمامه.

قال ليون بسرور: «هذا هو مأواك الصغير.» وفتح الباب وأدار مفتاح الكهرباء.

المأوى عبارةٌ عن حمامٍ كبير. من الواضح أن ليون وجد مطلبه المثالي، كما اعتقد مانفريد؛ لأن الغرفة كانت كبيرةً للغاية، بحيث يُمكن وضعُ سرير في أحد أركانها، وقد وضعه السيد جونزاليس في أحد أركانها بالفعل. رأى جورج مانفريد أن صديقه حَظِيَ بيومٍ مزدحِم للغاية. كان السرير مريحًا، وبدا بملاءاته البيضاء ووسائده الناعمة ذا جاذبيةٍ خاصة.

في حوض الاستحمام الواسع والعميق، وُضع كرسي وندسور ثقيل، ومن أحد الصنابير عُلِّق خرطوم مطاطي.

لاحظ السيد جونز هذه الأشياء، كما لاحظ أن النافذة مُغطَّاة بالبطانيات لإبعاد الضوء.

قال ليون بحِدة: «مُدَّ يدَيك.» وقبل أن يُدرك سباجيتي جونز ما كان يحدُث، وُضِع زوجان من الأصفاد على مِعصَمَيه، ورُبِط حزام ببراعة من خلال الوصلات المُتصلة، وسُحِب بين ساقَيه.

قال ليون مازحًا: «اجلس على ذلك السرير. أريدُك أن ترى كم هو مريح.»

قال السيد جونز في فورة من الغضب المفاجئ: «لا أعرف ما تعتقد أنك فاعِلُه، ولكن بالله ستعرِف ستُحاسَب على كل هذا! انزع هذا الحجاب عن وجهك ودَعْني أرَك.»

قال ليون بلُطف: «أُفضِّل ألا تراني؛ لأنه إذا رأيتَ وجهي، فسأُضطَر إلى قتلِك، ولا أرغب في ذلك. اجلس.»

أطاعه السيد جونز مندهشًا، وزادت دهشته عندما بدأ ليون في نزع حذائه اللامع وجواربه الحريرية، ولفِّ أرجلِ بنطاله.

سأل الرجل بخوف: «ماذا تنوي؟»

أشار جونزاليس إلى الكرسي في الحمام، وقال: «اجلس على هذا الكرسي. إنه كرسي وندسور مريح ...»

استهلَّ جونز خائفًا: «انظر يا هذا.»

قال ليون بعنف: «ادخل.» وأطاع الرجل الضخم.

ثم سأل ليون بأدب: «هل أنت مرتاح؟»

عبَس الرجل في وجهه.

قال: «لن ترتاحَ أنت إلى أن أُنهِيَ أمرك.»

سأل ليون: «كيف ترى شكل ذلك السرير؟ يبدو مريحًا للغاية، أليس كذلك؟»

لم يرُدَّ سباجيتي جونز، وضربه جونزاليس برفقٍ على كتفه.

«الآن يا صديقي البدين، هل ستُخبرني أين أخفيتَ فيليب فينشي؟»

ابتسم السيد جونز ابتسامةً عريضة، وقال: «أوه، هذا هو الأمر إذن، أليس كذلك؟ حسنًا، يُمكنك الاستمرار في السؤال!»

نظر لأسفل إلى قدَمَيه الحافيتَين، ثم مِن أحدهما إلى الآخر.

قال: «لا أعرِف أيَّ شيءٍ عن فيليب فينشي. من هو؟»

«أين أخفيتَ فيليب فينشي؟»

قال جونز ساخرًا: «أتظن أنني إذا كنتُ أعرف مكانه فسأُخبرك، أحقًّا تظنُّ ذلك؟»

أجاب ليون بهدوء: «إذا كنتَ تعلَم، فستُخبرني بالتأكيد، لكنني أتصوَّر أنها ستكون مهمةً طويلة. ربما تستغرق ستةً وثلاثين ساعة! يا جورج، هلَّا توليتَ الساعة الأولى؟ سأذهب للنوم على هذا السرير المريح للغاية، ولكن أولًا ...» التمَس طريقه خلف حوض الاستحمام وأحضرَ رِباطًا ومرَّ به حول جسد السجين، وربطه بظهر الكرسي، قال مُبتسمًا: «كي يمنعك من السقوط.»

استلقى على السرير وغطَّ في النوم بعد بضع دقائق. يحظى ليون بقُدرته على النوم متى شاء، وهي المقدرة التي يتمتَّع بها القادة العظام.

ظلَّ جونز ينتقلُ ببصره من النائم إلى الرجل المُحجَّب الذي استلقى على كرسيٍّ مريح مواجهًا له. كان قد قُطِع مكانٌ للعينَين في الحجاب، وكان المُراقِب يضع كتابًا على ركبته ويقرأ.

سأله: «كم سيستمرُّ هذا؟»

قال مانفريد بهدوء: «ليومٍ أو يومَين. هل تشعُر بالملل الشديد؟ هل ترغب في القراءة؟»

دمدم السيد جونز بشيءٍ غير سار، ولم يقبل العرْض. ولم يكن يستطيع التفكير والتكهُّن إلا فيما يتعلق بنواياهما. توقَّع منهما العنف، لكن يبدو أنه لم يكن هناك عنفٌ مُتعمَّد؛ فقد كانا يحتجزانه حتى يتكلَّم. لكنه سيجعلهما يندمان! بدأ يشعر بالتعَب. وتدلَّى رأسُه فجأةً إلى الأمام حتى لامس ذقنُه صدرَه. قال مانفريد على الفور: «استيقِظ.»

استيقظَ قافزًا.

أوضح مانفريد: «ليس من المُفترض أن تنام.»

زأر السجين: «أهو كذلك؟ حسنًا سأنام!» واستقرَّ على الكرسي بارتياحٍ أكبر.

بدأ في النُّعاس عندما عانى من انزعاجٍ حادٍّ ورفع قدمَيه صارخًا. كان الرجل المُحجَّب يُوجِّه تيارًا من الماء المُثلج على قدمَيه العاريتَين، وأصبح السيد جونز الآن مُستيقظًا تمامًا. بعد ساعة، بدأَت رأسُه تميل مرةً أخرى؛ ومرةً أخرى وُجِّه خرطوم الرشِّ الصغير إلى قدمَيه، ومرةً أخرى أخذ مانفريد منشفةً وجفَّفها بعناية كما لو كان السيد جونز مريضًا.

في الساعة السادسة صباحًا، وبعيونٍ حمراء مُحملِقة، رأى مانفريد وهو يوقظ ليون النائم ويأخذ مكانه على السرير.

كان النُّعاس يسحب ذقن الرجل الضخم إلى صدره مرارًا وتكرارًا، ومرةً تلوَ الأخرى يُرَش التيار المثلج عليه بجنونٍ فيستيقظ صارخًا.

أخذ يسحب الرباط والغضبُ من العجز يتملَّكه، صرخ: «دعْني أنَمْ، دعني أنَم!» كاد أن يُجَنَّ من التعب، وبدأ الشرَرُ يتطاير من عينَيه.

سأل ليون الذي لا يرحم: «أين فيليب فينشي؟»

صرخ الرجل: «هذا عذاب، اللعنة عليك.»

«ليس أسوأَ بالنسبة لك من صبيٍّ محبوس في غرفة بها طعام يكفي لأربعة أيام. وليس أسوأَ من قطعِ وجه رجلٍ بسكِّين، يا صديقي البُدائي. لكن ربما لا تعتقد أن إرهاب طفلٍ صغير أمر خطير.»

قال سباجيتي بصوتٍ أجش: «لا أعرف مكانه، صدِّقني.»

أجاب ليون، وأشعل سيجارة: «إذن علينا أن نُبقِيَك مُستيقظًا حتى تتذكَّر.»

بعد فترةٍ وجيزة، نزل إلى الطابق السُّفلي وعاد ومعه القهوة والبسكويت للرجل، ووجده نائمًا نومًا عميقًا.

انتهَت أحلامه في عويلٍ من العذاب.

توسَّل والدموع في عينَيه: «دعني أنم، من فضلك دعني أنَم. سأعطيك أيَّ شيءٍ إذا سمحتَ لي أن أنام!»

قال ليون: «يُمكنك النوم على هذا السرير، وهو سرير مريح للغاية؛ ولكن أولًا يجب أن نعرف أين فيليب فينشي.»

صرخ سباجيتي جونز: «سأراك في الجحيم قبل أن أُخبرك.»

أجاب ليون بأدب: «سوف تتآكل عيناك وأنت تبحث عني. استيقِظ!»

في الساعة السابعة من مساء ذلك اليوم، تأوَّه الرجل الباكي والمُتشنِّج والمنكسِر بالعُنوان، وذهب مانفريد للتحقُّق من هذه المعلومات.

«دعْني أنَم الآن!»

قال ليون: «ستبقى مُستيقظًا حتى يعودَ صديقي.»

في الساعة التاسعة، عاد جورج مانفريد من ميدان بيركلي، بعد أن أطلق سراحَ الصبي الصغير المرعوب من قبوٍ كريه في نوتنج هيل؛ وقاما معًا بانتشال الرجل نصفِ الميت من حوض الاستحمام وفتحا أصفاده.

قال مانفريد: «قبل أن تنام، اجلس هنا، ووقِّعْ هذه.»

كانت «هذه» وثيقةً لا يُمكن للسيد جونز قراءتُها حتى لو كان يرغب في ذلك. كتب توقيعه، وزحف على السرير نائمًا قبل أن يسحب مانفريد الملابس فوقه. ظلَّ نائمًا حتى دخل رجلٌ من سكوتلاند يارد إلى الغرفة وهزَّه بعنف.

لم يكن سباجيتي جونز يعرف شيئًا عمَّا قاله المُحقق؛ فلم يتذكَّر اتهامه أو سماعه لاعترافه الذي وقَّع عليه وقرأه عليه رقيبُ القسم. لم يتذكر شيئًا حتى أيقَظوه في زنزانته للمثول أمام قاضي التحقيق لجلسة استماعٍ أولية.

قال حارس السجن لجرَّاح السجن: «إنه شيء غير عادي يا سيدي. لا يُمكنني جعلُ هذا الرجل يظلُّ مُستيقظًا.»

قال الجرَّاح مُبديًا مساعدته: «ربما يودُّ أخذَ حمامٍ بارد.»

الفصل العاشر

البريء

لم يُعثَر على سجلٍ لنشر قصة بهذا العنوان في أي مجلة

رفع ليون جونزاليس عينَيه عن كتابه وخلع النظارة ذاتَ الإطار المصنوع من قرون الحيوانات، التي يرتديها في أثناء القراءة، قال: «هل لاحظتَ من قبل أنَّ مُستخدمي السُّمِّ في القتل وأصحاب دُور تربية الأطفال المُفتقِرين إلى عائل دائمًا ما يكونون من المُتصوِّفين؟»

قال مانفريد وهو يتثاءب قليلًا: «لم أُلاحظ الكثير من أصحاب دُور تربية الأطفال المُفتقِرين إلى عائلٍ أو مُستخدمي السُّمِّ في القتل بذلك الوصف. هل تقصد «بالصوفي» شخصًا مجذوبًا يعتقد أنه يستطيع التواصُل مباشرة مع القوة الإلهية؟»

أومأ ليون.

وقال قاطبًا حاجبَيه: «لم أفهم قطُّ العلاقة بين التدين الظاهري الفجِّ والجريمة؛ ذلك لأنَّ الدين، بالطبع، لا يُطوِّر النزعة الإجرامية الخاملةَ في التكوين الأخلاقي للإنسان؛ لكن الحقيقة هي أن بعض المُجرمين يُطوِّرون شكلًا غريبًا من الغلوِّ في الدين. وجد فيري — الذي استجوب مائتي قاتل إيطالي — أنهم جميعًا مُتديِّنون؛ ووجد أن نابولي — المدينة الأتقى في أوروبا — هي أيضًا أكبر معقل للجريمة. كما أن عشرة في المائة من نزلاء السجون البريطانية يرسُمون على أجسامهم وشومًا لرموزٍ دينية.»

انشغل مانفريد في الورقة التي يقرؤها، قال: «وهو ما لا يَعني إلا أنه عندما يذهب رجلٌ ضعيفُ الذكاء لرسَّام الوشوم، فإنه يطلُب رسومات للأشياء التي يعرفها.» ثم فجأة،

أسقط الصحيفة على ركبتَيه، وقال: «أنت تُفكر في الدكتور تويندين.» وأمالَ ليون رأسه ببطء.

قال مُعترفًا: «كنت كذلك.»

ابتسم مانفريد.

وقال: «أُعلِنَت براءةُ تويندين بالإجماع، وكان يهتف وهو يُغادر محكمة الجنايات في إكستر، ولكنه كان مُذنبًا!»

«لا شكَّ أن التهمة ثابتةٌ عليه من رأسه إلى أخمص قدمَيه. تساءلت هل تُفكر في هذه القضية يا جورج. لم أُناقش الأمر معك.»

سأل مانفريد: «بالمناسبة، هل كان متدينًا؟»

قال الآخر وهو يهزُّ رأسه: «لا يُمكنني القول بذلك. كنتُ أفكر في خِطاب الشكر وعبارات التَّقْوى التي كتبَها فيه، نُشِر الخطاب في صحيفتَي باكستر وبليموث. كان أشبهَ بالعِظَة الدينية. أما ما هو عليه في حياته الخاصة، فلا أعرف عنه أكثرَ مما أخبرَني به تقريرُ المحاكمة. هل تعتقد أنه سمَّمَ زوجته؟»

قال مانفريد بهدوء: «أنا متأكد، وكنتُ أنوي مناقشة الأمر معك هذا المساءَ.»

أحدثَت محاكمةُ الدكتور تويندين ضجةً كبيرة في الصحف هذا الأسبوع. يبلُغ الطبيبُ ثلاثين عامًا، وكانت زوجته تكبره بسبعة عشر عامًا، وقيل إنه تزوَّجَها من أجل مالها؛ فقد كانت تمتلك إرثًا قدرُه ألفا جنيه إسترلينيٍّ سنويًّا، ولكنه توقَّف بوفاتها. قبل ثلاثة أشهر من هذا الحدث، ورثت ثلاثةً وستِّين ألفَ جنيه إسترليني من شقيقها الذي تُوفِّي في جوهانسبرج.

لم يكن تويندين وزوجته على أفضل حال، ومن مواضيع الخلاف بينهما عدمُ رغبتها في الاستمرار في سداد ديونه. بعد انتقال ميراثها إليها، أرسلت إلى توركواي — مُحاميها — مُسوَّدة وصية تركَت فيها دخل اثنَيْ عشر ألف جنيه إسترليني لزوجها، بشرط ألا يتزوَّج مرةً أخرى. وأوصَت بما تبقَّى من ثروتها لابن أخيها، جاكلي، وهو مهندس مدني شاب يعمل في شركة بليموث.

صاغ المحامي وصاياها وأرسلَ نسخةً أوَّلية لاعتمادها قبل الاستحواذ عليها. وصلت هذه المُسوَّدة إلى نيوتن أبوت حيث يعيش الطبيبُ وزوجته (وكان الطبيب يعمل هناك) ولم يرَها أحدٌ مرةً أخرى. شهد ساعي البريد أنها سُلِّمت في «حوالي» الساعة الثامنة يوم السبت. في ذلك اليوم استُدعي الطبيب لاستشارةٍ بشأن حالة لدغة أفعى. ثم عاد في المساء

وتناول العشاء مع زوجته. ولم يحدُث شيءٌ غير عادي. ذهب الطبيب إلى مُختَبَره لفحص الكيس السامِّ الذي استخرجَه من الحيوان الزاحف.

في الصباح، أُصيبَت السيدة تويندين بمرضٍ شديد، وظهرت عليها أعراضٌ يمكن تشبيهها بتسمُّم الدم وتُوفِّيت في الليلة نفسِها.

ووُجِد في ذراعها ثُقب صغير مثل إبرةٍ تحت الجلد، مثل الإبرة التي لدى الطبيب بالطبع، كان لديه في الواقع عشرة منها.

أُثيرَت الشكوك حوله في الحال. ولم يطلُب من أحد أي مساعدة أخرى غير تلك التي يُمكنه أن يُقدمها بنفسه، حتى ذهب كلُّ أملٍ في إنقاذ المرأة التعيسةِ الحظ. وثبت بعد ذلك أن السُّمَّ الذي ماتت به المرأة كان سُمَّ أفعى.

ما خدمه في القضية أنه لم يُعثَر على أي أثرٍ للسُّم في أيٍّ من المحاقن الثلاث أو الإبر العشر التي لديه. اعتاد أن يُعطي زوجته حقنةً تحت الجلد بها مصلٌ جديد لعلاج الروماتيزم، وشهد على ذلك الخدَمُ وطبيبٌ آخر هو مَن وَصفَ العلاج لها.

كان يُعطيها هذا العلاج مَرَّتَين في الأسبوع، ويومُ السبت أحدُ هذَين اليومين.

حُوكِم وأُعلنت براءته. وبين ساعة اعتقاله وإطلاق سراحه، اكتسب شعبيةً تحظى بها شخصيةُ السياسيين الناجحين والقتَلة الذين يخدعك مظهرُهم، وقد نُقِل من مقرِّ الجلسة وسط حشدٍ من المُعجبين المُبتهجين الذين لم يجدوا شيئًا مُثيرًا للإعجاب في شخصيته، ولم يكونوا حتى على علمٍ بوجوده، حتى أمسكَت به يدُ القانون الحديدية.

ربما زادت حماسةُ الحشد ووصلَت إلى أعلى درجاتها بالإعلان الذي أدلى به المُتهَم في قفص الاتهام، حيث دافع عن نفسه قائلًا: «سواءٌ تمَّت إدانتي أو تبرئتي، فلن أَمَسَّ فلسًا واحدًا من أموال زوجتي العزيزة. أعتزم التخلُّص من هذه الثروة اللعينة لفقراء البلاد. ومن ناحيتي، فسأترك هذه الأرضَ إلى شاطئٍ بعيد في أرضٍ غريبة، وسطَ الغرباء، وأحتفظ بذكرى زوجتي العزيزة وشريكتي وصديقتي.»

هنا انهار الطبيب.

قال مانفريد مُتذكرًا كلمات السجين الحماسية: «شاطئ بعيد. يُمكنك أن تفعل الكثيرَ بثلاثةٍ وستِّين ألف جنيه على شاطئٍ بعيد.»

لمعَت عينا ليون بفرحٍ مكبوت، وقال: «يُحزنني يا جورج أن أسمع مثل هذه السخرية. هل نسيتَ أن فقراء ديفونشاير يُفكرون الآن كيف سيُنفقون هذه الأموال؟»

أحدث مانفريد ضجيجَ ازدراء واستأنفَ قراءته، لكن رفيقه لم ينتهِ من الموضوع.

قال مُفكرًا: «أريد مقابلة تويندين. هل تهتمُّ بالذَّهاب إلى نيوتن أبوت يا جورج؟ المدينة نفسُها ليست جميلة على نحوٍ خاص، لكننا على بُعد نصف الساعة من منزلنا القديم في باباكومب.»

هذه المرةَ وضع جورج مانفريد صحيفته جانبًا بلا ريب.

قال بجدية: «إنها جريمة خبيثة للغاية. أعتقد أنني أتفق معك يا ليون. كنتُ أُفكر في الأمر طوال الصباح، ويبدو أنه يتطلَّب بعض الإنصاف.» ثم تردَّد قائلًا: «ولكنه يتطلَّب أيضًا بعض الأدلة؛ فما لم نتمكن من توفير دليلٍ لم يُعرَض على المحكمة من قبل، لا يُمكننا الاعتماد على الشك.»

أومأ برأسه وقال بهدوء: «لكن إذا أثبتنا التُّهمة، أَعِدُك يا مانفريد بأروع مُخطط.»

بعد ظُهر ذلك اليوم، اتصل بصديقه السيد فير من سكوتلاند يارد، وعندما استمع المُفوَّض إلى طلبه، لم يكن مُتفاجئًا بقدْر ما كان سعيدًا.

قال: «بتُّ أتساءل كم سيمضي من الوقت قبل أن ترغب في رؤية سجوننا أيها السيد. يُمكنني ترتيب ذلك مع المُفوضين. ما السجن الذي تريد رؤيته؟»

قال ليون: «أتمنَّى أن أرى سجن مقاطعة نموذجيًّا. ماذا عن باكستر؟»

قال الآخر بدهشة: «باكستر! هذا بعيد جدًّا عن لندن. إنه لا يختلف كثيرًا في الواقع عن واندسوورث، الذي يبعد بضعةَ أميال عن هذا المبنى، أو بينتونفيل، وهو سجن مَقرِّنا الرئيسي.»

قال ليون: «أُفضِّل باكستر. الحقيقة هي أنني ذاهب إلى ساحل ديفونشاير، ويمكنني أن أستثمر وقتي في هذه المعاينة.»

صدر الأمر على الفور في اليوم التالي، وكان عبارةً عن مذكرة مطبوعة يأذن بها حاكمُ سجن باكستر التابع لجلالة الملك بالسماح لحاملها بزيارة السجن بين الساعة العاشرة والساعة الثانية عشْرة صباحًا، وبين الساعة الثانية والرابعة عصرًا.

قطعا رحلتَهما في باكستر، وتوجَّه ليون إلى السجن، وهو مبنًى أجملُ من مُعظم المباني من هذا النوع. استقبله نائب المأمور وكبير حرَّاس طويل وحسَن المظهر وكان جنديًّا سابقًا في فرقة الحرس؛ أخذه في جولةٍ حول الأجنحة الثلاثة، وعبر الأراضي المحظورة في السجن.

عاد ليون إلى رفيقه في محطة السكة الحديد في الوقت المناسب للحاق بقطار بليموث إكسبريس، الذي سينقلهما إلى نيوتن أبوت.

قال: «زيارة مُرضية تمامًا. في الواقع، لم أرَ سجنًا مُلائمًا بهذا الشكل المُدهِش كهذا السجن.»

سأل مانفريد: «أهو مناسبٌ لدخوله أم للخروج منه؟»

قال ليون «كِليهما.»

لم يعتادوا النزول في أيٍّ من الفنادق. قرَّر ليون استئجارَ شقة بالقُرب من مكان الحادث إذا أمكن. وقد نجح في العثور على شقةٍ مفروشة على بُعد ثلاثةِ منازل من الزاوية التي كان يُقيم فيها الدكتور تويندين.

مالكة الشقة امرأة لطيفة من ديفونشاير ذات وجهٍ وردي، ولم يستأجرها غيرُهما. يعمل زوجها مدفعيًّا على إحدى السفن في الجيش الملكي، وكان في البحر في ذلك الوقت. أرَتهما غرفة جلوس جيدة الإضاءة وغُرفتَي نوم في الطابق نفسِه. طلب مانفريد الشاي، وعندما أغلق الباب خلف المرأة، استدار ورأى ليون واقفًا بجانب النافذة يُحدق باهتمامٍ في راحة يده اليسرى، إذ كان يرتدي قفازًا حريريًّا باللون الرمادي في يدَيه كِلتَيهما.

ضحك مانفريد.

وقال: «لا أُعلِّق عادة على ملابسنا يا عزيزي ليون.» وأضاف: «وبتذكُّر أنك لست بريطانيًّا، فمن اللافت أنك ترتكب القليل من الأخطاء في أزيائك — هذا من وجهة نظر رجلٍ إنجليزي.»

قال ليون، وهو ما زال ينظر إلى كفه: «إنه غريب، أليس كذلك؟»

تابع مانفريد بفضول: «لكنني لم أرَك ترتدي قفازاتٍ حريرية من قبل. في إسبانيا، ليس من الغريب ارتداءُ القفازات القطنية، أو حتى الحريرية …»

غمغم ليون: «أفضل أنواع الحرير، ولا يُمكنني أن أَثنِيَ يدي فيه.»

قال مانفريد متفاجئًا: «هذا إذن هو السبب في أنك تضعه في جيبك.» وأومأ جونزاليس.

قال: «لا أستطيع أن أَثنيَ يدي فيه؛ لأن في كفِّ يدي صفيحةً نُحاسية صُلبة، وعلى تلك الصفيحة نصف بوصةٍ من الطين اللَّدن ذي الملمس البالغِ النعومة.»

قال مانفريد ببطء: «فهمت.»

قال ليون: «أحبُّ سجن باكستر، ومساعد المأمور شابٌّ محبوب، وقد أسعدتني فرحتُه بدهشتي واهتمامي عندما أطلعني على الزنازين، حتى إنه سمح لي بفحص المفتاح الرئيسي للسجن، الذي يحمله بطبيعة الحال. وعندما وضع يدَه على عينه وحكَّها، ضغطتُ على الطرف المُسنَّن للمفتاح في راحة يدي التي أرتدي فيها القفاز. ويا للعجَب، فقد تمَّ

الأمر في ثانيةٍ يا عزيزي جورج، ولم أترك شيئًا على المفتاح يكشف عن مغامرتي غير المشروعة.»

أخرج مِقصًّا قابلًا للطيِّ من جيبه وفتحه ببراعةٍ وسرعان ما قطع الكفَّ الحريري للقفاز.

«قلتُ: «يا له من أمرٍ رائع. هذا هو المفتاح الرئيسي!» ثم ذهبنا لرؤية زنزانة العقاب والحديقة والقبور الصغيرة غير المُرتبة، حيث يرقُد القتلى الذين خالفوا القانون؛ وطوال الوقت كان عليَّ أن أُبقيَ يدي في جيبي، خوفًا من أن أطرق شيئًا وتفسد الصورة المطبوعة.»

من الواضح أن الجانب السُّفلي من راحة اليد صُنِع خِصِّيصى لإزالة الجزء الحريري بسهولة، تاركًا لوحًا رماديًّا رقيقًا من الصلصال المُلوَّن في الوسط، حيث كانت صورة المفتاح مطبوعةً بشكلٍ واضح.

قال مانفريد: «أليس الثُّقب الصغير في الجانب هو المكان الذي تحفر فيه سِن المفتاح للحصول على القُطر؟» فأومأ ليون.

قال مُبتسمًا وهو يضعه على الطاولة: «هذا هو المفتاح الرئيسي لسجن باكستر يا عزيزي مانفريد. بهذا يُمكنني الدخول ...» ثم توقف فجأة وعضَّ شفته وقال: «كلَّا، لا يمكنني.»

قال مانفريد بإعجاب: «أنت عظيم.»

قال ليون بوجهٍ ساخر: «ألستُ كذلك؟ هل تعلم أن هناك بابًا واحدًا لا يُمكننا فتحه؟»

«ما هو؟»

«البوابات الكبيرة بالخارج. يمكن فتحها من الداخل فقط.»

وضَع قُبعته بعناية فوق القالَبِ الطيني عندما دخلت المالكة ومعها الصينية.

احتسى ليون الشاي، وهو يُحدق في ورق الحائط الخشن، ولم يُقاطع مانفريد تفكيرَه.

كان ليون جونزاليس دائمًا المُخطِّط في تنظيم رجال العدالة الأربعة، وقد حاك كلَّ خُطة من خُططه كما لو كانت قصةً يرويها بنفسه.

مكَّنه خيالُه الاستثنائي من توقُّع كل أمر طارئ. وكان مانفريد يقول في كثيرٍ من الأحيان إن وضع الخطة يمنح ليون الكثيرَ من المتعة التي لا تقلُّ عن مُتعة إتمامها.

قال أخيرًا: «يا لي من غبي أحمق؛ لم أدرك أنه لا يُوجَد ثُقب مفتاح في البوابة الرئيسية للسجن، باستثناء في دارتمور بالطبع.»

مرة أخرى عاد إلى التأمُّل وهو ينظر إلى الجدار صامتًا، وكسر صمته بتمتماتٍ غامضة: «أُرسِل البرقية ... يجب أن تأتي، بالطبع، من لندن ... سيُرسلونه إلى السجن إذا كانت حُجة البرقية قويةً بما يكفي. لا بدَّ أن ثمَّة خمسةَ رجال، لا يُمكن لخمسة أن يركبوا سيارة أجرة، ستة ... باب الشاحنة مُغلق، لكنه لن يكون كذلك ... إذا فشل الأمر، يُمكنني المحاولة في الليلة التالية.»

سأل مانفريد مُداعبًا: «عن أي شيء تتحدَّث؟»

استيقظ ليون فجأةً من حلم يقظته.

وقال: «يجب أولًا أن نُثبِت أن هذا الرجل مُذنب، وعلينا أن نبدأ في هذه المهمة الليلة. أتساءل عما إذا كانت المالكةُ الطيبة لديها حديقة.»

كانت المالكة الطيبة تمتلك حديقة، وكانت تمتدُّ لمسافة مائتَي ياردة في الجزء الخلفي من المنزل؛ وقام ليون بمسحٍ لها ووجدها حسبما يُريد.

سأل ببراءة عندما أشارت المالكة لذلك المكان الذي يَعنيهما: «أهذا مكان الطبيب؟ أليس هو الرجلَ الذي حُوكم في باكستر؟»

قالت المرأة بنبرةِ انتصار: «إنه هو بالفعل. لا أخفيكما القول، لقد تسبَّب في ضجةٍ كبيرة هنا.»

«هل تعتقدين أنه كان بريئًا؟»

لم تكن المالكة مُستعدَّة لاتخاذ موقفٍ مُحدَّد.

ولكنها أجابت بروح الدبلوماسية الحقيقية: «بعض الناس يعتقدون شيئًا، وبعضهم الآخر يعتقد خلاف ذلك. لقد كان دائمًا رجلًا لطيفًا، وقد اعتنى بزَوجي عندما كان في المنزل آخِر مرة.»

«هل الطبيب موجود في منزله؟»

قالت المرأة: «نعم يا سيدي. سيُسافر إلى الخارج قريبًا.»

«أوه نعم، إنه يوزِّع تلك الأموال، أليس كذلك؟ قرأتُ شيئًا عنها في الصحف. سيستفيد الفقراء، أليس كذلك؟»

تنفَّسَت المالكة وقالت بثِقل: «آمُل أن يحصلوا عليها.»

ابتسم مانفريد عائدًا من فحصه لأزهار الأُقْحُوان النامية لديها، وقال: «ما يعني أنكِ لا تعتقدين أنهم سيحصلون عليها.»

قالت المالكة الحذِرة: «ربما، لكن لم يحدُث شيء حتى الآن. ذهب القسُّ إلى الطبيب صباحَ أمس وسأله أن يُبقيَ على القليل من المال لفقراء نيوتن أبوت. ارتفعَت نسبة

البطالة هنا مؤخرًا، وقال الطبيب: «نعم، سأُفكر في الأمر.» وأرسل له شيگًا بخمسين جنيهًا حسبما سمعت.»

قال مانفريد: «هذه ليست صفقةً عظيمة. ما الذي يجعلكِ تعتقدين أنه سيُسافر للخارج؟»

قالت المالكة: «لقد حزم جميع أمتعته، وأعطى خدَمَه فترة سماح ليُغادروا العمل، ومن ذلك عرَفت. لا أعتقد أنه أمر سيئ. يا لروحها المسكينة، لم تحظَ بحياةٍ سعيدة للغاية.»

يبدو أن «الروح المسكينة» المُشار إليها هي زوجة الطبيب؛ وعندما طُلِب من المالكة التوضيح، لم تكن تعرِف أكثر ممَّا قاله الناس، وأنه ربما ليس ثمَّة سوء في الأمر، وما الذي يمنع الطبيب من الذَّهاب بالسيارة مع الفتيات الجميلات إذا شعر بميلِه لذلك.

قالت المالكة: «كانت لديه أهواؤه.»

يبدو أن تلك «الأهواء» كانت تأتيه بين الحين والآخر خلال سنوات زواجه.

قال ليون: «أودُّ مقابلة الطبيب.» لكنها هزَّت رأسها وقالت: «لن يرى أحدًا، ولا حتى مرضاه يا سيدي.»

ومع ذلك، نجح ليون في الحصول على مقابلة. لقد حكم على شخصية الرجل الحُكمَ الصحيح، حتى الآن، وكان يعلم أنه لن يرفض مقابلةً مع صحفي.

أخذت الخادمةُ اسم ليون، وأغلقَت الباب الأمامي في وجهه أثناء ذهابه لرؤية الطبيب؛ وعندما عادت، دعَتْه للدخول.

وجد الطبيبَ في غرفة مكتبه، وقد أثبتت حالةُ الغرفة المُجردة من أثاثها كلامَ السيدة مارتن بأنه سيُغادر المدينة في وقتٍ مبكر. ولَمَّا وصل ليون، وجدَه منشغلًا بإتلاف خطابات الأعمال والفواتير القديمة.

دمدم الطبيب: «ادخل. أظنُّ أنني لو لم ألتقِ بك، لألَّفتَ عنِّي أشياء غير حقيقية. حسنًا، ماذا تريد؟»

كان شابًّا حسنَ المظهر ذا ملامح عادية، وشارب أسود مُشذَّب بعناية وسوالفَ جانبية سوداء صغيرة.

قال ليون لنفسه: «لا أُحبُّ العيون الزرقاء الفاتحة، وأودُّ أن أراك بلا شارب.»

قال ليون بخِفةٍ وسرعة، بل وبوقاحة صحفي لندني: «لقد أرسلوني من لندن لأسألَ عن الجهات الخيرية التي ستُوزع أموالَ زوجتك عليها يا دكتور تويندين.»

تجعَّدَت شفتا الطبيب.

قال: «أقلُّ ما يُمكنهم فعله هو إعطائي فرصةً لاتخاذ قراري. الحقيقة هي أنني يجِب أن أسافر إلى الخارج للعمل، وأثناء غيابي، سأُفكر مليًّا في مزايا الجهات الخيرية المختلفة في ديفون لاكتشاف الجهة الأحق وأُفكر في كيفية توزيع الأموال.»

سأل ليون بأسلوبٍ فظ: «أظنُّ أنك لن تعود مرةً أخرى؟ أعني أنه قد يحدُث أيُّ شيء؛ قد تغرق السفينة أو يتحطَّم القطار، فماذا سيحدث للمال إذن؟»

قال الطبيب غاضبًا ومُغمض العينَين ومقوَّسَ الحاجبَين للحظةٍ وهو يتحدَّث: «هذا شأني أنا. لا أرغب حقًّا في إعادة فتح هذا الأمر. لقد تلقَّيتُ بعض الرسائل الساحرة للغاية من الجمهور، ولكن وصلَتني رسائلُ مُسيئة أيضًا. تلقيتُ رسالةً هذا الصباح تقول إنه من المؤسِف غيابُ رجال العدالة الأربعة!» وضحك ازدراءً وقال: «رجال العدالة الأربعة! وكأنه كان يجب أن أهتمَّ قِيدَ أنملة بهذا النوع من الرعاع!»

ابتسم ليون أيضًا.

وقال: «ربما سيكون الأمر أنسبَ لو رأيتُك الليلة.»

هزَّ الطبيب رأسه.

وقال بنزعة أهمية غريبة: «سأكون ضيفَ شرفٍ لدى بعض أصدقائي، ولن أعود إلا في الحاديةَ عشرة والنصف على أقرب تقدير.»

قال ليون: «أين سيُقام العَشاء؟ قد يُهمني هذا الخبر.»

«سيُقام في فندق ليون. يُمكنك القول إن السير جون موردين سيترأس الجمع، وإن اللورد توسبورو قد وعد بالحضور. يُمكنني أن أُعطيَك قائمة بالأشخاص الذين سيتواجدون.»

اعتقد ليون اعتقادًا راسخًا بأن «حضور العشاء فرصة حقيقية.»

أتت القائمة، وأخذ جونزاليس الورقة في جيبه بالاحترام الواجب وخرج. ومن نافذة غرفة نومه في ذلك المساء، رأى الطبيبَ مُهندمًا على نحوٍ مدهش يدخل سيارةَ أجرة ويذهب بعيدًا. بعد ربع ساعة خرجَت الخادمة التي رآها ليون وهي ترتدي قفازها. راقبها جونزاليس لمدة ربع ساعة، وقفت خلالها على زاوية الشارع. من الواضح أنها كانت تنتظر شيئًا أو شخصًا ما. هذا ما رآه. مرت حافلة توركواي، وتوقفت، وركِبتها.

بعد العشاء، أجرى حديثًا مع المالكة حيث عاد للحديث عن منزل الطبيب.

«أفترض أن الأمر يتطلَّب الكثير من الخدَم للاعتناء بمنزلٍ كبير كهذا.»

«لديه الآن خادمة واحدة فقط يا سيدي وهي ميلي براون، التي تعيش في توركواي. ستُغادر يوم السبت. غادر الطباخ الأسبوع الماضي، ويتناول الطبيب جميعَ وجباته في الفندق.»

ترك مانفريد للتحدُّث مع المالكة؛ إذ يُمكن أن يكون مانفريد مُسليًا للغاية.

تسلَّل عبر الحديقة ووصل إلى زقاق صغير خلف المنازل. وجد البوابة الخلفية المؤدية إلى حديقة الطبيب مُغلقة، لكن الجدار لم يكن مُرتفعًا. وتوقع أن يكون بابُ المنزل مغلقًا؛ فلم يتفاجأ عندما وجدَه كذلك. ومع ذلك، كانت النافذة بجوار الباب مفتوحةً على مصراعَيها؛ من الواضح أن الطبيب وخادمته لم يتوقَّعا اللصوص. صعد من خلال النافذة إلى حوض المطبخ، عبر المطبخ إلى المنزل من دون صعوبة. لم يستغرق وقتًا طويلًا في البحث في المكتبة التي رآها بعد ظهر ذلك اليوم. لم يَحتوِ المكتب على أدراجٍ سرية، ومُعظم الأوراق قد احترقَت. غمَر الرمادُ المدفأة ووصل لجانبها المكسو بالبلاط. ولم يُسفِر بحثه في المختبر الصغير— الذي يبدو أنه كان محلًّا للألبان في وقتِ الساكن السابق — عن أي شيء، وكذلك الأمر في بقية الغرف.

لم يتوقَّع أن يكتشف شيئًا من هذا البحث وحده؛ إذ تذكَّر أن الشرطة ربما داهمَت المنزل بعد اعتقال الطبيب وأقامت في المكان منذ ذلك الحين.

بحثَ بنظامٍ وسرعة في جيوب جميع ملابس الطبيب التي وجدَها في خِزانة غرفة نومه، لكنه لم يعثُر فيها على شيءٍ يُثير الاهتمام أكثر من برنامج حفلاتٍ لأحد المسارح.

قال ليون بأسف: «أرجو ألَّا أُضطَرَّ إلى استخدام مِفتاحي.» ونزل الدرَج مرةً أخرى. ثم أشعل مصباح جيبه؛ فقد تكون هناك ملابس أخرى مُعلقةً في الصالة، لكنه وجد الشماعة فارغة.

وبينما كان يُشعِل الضوء حوله، ألقى الشعاعُ الضوءَ على صندوق بريدٍ كبيرٍ من الصفيح مُثبَّت بالباب. رفع الغطاءَ الأصفر ولم يرَ شيئًا في البداية. بدا صندوق الرسائل وكأنه مصنوعٌ في المنزل. رآه في البداية وكأنه مصنوع من قصديرٍ مُحبَّبٍ مَطلي ومُشكَّل بغير عناية ومُزوَّد بإطار خشبي؛ فقد رأى الدعامات في كل ركنٍ من أركانه. وكانت إحداها مكسورة، فوضع يدَه، ووجد أنَّ الشيء الذي ظنَّ أنه أطرافٌ مكسورة للإطار ما هو إلا طردٌ مربَّع صغير واقف في وضعٍ مستقيم، والآن كان قد تغيَّر لونه بسبب الغبار بحيث بدا وكأنه جزءٌ من الإطار الأصلي. أخرجه بعدما أزال الغطاء الورقي؛ كان مُثبتًا في مكانه بطرف مِسمارٍ دُفع في الخشب الأصلي، ما فسَّر سبب عدم سقوطه عندما أُغلِق

البابُ بقوة. نفخ التراب عنه، ووجد أنه مُرسَل من مُختبر باستور. لم يكن لديه رغبةٌ في فحصه هناك، ووضعَه في جيبه، وخرج من المنزل بالطريقة التي دخل بها، وعاد إلى مانفريد الذي بدأ القلق يأكل فيه بسبب تأخُّر ليون ثلاثَ ساعات في المنزل.

سأل مانفريد عندما كانا بمفردهما: «هل وجدتَ شيئًا؟»

قال ليون: «هذا.» وأخرج الطرد من جيبه وشرح أين وجده.

قال مانفريد فجأة: «معهد باستير. بالطبع، المَصل الذي استخدمه الطبيب لحقْن ذراع زوجته. باستير هم الوحيدون الذين يصنعونه. أتذكَّر أنني قرأتُ ذلك في تقرير المحاكمة.»

قال ليون: «والذي كان يحقنه مرَّتين في الأسبوع، إذا كنتُ مصيبًا في تذكُّري — يومَي الأربعاء والسبت — وأُدلِيَت شهادة بأنه لم يحقنها يوم الأربعاء قبل القتل. لم أستعجب في ذلك الوقت فحسْب، بل صُدِمت من عدم توجيه سؤال له على منصة الشهادة عن سبب إغفاله هذه الجرعة.»

قطع الورقة وفتح الطرد، وكان بداخله صندوقٌ خشبي مستطيل ملفوف حوله رسالة عليها عُنوان المُختبر، واتجاهات الوصول إليه، ومكتوبة باللغة الفرنسية:

«السيد (هكذا بدأت).

نُرسل إليك على الفور المَصلَ رقم ٤٧ الذي تُريده، ونأسف لأنه بسبب خطأ أحد المرءوسين لم يُرسَل إليك في الأسبوع الماضي. تلقَّينا برقيَّتَك اليوم التي تقول فيها إنه قد نفد منك المصل، وسنسعى للإسراع في إيصاله.»

كرَّر جونزاليس: «نفد منه المصل.» وأخذ ورق الغلاف وفحص الختم، ثم قال: «باريس، ١٤ سبتمبر، وها هو طابع الاستلام، نيوتن أبوت، ١٦ سبتمبر، الساعة السابعة صباحًا.»

قطب جبينه.

قال ببطء: «دُسَّت هذه الرسالة في صندوق البريد في صباح اليوم السادس عشر، وحُقِنت السيدة تويندين مساء يوم الخامس عشر. كان السادس عشر يوم أحد، وثَمَّة بريد مُبكِّر. أترى يا مانفريد؟»

أومأ مانفريد.

«من الواضح أنه لم يتمكن من حقن المَصل لأنه نفد من عنده، وقد وصل هذا عندما كانت زوجتُه تحتضر، فبالطبع لم يستخدِمه.»

أخرج أنبوبًا صغيرًا ونقر على الختم.

قال ليون: «حسنًا، سأحتاج إلى هذا المفتاح في نهاية المطاف. هل تتذكَّر يا مانفريد، لم يحقنها يوم الأربعاء، لماذا؟ لأنه لم يكن لديه مصل. توقَّع وصولَ هذا، ولا بدَّ أنه فقَد عقله. ربما سنكتشف أن ساعيَ البريد طرقَ الباب في صباح يوم الأحد ولم يتلقَّ إجابة، فدفع بالطرد الصغير عبر صندوق البريد، ولا بدَّ أنه سقط بالصدفة في الزاوية التي وجدتُه فيها.»

وضع الورقة على الأرض وأخذ نفسًا طويلًا.

قال: «والآن أعتقد أنني سأعمل على صُنع هذا المفتاح.»

بعد يومَين جاء مانفريد بالأخبار.

«أين صديقي؟»

ابتسمَت السيدة مارتن — المالكة — ابتسامةً كبيرة.

وقالت: «إن الرجل المُحترَم يعمل في الصوبة الزجاجية يا سيدي. اعتقدتُ أنه كان يمزح في ذلك اليوم عندما سأل إن كان بإمكانه وضعُ مِنجَلة على منضدة الأصص، لكن يا ربي، ظلَّ مشغولًا منذ ذلك الحين!»

قال مانفريد، آمِلًا ألا تكون السيدة على درايةٍ بمحرك الاحتراق الداخلي: «إنه يخترع مُكربِنًا جديدًا.»

«إنه يجدُّ في العمل أيضًا يا سيدي؛ خرج لتوِّه ليتنفَّس بعض الهواء الآن، ولم أرَ قطُّ رجلًا يتعرَّق هكذا! يبدو أنه يستخدم هذا المبرد طوال اليوم.»

استهل مانفريد قائلًا: «يجب ألا تُقاطِعيه.»

قالت المالكة بسخط: «لا أجرؤ على أن أحلم بفعل ذلك.»

شقَّ مانفريد طريقه إلى الحديقة، وسار إلى صديقه الذي رآه قادمًا لمُقابلته. كانت الصوبة الزجاجية ورشةَ عملٍ مثالية لليون؛ حيث كان بإمكانه تتبُّعُ سير المالكة وإخفاء المفتاح الذي كان يَبرده لمدة ثلاثة أيام.

قال مانفريد: «إنه سيُغادر اليوم، أو بالأحرى الليلة. إنه ذاهب إلى بليموث؛ ومن هناك سيلحق بالقارب الهولندي الأمريكي إلى نيويورك.»

قال ليون متفاجئًا: «هذه الليلة؟ هذا يُعطيني وقتًا كافيًا. بأي قطار سيُغادر؟»

قال مانفريد: «هذا لا أعرفه.»

«هل أنت متأكد؟»

أومأ مانفريد.

«يُشيع أنه سيُغادر غدًا، ولكنه سيهرب الليلة. لا أعتقد أنه يريد أن يعرف الناسُ برحيله. لقد اكتشفت ذلك من حماقة الطبيب الشهير. كنتُ في مكتب البريد عندما كان يُرسِل برقية. كان دفتر جيبه مفتوحًا على المنضدة، ورأيتُ بعض التذاكر عندما استرَقْتُ النظر. كنتُ أعرف أنها تذاكر سفينة، ولمحتُ الكلمة المطبوعة «روتردام». تصفَّحتُ الصحف وعرَفتُ أن سفينة روتردام ستُغادر غدًا. وعندما سمعتُ أنه أخبر الناس بمغادرته نيوتن أبوت غدًا، تأكدتُ من الأمر.»

قال ليون: «هذا كله لمصلحتنا يا جورج، سنُتوِّج مشوار حياتنا. أقول «سنتوِّج»، لكنني أظن أنني يجب أن أفعل ذلك بمفردي، على الرغم من أن لديك دورًا مهمًّا للغاية لتلعبه.»

ضحك بلُطفٍ وفرَك يدَيه.

«مثل أي مُجرم ذكي آخر، ارتكب خطأً من أحمق الأخطاء الفادحة؛ فقد ورث أموال زوجته بموجب وصيةٍ قديمة تنصُّ على ترك جميع مُمتلكاتها له باستثناء ألفَي جنيه إسترليني سبق أن أودَعَتْها في البنك، وكتبت هذا المبلغ لابن أخيها، وهو مهندسٌ في بليموث. وبسبب جشَعِه، لا بدَّ أنَّ تويندين قد نسِيَ هذا الإرث. ووضع جميع الأموال في بنكٍ في توركواي؛ ثم نُقِلت من نيوتن أبوت قبل بضعة أيام وكان الأمرُ حديثَ المدينة. اذهب إلى بليموث وقابِلِ الشاب جاكلي ومُحاميَه، إذا كان لديه مُحامٍ، أو أي محامٍ آخر إذا لم يكن قد وكَّل واحدًا، وإذا لم تكن الألفَي جنيه قد دُفعت، فاجعله يتقدَّم بطلبٍ للحصول على مذكرة اعتقال لتويندين. إنه وصِيٌّ هارِب في هذه الحالة، وسوف يُصدر القضاة المذكرة إذا علموا أن الرجل سيُغادر غدًا على متن سفينة روتردام.»

قال مانفريد: «إذا كنتَ رجلًا عاديًّا يا ليون، لاعتقدت أن انتقامك غيرُ كافٍ بعض الشيء.»

قال ليون بهدوء: «لن يكون الأمر كذلك.»

في التاسعة والنصف، كان الدكتور تويندين — بياقة معطفه المرفوعة وحافة قبعةٍ لبادية تُخفي الجزء العلوي من وجهه — يدخُل عربةً من الدرجة الأولى في نيوتن أبوت عندما ربَّت الرقيب المُحقِّق المحلي على كتفِه.

«أُريدك يا دكتور.»

سأله الدكتور مُتفاجئًا، وقد ابيضَّ وجهه: «لِمَ أيها الرقيب؟»

قال الضابط: «معي مُذكرة بإلقاء القبض عليك.»

عندما قُرِئت التهمة على الرجل في مركز الشرطة هتف كالمجنون، قائلًا: «سأُعطيك المال الآن، الآن! يجب أن أذهب الليلة. سأُغادر إلى أمريكا غدًا.»

قال المُفتش بجفاء: «إذن فهمت، لهذا السبب أُلقي القبض عليك يا دكتور.»

وحبسوه في الحجز طوال الليل.

في صباح اليوم التالي مَثُل أمام القضاة؛ قُدِّمت الأدلة، وأدلى ابن الأخ الشابُّ من بليموث بشهادته، وتشاور القضاة.

قال رئيس المحكمة: «بِيدِنا دليلٌ دامغ على نية الاحتيال يا دكتور تويندين. أُلقِي القبض عليك وبحوزتِك مبلغٌ كبير جدًّا من المال وخطابات اعتماد، وبات واضحًا أنك كنتَ تنوي مغادرة البلاد. بموجب هذه الملابسات، ليس أمامَنا سوى إلزامك بالمُثول للمحاكمة في الجلسة المقبلة.»

قال الدكتور بغضب: «لكن يُمكن الإفراج عنِّي بكفالة. أُصِرُّ على ذلك.»

كان الردُّ القاطع: «لن يكونَ لك كفالة.» ونُقل بعد ظهر ذلك اليوم بسيارة أجرة إلى سجن باكستر.

انعقدت الجلسات في الأسبوع التالي، واستشاط الطبيب غضبًا مرةً أخرى في ذلك السجن نفسِه الذي سبق أن خرج منه إن لم يكن بشرَف، فعلى الأقل دون التعرُّض لكارثة.

في اليوم الثاني من سجنه، تلقَّى حاكمُ سجن باكستر رسالة تقول:

«سيصِل ستة سجناء مُهمِّين — نُقِلوا إليك — إلى محطة باكستر في الساعة العاشرة وخمس عشرة دقيقة. رَتِّب سيارة السجن لِلقائهم.»

وكان التوقيع باسم «السجن»، وهو العنوان التلغرافي لمُفوض السجن.

صادف أنه في ذلك الوقت تقريبًا وقع تمرُّد في أحد سجون لندن، وكان نائب الحاكم، بخلاف الإعراب عن دهشته من الساعة المُتأخِّرة، قد أعد سيارة السجن لتكون في ساحة محطة باكستر لمقابلة دفعة المُرحَّلين.

وصلَت رحلة الساعة العاشرة وخمس عشرة دقيقة القادمةُ من لندن إلى المحطة، وسار الحراس الذين ينتظرون على الرصيف ببطءٍ بجانب القطار بحثًا عن عربةٍ مُسدَلة الستائر، لكن لم يكن هناك سجناءُ في القطار، ولم يكن ثمة قطارٌ آخَر مُقرَّر وصوله حتى الساعة الرابعة صباحًا.

قال أحد السجَّانين: «لا بدَّ أنهم لم يلحقوا به.» ثم قال للسائق: «حسنًا يا جيري.» ثم أغلق باب سيارة نقل السجناء السوداء، الذي تُرك مفتوحًا، وتحركت الشاحنة من ساحة المحطة.

ببطءٍ فوق المنحدر وعبر بوَّابات السجن السوداء، استدارت الشاحنة عبر بوابةٍ أخرى إلى اليسار، وكانت بوابة تُشكل زاوية قائمة مع البوابة الأولى، وتوقفت أمام الأبواب المفتوحة لسقيفة من الطوب مُنعزلةٍ عن السجن.

تذمَّر السائق وهو ينزل وفكَّ خيوله.

قال: «لن أضع الشاحنةَ في السقيفة الليلة. ربما سيكون لديك بعض السجناء لفعل ذلك غدًا.»

قال السجَّان المُتشوِّق للفرار: «سيكون ذلك جيدًا.»

سُمِع صوتُ تحرُّك الخيول من مكان احتجازها، ثم صوت طقطقة الأقفال حيث كانت البوابات تُغلَق، ثم ساد الصمت.

حتى الآن كان كل شيءٍ على ما يُرام من وجهة نظر رجلٍ واحد. هبَّت رياح جنوبية غربية في دارتمور حول أركان السجن وأخذت تُدوي في الفناء المُظلم المهجور.

سُمِعت فجأةً طقطقةٌ خفيفة، وفُتح باب سيارة نقل السجناء السوداء. واكتشف ليون أن مفتاحه لا يُمكن أن يفتح بابًا آخر. تسلَّل إلى عربة السجن عندما كان الحُرَّاس يُفتشون القطار، ووجد صعوبةً في الخروج منها. لم يكن هناك رجال قادمون من لندن، كما علِم، لكنه كان في أمسِّ الحاجة إلى سيارة نقل السجناء هذه؛ فقد قادته إلى المكان الذي كان يرغب في الذَّهاب إليه. ثم أنصت — ولم يكن هناك صوتٌ سِوى صوت الرياح — وسار بحذَر إلى مبنًى صغير مُغطًّى بالزجاج، ولف مفتاحه الرئيسي، فلفَّ القفل، ومن ثَم حصل على فترة خلوةٍ صغيرة في وقت التصوير الفوتوغرافي للسجناء. عبر بابًا آخر ووجد نفسَه في مخزن. خلف المخزن، تقع عنابرُ السجن. أخذ يتقصَّى حذرًا وعرَف مكان زنازين الحبس الاحتياطي.

اعتقد أن دوريةً ستمرُّ قريبًا، فنظر إلى ساعته، وانتظر حتى يسمع خُطًى تسير بالقُرب من الباب. كانت الدورية ستجتاز في ذلك الوقت جناحًا بزاويةٍ قائمة إلى السجن، وفتح الباب ودخل القاعة المهجورة. سمع نقْر نعل رجل الدورية الراجعة، وصعد بهدوء سلسلةً من السلالم الحديدية إلى الطابق العلوي إلى أبواب الزنازين ومشى بطول الطرقة. في ذلك الوقت، رأى الرجل الذي يُريده. دخل مفتاحُه في باب الزنزانة دون أن يُحدِث ضجةً واستدار. رمَقَه الطبيب تويندين من سريره الخشبي.

همس جونزاليس: «انهض، واستدِر.»

أطاعه الدكتور مُخدَّرًا.

ربط ليون يدَيه خلف ظهره وأمسكه من ذراعه وتوقَّف لإغلاق باب الزنزانة. ثم خرج عبر غرفة المخزن إلى المكان الزجاجي الصغير، ثم قبل أن يعرف الدكتور بما حدث، وضع منديلًا حريريًّا كبيرًا على فمه.

«أيُمكنك سماعي؟»

أومأ الرجل.

«هل تشعُر بذلك؟»

كان «ذلك» شيئًا حادًّا يندسُّ في ذراعه اليسرى. وحاول أن يُفلِت ذراعه.

قال صوتُ جونزاليس في أذنه: «ستُدرك قيمة الحقنة تحت الجلد أكثرَ من أي شخصٍ آخر. لقد قتلتَ امرأةً بريئة وتهرَّبت من القانون. قبل أيام قليلة تحدثتَ عن رجال العدالة الأربعة. أنا واحدٌ منهم!»

حدَّق الرجل في الظلام إلى وجهٍ لا يستطيع رؤيته.

«أخفق القانونُ في الإيقاع بك، ولكننا لم نُخفِق. هل تفهم؟»

أومأ الرجلُ ببطءٍ أكثر الآن.

أفلتَ ليون ذراعَ الرجل، وشعر به ينزلق على الأرض، حيث استلقى بينما ذهب جونزاليس إلى موقف سيارات السجن، وسحب المِشبكَين المُعلَّقين بشكلٍ مُستقيم في الحفرة حتى تشابكا، ثم أسقط نهاية الحبل الذي كان يرتديه حول خصرِه فوق العارضة.

عاد بعد ذلك إلى الرجل الفاقد للوعي.

وفي الصباح عندما جاء الحرَّاس إلى موقف العربات — الذي بات أيضًا سقيفةَ الإعدام — ورأَوا حبلًا مشدودًا. كان المسار مفتوحًا، ورأوا رجلًا عند طرف الحبل، ساكنًا تمامًا؛ رجلًا هرب من إعدام القانون ولكنه مات على يد العدالة.


هنداوي